عاتق بن غيث البلادي



(رحلات في قلب الحجاز)





بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اللهم إني أحمدك حمد العارف بفضلك المحتاج إلى عونـك ، فانه لا يسير إلا ما يسرت ، ولا صعب مع تيسيرك وتوفيقك .

وصلِّ وسلم على خير من مشى على وجه هذه الأرض ، الهـادي الصادق الأمين : نبيـك وحبيبك محمد بن عبـد الله ، النبي التهامي القرشي الهاشمي .

أما بعد : فان أرض الحجاز قد حباها الله ـ دون بقاع المعمـورة أجمع ـ بنور من نوره ، وفضل من فضله ، فأنزل فيها خير الحديث كتاباً ، وأرسل به خير البشر نبياً ، ونشر منها خير أمة أخرجت للناس ، واختارها لبيته مبوءًا ، ولآخر كتبه منزلاً .

ففيها جاهد محمد والذين آمنوا معه ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وفيها خاض كل غزواته لمحو الشرك وتحطيم الأوثان ونشر الاسلام ، ليكون الدين كله لله .

من هنا اكتسبت ـ أرض الحجاز ـ صفة خاصة لم تكن لغيرها من بقاع الدنيا ، وقداسة لا تنافسها فيها بقعة من بقاع المعمورة قاطبة .

لهـذه الخصائص اعتنى بهـا السلف ـ رحمهم الله ـ دراسة

جغرافية ، وأدبية ، وتاريخية ، وان لم يوفوها حقها فما غمطوها شيئاً يعلمونه . غير أن معالم كثير ظلت مجهولة ، وبعضها قد تغير مع الزمن ، وبعضها لم يهتد إليه من سبقنا .

وقد انجب الحجاز عدداً من الجغرافيين الأفذاذ ، كان بعضهم في درجة العلماء ، منهم : الشريف علّي بن وهّاس العلوي،وعرّام بن الأصبغ وغيرهما .

ومع هذا ظلّت جوانب عديدة تحتاج إلى الدراسة والتحديد ،وظلت أحداث تأريخية مطمورة بين ثنايا أمهات المراجع .

وقد اندثرت ـ في هذا الاقليم ـ مدن وقرى ، وقامت أخرى ، وتغيرت بعض الطرق والمسالك ، ورحل سكان أو امتزجوا بغيرهم ، ودخل سكان آخرون .

كل هذا حدث خلال أربعة عشر قرناً مرت على البعثة الشريفة .

ومع هذا ظل الدارسون والباحثون يجترون تلك المعلومات ، فلا مجدد ، ولا مصحح ، ولا منبه إلى ما تغيّر أو اندثر .

فقد انقطعت ريادة البادية ، وخمدت الهمم ، وتعسّرت الوسائل ، وساء الأمن .

وعندما بدات أمارس البحث ، وشرعت في تأليف كتابي (معجم معالم الحجاز) هالتني الحالة التي عليها مراجعنا عن هذا الاقليم المقدس ، فكل متأخر عوّل على سابقه ، ونقل عنه ، وتضاعفت التصحيفات ، وكثر التحريف .

والخلاصة : إن الساكن في مكة ما كان يستطيع تحديد الأثبرة ، ولا

يعرف أين يقـع سرف أو مر الظهران ـ مثلاً ـ وان الساكن في المدينة لا يعرف أين تقع حمراء الأسد أو ثور .

من هنا كان عزمي على القيام بهذه الرحلات خلال ست سنـوات مضت ، شاهدت فيها معظم المنطقة المعروفـة بالوُسَيْط (بـين مكـة والمدينة) وما حولها . فحددت الأماكن التاريخية التي غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي حدثت فيها الحوادث أو وردت في شعـر الشعراء ، ثم تابعت الطرق والمسالك والمحطات ، ففصلتها تفصيلاً أرجو أن أكون قد وفقت فيه ، فهـذا كتاب مشاهدة مقرونة بما خف مـن النصوص والشواهد ، مركزاً فيـه على الأماكن التاريخية والاسلامية خاصة ، مبيناً الأخطاء التي وقع فيها من سبقني .

وعززت الكثير منها بمخططات توضيحية أما استيفـاء النصـوص فمكانه (معجم معالم الحجاز) فانظره .

وبذلت جهدي ـ بعد المشاهدة ـ في تحديد طريق الهجرة بما لم يتعرض له أحد قبلي ، فقد تابعته متابعة من يقص الأثر ويقتفي الضالة ، فعاينت المسالك والمخارج التي يمكن أن يسلكها مهاجر يتخفى عن أعين الناس ، ويحتاج إلى السير ليلاً ، وإلى مناهل المياه المستورة والطـرق البعيدة عن أعين الرقباء والطامعين في الجائزة المبذولة لمن يقبض على محمد .

وهذا الكتاب متمم ـ إن شاء الله ـ لمعجم معالم الحجاز ، ومعجم قبائل الحجاز ، وغيرهما ، فتكون ـ في مجموعها دراسة كاملـة شاملة عن جغرافية الحجاز ، ولمحات من تأريخه ، ونبذاً طيبة من آدابه .

والله أسأل أن ينفع به ويثيبني عليه ، بمنه وكرمه ، أنه نعم المولى ونعم النصير . وقبيل ارسال هذا الكتاب إلى المطبعة أهدى إليّ الأستاذ

عبد القدوس الأنصاري كتابه (طريق الهجرة النبوية) فوجدته ذا قيمة تأريخية ، جمع فيه معظم النصوص عن الهجرة ومناسباتهـا ، وقارىء كتابي هذا سيستفيد كثيراً لو عطف على كتاب الأستاذ الأنصاري ، فهما متممان لبعضهما جغرافية وتأريخـاً في كل ما يتعلق بالهجـرة النبويـة الشريفة ودرب الأنبياء (١) .

مكة المكرمة في الأول من ذي القعدة سنة ١٣٩٨ هـ

المؤلف

---

(١)انظر ثلاثة كتب أخرى عن رحلاتي هي:في شمال الحجاز والأردن الرحلة النجدية ، وهما مطبوعان . والحجاز اليماني تحت التـدوين .

الرحلة الأولى

الاعداد للرحلة :

في اليوم الخامس عشر من محرم ١٣٩٣ هـ الموافق ١٨ شباط ، فبراير سنة ١٩٧٣ ميلادية ، بدأت الاعداد للرحلة ، وذلك بتقديم اجازة لمدة عشرة أيام ، ثم اتصلت بأحد التجار في جدة ، فأرسل إلي أربع عجلات لسيارتي (الجيب) تصلح للسير على جميع الأراضي ، ورغم ارتفاع قيمتها فقد سررت بها ، فالمهم عندي انجاح هذه الرحلة ، وقد رصدت لها مبلغ (٣٠٠٠) ريال .

وفي يوم ١٩ محرم أشعرت بالموافقة على الاجازة ، فذهبت الى أحد مصلحي السيارات في مكة لاجراء الكشف الضروري على سيارة الرحلة، فتم ذلك بما يشكر عليه ذلك الأخ .

وفي يوم السبت (٢٢ محرم) قابلت رئيس ديوان امارة منطقة مكة المكرمة ، طالباً منه بعض التوصيات لامراء النواحي التي في طريقي ، لبذل المساعدة في التعرف على المواقع التأريخية والأثرية ، غير أنه اعتذر عن ذلك ، وقال : إن أمراءنا لا يحتاجون الى توصية ! وأنت ابن البلاد ومعروف لدى الكثيرين هناك .

وفي يوم الأربعاء الموافق ٢٦ محرم تكرمت قيادة منطقة مكة فمنحتني راحة يوم الخميس استعداداً للسفر .

بدء الرحلة :

ما أن غابت شمس يوم الجمعة الموافق ٢٧ محرم سنة ١٣٩٣ هـ ، ٢ آذار ــ مارس ــ ١٩٧٣ م ، (١١) الحوت ١٣٥١ شمسية ، حتى كان

كل شيء قد أعد ، فالفراش محزوم ، والأدوات في الصناديق والماء محقون ... الخ .

شيء واحد تجاهلته ، ذلك هو الرفيق ، فأنا ــ خلاف كل الناس أو أغلبهم ــ أتجنب قدر امكاني مصاحبة الناس في السفر ، لعدة أسباب من أهمها : قطعه علي خيوط التفكير التي هي متعتي أثناء السفر، ثم منازعة الرأي ومخالفة الأمر فإن أردت المبيت أراد السُّرى ، وإن أردت التبكير تباطأ وتثاقل ؛ وبناء على ذلك فقد اعتمدت على الله عز وجل ، ثم على هذا الرفيق (الجيب الأستن) الذي طالما رافقني خلال رحلات عديدة فلم يخذلني مرة واحدة ، بل ظل دائماً طوع أمري يسير متى شئت ، ويقف متى شئت !.

اليوم الأول للرحلة

في الساعة السادسة صباح السبت الموافق ٢٨ محرم الثالث آذار والثاني عشر من الحوت ، تحركت بسيارتي من منزلي بساحة إسلام بمكة المكرمة ، وكانت الشمس لما تشرق بعد ، والجو بديع والنسمات عليلة ، فهذا هو أول فصل الربيع ، وأول فصل الربيع في تهامة جميل جداً تظل الغيوم تتكاثف فيه أكثر أيامه ، ونسيمه معتدل ، فهذا هو أنسب الأوقات للرحلات في هذا الاقليم .

الزاهر

ومررت بالزاهر : ذلك الحي الجميل من أحياء مكة المشرفة ،وكنت لا أزال أحتاج الى نور السيارة ؛ وعند عمرة التنعيم ــ على خمسة أكيال من المسجد الحرام ــ أخذ الصبح ينبلج ، وهذا المكان يبعد عن المدينة المنورة (٤٥٥) كيلاً . وبعد التنعيم بخمسة أكيال مررت

فوق جسر وادي ياجج ، وقد وضحت الرؤيا ، فكان يميني البساتين الصغيرة المنتشرة في الوادي ، وعن يساري على بعد خذفة حجر (بئر مُقيت) ، ثم مقهى في مستوى من الأرض ، وهو المكان الذي صلب فيه الصحابي الجليل خُبَيْب بن عَدي رضي الله عنه ، أحد الصحابة الذين أوقعت بهم بنو لحيان في الرَّجيع .

وكانت تظهر في السماء الغيوم الخفيفة المنخفضة ، وكان الهواء بارداً حتى أغلقت زجاج السيارة .

ثم هبطت منخفضاً لشعيب يرفد وادي ياجج من أسفله ؛ وهذه الأرض ــ بين مكة ومر الظهران ــ تسمى اللحيانية ، نسبة الى أهلها قبيلة لحيان من هُذَيل .

سَرِف

ثم هبطت وادي سَرِف ، فتراءت لي عن يميني قرية هي احدى قريتي لحيان بسرف ، وبجانب الخط منهل النوارية ، به مدرسة سَرِف ، وبه حانوت ، وعن يساري مباشرة جبل النوارية الذي كان يستخرج منه حجر النورة ، وعلى مد البصر غرباً الى الشمال قرية لحيان الثانية في سرف ؛ وبعد كيل وشيء يسير خرجت من وادي سرف الى ريع قد سُهِّل حتى لم يعد ريعاً .

ام المؤمنين

وبسفح جبل هذا الريع وعن يسار الطريق ترقد السيدة الطاهرة : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث تجاور قبرها ثلاث آبار عن يمين الخط ويساره ، وكان على ضريحها بنيان ، وكان يزار ، وهذه الأبار لسقي الزوار ومن كان يسكن هنا لخدمتهم ، ثم هدم ذلك البنيان ، وهجر المكان تماماً فهو خرائب اليوم ، وآباره جافة قد غار ماؤها ؛ ويبعد هذا

المكان ستة عشر كيلاً عن المسجد الحرام ، وأحد عشر كيلاً من عمـرة التنعيم ؛ هذه مشاهداتي أثناء الرحلة ، وقد رزت المكان وأنا أنقح هذا الكتاب وأعده للطبع فوجدت ضريح السيدة قد أحيط بحائط من الطوب الاسمنتي ، وجُعلت له شبابيك الى الطريق ، ورغم أن هذا الحـائط من النوع الذي لا يصمد كثيراً غير أنه خير مما كان .

ويقال : إن العمرة كانت في هذا المكان ، وان المكيين يعتقدون أنه حدود الحرم ، ثم غيرت العمره عندما اختل الأمن خوفاً على الحجاج والمعتمرين . والقول انه حدود الحرم ــ إذا صح ــ له معقولية ، ذلك أن حدود الحرم من كل اتجـاه تبعد عن المسجد الحرام بما لا يقل عن عشرين كيلاً ، الا من جهة التنعيم ، فهي خمسة أكيال فقط ، وهو أمر فيه نظر ، غير أن العلماء اتخذوا هذه العمرة للرواية القائلة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمر عبد الرحمن بن أبي بكر بأن يعمر عائشة رضي الله عنها من التنعيم .

زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بميمونة

وهنا نسيت الساعة ونسيت عداد السيارة اللذين أديم التطلـع اليهما ، وسرح فكري بل قل شرد أو قام برحلة عبر القرون الخوالي ، فتصورت ــ في هذا الوادي المجدب (سرف) ــ زواجاً يقيمه محمـد صلى الله عليه وسلم ، على مَيْمونة يكون منتهى سعادتها ، فقد قالت عندما تناهت اليها خطبته صلى الله عليه وسلم ، وكانت راكبة جملاً : الجمل ومن عليه لله ورسوله ! ثم تدور السنون فاذا هي تموت بنفس المكان الذي بنت فيه سعادتها ، وترقد راضية قريرة العين بما وهب الله الأنبيـاء والصالحين . ولكن الناس لم يتركوها وهذه الرقدة الهانيئة البعيدة عن الضجيج ومشاكل الحياة ، فيسرعون يبنون عليها بنياناً لـو كانت تحدثهم لرفضته ، ثم يأتي آخرون يهدمونه ، ثم يعودون فيبنون عليها حائطاً ! وإلى جوار القبر من الشمال (أضاة بني غفار) .

وادي الضيّق

وبعد هذه الخرجة أو السرحة الفكرية تنبّهت فاذا السيارة تهبط وادي الضيق ، على ٢٢ كيلاً من مكة ، ذلك المكان الذي حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبا سفيان عنده يوم الفتح ليرى جنود الله المدججة بالسلاح .

ومرة أخرى سرح فكري — وما أكثر ما يسرح — فتصورت — وأنا العسكري بطبعي — تلك القوات المسلحة بالايمان قبل كل شيء ، قبائل في أشكال كتائب ، يحمل لواء كل قبيلة صحابي من الأطهار ، وعظيم مكة (أبو سفيان) ينظر اليها بعين الصاغر الذليل . وهذا محمد القائد العام لقوات الفتح يحمل — رغم انتصاره — قلباً رحيماً يسع محسن أهل مكة ومسيئهم ، يخفض رأسه تواضعاً لله ، وما أن يدخل المسجد الحرام ويحطم ما فيه من الأوثان ، حتى يقول لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم يجعل الله من هؤلاء الطلقاء ونسلهم قادة فاتحين ، وأمراء ، وعلماء ، ولقد أعز الله بهذا الدين أقواماً ، وأهان به أخرين ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

مرّ الظهران

ثم هبطت السيارة وادي فاطمة ، المعروف قديماً بمر الظهران ، فتراءت لي يميناً وشمالاً بعض بساتين قليلة ، فلم يعد مر الظهران الوادي الأخضر كما كان يسمى ، بل أصبح وادياً أغبر بعد أن جفت عيونه في السبعينات من هذا القرن[1] .

ومر الطريق فوق جسر ضخم يمر تحته سيل هذا الوادي الفحل ،

---

(١) انظر عن هذا الموضوع كتابي (معجم معالم الحجاز) .

ثم شق الطريق قرية الجموم قاعدة مر الظهران الواقعة على طرف ذلك الجسر من الشمال .

وهي قرية كانت تقوم على عين الجموم كمحطة للقوافل بين مكة وعسفان ، فهي المرحلة الأولى من مكة ، وتبعد عنها (٢٥) كيلاً .

يسكنها في الأصل ذوو حسين : بطن من ذوي بركات الأشراف الحسنيين ، أما اليوم فقد كثر فيها السكان ومعظمهم من قبائل حرب التي هبطت من ديارها إبان الحرب العالمية الثانية ، وما بعدها .

وفي الجموم امارة معظم الوادي ، وبها مركز للتنمية الاجتماعية ، ومحكمة شرعية ، ومركز شرطة ، وفيها محطة لبيع المحروقات تابعة للجمعية التعاونية ، كما أن بها مدارس للبنين والبنات بين الابتدائي والثانوي .

كانت الساعة السابعة إلاّ ثلثاً ، فلم أتوقف هنا ، وكان النسيم عليلاً شمالياً الى درجة البرودة ، مما أعطى السيارة ضماناً ضد السخونة!

وصف الأرض من الجَموم

تقع الجَمُوم في نهى واسع يجري فيه وادي مرّ الظَّهْران من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، ويشرف عليها من الغرب يكاد يظللها العشي جبل سدر : أسمر شامخ . ومن الشمال أضلع صغار تضرب الى الحمرة تسمى موقدات، ومن الشمال الشرقي حرة النَّهْميّة: حرة سوداء مظلمة تمتد من الشرق الى الغرب ، يصفق سيل مرالظهران في جانبها الجنوبي ، تقابلها من الجنوب بينهما وادي مر الظهران حرة تسمى العُجَيفاء ، وهي من الجموم مطلع شمس ، تقع بسفح العجيفاء الغربي (عين شمس) : أراض من المدر كانت لها عين فانقطعت ، كانت ملك الملك حسين بن علي ، قائد الثورة العربية الكبرى .

ويجلب اليوم منها المدر الى مكة لعمل الآجر الأحمر،ومن العجيفاء هذه وجنوب تقع هضيبات وسهول تسمى (الهضاب) وتميز عن غيرها بهضاب لحيان ، فهي جزء من اللحيانية ٠

أما في الجنوب من الجموم فسلسلة جبلية واطيئة ، هي امتـداد اللحيانية الآنفة الذكر ، ثم فهوة وادي مر الظهران التي لا ترى لهـا نهاية في الجنوب الغربي ٠

والبلدة آخذة في التقدم ، ونظراً لقربها من مكة فقد أخذت أمانة العاصمة وامارة مكة تقطعان الناس فيها ، اعداداً لتكون مدينة تخفف الضغط السكاني عن مكة ، غير أن الاقبال عليها لم يبلغ ما يراد ٠

جغرافية مر الظهران

وادي مر الظهران من الأودية الفحول في الحجاز ، وكان من أغزرها مياهاً ، حتى قيل إن ثلاثمائة عين كانت تجري فيه ، وأدركت أنا فيه ستاً وثلاثين عيناً لم يعد يجري منها اليوم غير خمس عشرة عيناً ، ولانقطاعها خبر أوردته في « معجه معالم الحجاز » ٠ وهو من أطول أودية الحجاز أيضاً باستثناء إضَم ، فهو ينبع من السفوح الشرقيـة لجبال هَدَأة الطائف ، ويأخذ كل مياه الهدأة حيث تكون هناك منابع النخلتين ، وهما أعظم روافده على الاطلاق ، فالأولى تسيل من غرب الطائف على أحد عشر كيلاً فقط ، فتسمى وادي الغديرين ، ثم وادي المحرم ، ثم قرن ، ثم السيل الكبير ، ثم وادي بعج ، ثم وادي حُرَاض ، ثم وادي الليمون أو المضيق ، كل هذه أجزاء من نخلة الشامية ، ثم تلتقي بنخلة اليمانية ، فيسمى الوادي وادي الزبارة ، ثم وادي الريان ، ثم وادي القشاشية ، ثم وادي فاطمة فوق الجَموم الى حَدّاء ، ثم يبحر جنوب جُدَّة على قرابة خمسة وعشرين كيلاً ٠

أما نخلة اليمانية ، فتأخذ كل مياه هدأة الطائف ، فاذا اجتمعت مياه الهدأة سمى وادي الأغراف ، ثم تضاع أو الشَّرْقة ، ثم الكفؤ ، وهذا أعظم روافده ، وأطول من الوادي نفسه ، أما رأس نخلة اليمانية فهو البَوباة غرب السَّيْل الكبير عن قرب ، وتعرف اليوم باسم (البُهَيْتة) لأن أرضها دأث بصعود ، فهي تبهت السائر فيها .

الأصافر

ومن الجموم أو من مر الظهران خرج الطريق شمالاً عدلاً ، وأخذ يصعد صحاصيح يميل لونها الى الحمرة ، ثم دخلت بين أضلع ضعاضع على شكل سلسلة مقاطعة للطريق ، هذه الأضلع تسمى موقدات ، ووردت في كتب بعض المتقدمين باسم الأصافر ، وهي غير أصافر هرشَى، وغير أصافر وادي الصفراء، وتتخلّل هذه الأضلع أشعب صغار يقال لها: الغَزازي ، واحدتها غَزِّيّة ، والغَزِّية: الملعقة ، ولا مناسبة بين الاسمين .

ولجبال موقدات أسطورة في الأدب الحجازي، تقول هذه الاسطورة: إن الكفار طاردوا الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل بين هذه الأضلع وتجاوزها أوقدها الله ناراً على الكفار ، فلم يستطيعوا ملاحقته! وليس لها أساس تأريخي .

سهل الهَدَة الواسع

لم ألبث أن خرجت من هذه الأصافر أو موقدات كما تسمى اليوم، فهي ليست عريضة ، فهبطتُ في منحدر سهل الدُّعَيْثة ، فانبسطت الأرض أمامي حتى لا يكاد يجد النظر ما يحده .

هذا المتسع الفسيح هو سهل الهدة الواسع ، الذي يمتد الى

عسفان على بعد (٥٥) كيلاً من هنا ، ومن جبال الخشاش التي ظهرت في الغرب ، الى حرة الرّزن التي ظهرت في الشرق ، بطول يقرب من أربعين كيلاً ليس فيه من الحَشَر سوى حرة ضَجْنان التي ظهرت أمامي ممتدة من الشرق الى الغرب ، بشكل طرف المسطرة ، يمر الطريق بلصقها من الغرب ، وسهل الهَدَة يحيط بها ، فهي منقطعة عما حولها من الحرار بين شعبتي الهدة : الشامية ، والقعرة .

وتحيط الجبال والحرار بهذا السهل من جميع جوانبه ، حتى تجعله كالروضة بينها ؛ فخلفي الى اليسار جبل سِدْر الذي يظلّل الجموم عشيّاً ، يليه من الغرب جبلا مُكسِّر وضاف على التوالي ، بينهما فج الكريمي (ثنية المرار قديماً) .

هذه الجبال الثلاثة تشكل سلسلة من الشرق الى الغرب ، تبدأ عند الجموم وتنتهي مكنعة في خبت جُدّة من الشرق ؛ وتلتقي بها من الشمال وتشكل معها ضلع مثلث قائم الزاوية في التقائهما سلسلة أخرى تذهب شمالاً حتى تشرف على عُسْفان ، هذه السلسلة تسمى (الخَشَاش) ، تشرف على جُدّة من الشمال الشرقي ، وقد تناوش عمران جُدة نعوفها الغربية ؛ وأبرز ما يظهر من قنانها من هنا : جبل قَنْط ، وجبل القِمِّي ، وجبل أبي الرَّيْحان .

يفصل بين هذه السلسلة وبين الطريق المتجه الى المدينة في موازاة لهما وادي الصُّغُو : وادٍ خصب التربة قليل المياه ، كان يجود بالحبحب والدخن ، ولا يزال .

أما من الشرق فيحف بهذا السهل حرار: الرَّزن ، والمُسْهل، يفصل بينهما وادي الهدة : وادٍ فحل كثير المياه عيوناً وبثاراً ، يأتي من حرة الروقة الطرف الجنوبي لحرة الحجاز العظيمة ، ثم يغمر سيله معظم السهل الذي تحدثنا عنه آنفاً ، ولو سد هذا الوادي ككثير من أودية

الحجاز الأخرى لتغير وجه الأرض هنا جزئياً • ويتصل بحرة المسهل من الغرب حرة الجابرية ثم حرة غرب ، حافة هذا السهل من الشمال مشرفة على عسفان من الشرق ، فتكون بهذا قد اكتملت الحلقة الجبلية حول هذا السهل الواسع الذي تبلغ مساحة الأرض التي تمكن زراعتها قرابة أربعمائة كيل مربع بواقع ٢٠٪ من مجموع مساحة هذا السهل ، وتجري فيه أودية بين كبير وصغير لو سدت أمكن زراعةمساحة ثمانين كيلاً مربعاً رياً دائماً بواسطة الأبار ، وهذه المساحة تتسع لما لا يقل عن مائة ألف نسمة ، وتعرف فائدة هذه النظرية لو طبقت إذا علمت أن كل سكانه اليوم لا يزيدون عن خمسمائة نسمة •

الجـو

منذ أن صعدت ثنايا موقدات ظهرت في السماء السحب الداكنة ، وهذا النوع من السحب إذا خالطته الرياح غالباً ما يمطر ، فإذا لم يبلغ هذه الدرجة هطل رذاذاً مما يجعل الجو ممتعاً والنسيم عليلاً منعشاً ، فإذا هبت عليه الأزيب تكاثف بسرعة وزبّدته تزبيداً ، فتراكم وتلألأ برقة وزمجر رعدة فتصبح هذه الأودية خطرة مخيفة ، وكم قافلة جرفها السيل بأكملها ، وكم نزلة لم يصبح لها أثر على وجه الأرض •

وادي مَدْسوس

انحدرت في السهل الأنف الذكر فعبرت جسر مدسوس : وادٍ صغير يأتي من اليمين من حرة الرّزن ، ورد اسمه في بعض كتب الرحلات باسم (مَسْدوس) • يبعد هذا الجسر (٤٤) كيلاً من مكة ، وكانت على جانبي الجسر الى مد النظر تظهر زراعة حبحب بدا عليها أثر الهزال والذبول ، ولا غرو فهذه السنة من سنين المحل والجدب في الحجاز ، فلم تهطل الأمطار إلا قليلاً بعيد شهر رمضان ، وكان من أثرها

هذه الزراعة الضعيفة ، وبعده بكيل واحد فرق يميناً طريق الهدة ، وكتبت عليه لوحة بهذا اللفظ (هدى الشام) ، وسبب ذلك أن شهرة هدأة الطائف طغت على اسم الهدة الذي كان هو المعروف بهذا اللفظ في الحجاز ، حدث هذا بعد شقّ طريق كرا وأخذ الناس يرتادون هدأة الطائف لجوها الجميل ؛ وهذا الطريق ترابي ليس فيه أثر للاصلاح ، تبعد الهدة من هنا قرابة خمسة عشر كيلاً ، فيها أربع عيون وعديد من الأبار الزراعية .

وسكانها خليط من الأشراف ذوي عمرو والشيوخ ـ حي ينتسبون الى الأنصار ـ ومُعبّد من حرب . أما المنطقة الواقعة بين مر الظهران الى عسفان على جانبي الطريق فسكانها قبيلة بشر من بني عمرو من حرب ، ولذا حدد شاعرهم هذه الأرض ناسباً إياها إلى محبوبته فقال :

سيدي مرابيْه من حوز الرقاب ليامّ جرفانْ
من بير محسن ليا الوطيهْ ليا برقا الغَميم
وليا تشاملْ يردتّهْ علي بيار عسفان
وليا تيا من يردّهْ فج ابن عبد الكريم[1]

ومن مدسوس استقل الطريق على صمود (القعرة) فأخذ اتجاه الشمال العدل ، وكانت الأرض جرداء مغبرة لما أصابها من المحل . ولا زال الجو غائماً جزئياً مائلاً الى البرودة شمالي الرياح . وأخذت سرعة السيارة في تزايد ملحوظ لاعتدال الطريق، وخلوه ، وعامل كسب الوقت .

بئر المحْسِنيّة

وعند الكيل ٥٤ من مكة ، كان على يساري رأي العين نفريستقون

---

(١) جميع المعالم الواردة في هذه الرحلة محددة في كتابي (معجم معالم الحجاز) وقد طبعت أجزاء منه .

من بئر المحسنية ، وهي البئر الوحيدة في هذه المفازة القاحلة ، حفرها الشريف محسن بن حسين بن حسن بن أبي نُمَيّ أمير مكة من سنة ١٠٣٤ ــ سنة ١٠٣٧ هـ المتوفى بصنعاء سنة ١٠٣٨ هـ وكان من المشهورين بأعمال الخير ، وله سبل في طريق الحاج غيرها •

ثم التصق الطريق بخشم حرة المحسنية ، وهو اسم يطلق على حرة ضجنان هنا ، نسبة الى تلك البئر المشار اليها •

ثم لم يلبث الطريق أن تجانف يساراً الى الشمال الغربي ،وظهرت الى اليمين كراع الغَمِيم ،على مرأى من الطريق ، ويطلق اليوم عليها برقاء الغميم ، وهو اسم واقعي أصدق من الكراع ، ذلك أنها نعف حرة من ضجنان يكسوها الرمل السائب ، فهي برقاء متميزة أما الأكارع إذا أريد بها نعوف الجبال فهي لا تحصى ولا تعد في الحجاز ، وتبعد برقا ءالغميم ١٦ كيلاً من عسفان جنوباً شرقياً •

شاميّة ابن حمادي

وبلصق كراع الغميم فرق الى اليمين شمالاً طريق الشامية ، ويميزونها بشامية ابن حمادي ، وذلك تمييزاً لها عن شامية نخلة ، أما ابن حمادي هذا فهو محمد بن حمادي البِشْري ،شيخ قبيلة بشر القاطنة في هذه الديار كما تقدم ، وهو كريم جواد طبّقت شهرته الحجاز ونجداً في الكرم ؛ ويبعد هذا المفرق (٦٤) كيلاً عن مكة ، و (١٦) كيلاً عن عسفان ، وهو طريق ترابي أيضاً ، يوصلك الى الشامية المذكورة حيث هناك مزارع وقرية ، وليس بعيداً عنها (الرَّجيع) ويسمى اليوم الوطية، ومن أساطيرهم إنه وطأة ناقته صلى الله عليه وسلم • والمكان على قرابة عشرة أكيال من هنا في لحف حرة الجابرية ، غدير دائم لا ينضب أبداً • وبعد يسير من هذا المكان زاد انحراف الطريق الى اليسار ، حتى صار يجري غرباً بين سهل الصَّغو في اليسار وحرة غرب في اليمين •

عُسْفان

لقد ذكّرتني عن حُبَاب حَمَامةٌ ... بِعُسْفان ، أهلي فالفؤاد حزينُ
فَوَيحك كم ذكّرتني اليوم أرضَنا ! ... لَعلّ ِحمَامي بالحجاز ِيكونُ

وقبيل وصولي إلى عسفان اعتدل الطريق الى اليمين ، فصار يجري شمالاً عدلاً ، وكانت الأرض مخضرة ، وبها بيوت شَعَر للبادية مما يدل على أن سحابة مرت هنا قبل مدة • ثم ظهرتُ في حزم فَيْدة على عُسفان ، هذه البلدة ذات الماضي الطويل ، والعمران القليل؛ وهي المرحلة الثانية من مكة ، والتاسعة من المدينة على نظام القوافل القديم • ظلت محطة على هذا الطريق من زمن لانستطيع تحديده ، غير أنه موغل في القدم كإيغال درب الأنبياء الذي تقع عليه هذه البلدة •

كان أهلها في فجر الاسلام ، خزاعة ، ثم تملكتها قبيلة حرب منذ القرن السادس تقريباً ، وهي اليوم مركز امارة تابعة لامارة الجموم ، وفيها مدرسة ابتدائية ، ومركز شرطة •

وعسفان تقع على مجرى وادي فيدة ، وتكتنفها الحرار من معظم جهاتها ، وبعدها بقليل في الغرب الى الجنوب يجتمع واديا الصُّغُو وفَيْدة ، فيكوّنان وادي الغَوْلاء ، الذي يستمر حتى يمر بذهبان على (٥٥) كيلاً شمال جُدّة على طريق المدينة ، ثم يدفع في البحر ، وماء عسفان عذب نمير ، وفيه مقاهٍ يرتادها المسافرون ؛ وفيه بئر التّفلة المشهورة بعذوبة مائها ، وعذاها ، ويقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما ورد عسفان بجيش الفتح تفل فيها ودعا لها بالبركة ، ذلك أنها كانت وبيئة وأن جميع الأبار نضب ماؤها ماعداها ، فأخبر أن من شرب منها لايسلم ، ففعل ذلك ؛ ومن يومها قل أن يوجد أعذب من مائها وأعذى منه ، ومن الناس من يتزود منه إذا مر على عسفان ، ويهديه لمن يحب •

ثم عبرت الطريق جسر فيدة في عسفان ، على جانبه لوحة كتب عليها (مكة ٨٠ كم) ، وهو قياس من المسجد الحرام •

وادي فَيْدة

هو ما تسميه العامة وادي عسفان ، كقولهم وادي بدر ووادي الجموم • • • • الخ :

وادٍ من الأودية قصيرة المدى إذا قيس بالهدة أو أمج ـ مثلاً ـ يأتي من الشرق بين الحرار السود ضيقاً شحيح الماء ، فيه نخل يرى أدناه من على الطريق •

ويمكن توفير الماء في هذا الوادي لو سُدَّ في أعلاه ، وقد وجد المنقبون المياه غزيرة في عسفان الذي يجري فيه هذا الوادي ، ولكنها على عمق لا يتيسَّر وصوله لأهل البلاد •

والسدود في هذه الأراضي من أوجب واجبات الخدمة للقطاع الزراعي ، فالظاهرة المميزة لأودية تهامة هي إن بعض الأودية يسيل في بعض السنين ما يزيد عشرين سيلة ، تذهب مياهها هدراً إلى البحر ، بل تجرف معها كثيراً من التربة النافعة ؛ ثم قد تظل الأودية سنين محلاً فتجف الأبار وتتوقف الزراعة في كثير منها ، وفي كلتا الحالتين ضرر كبير •

وكثيراً ما قامت الدولة بدفع تعويضات للأهالي عن أضرار السيول ، وكم اضطرت إلى تقديم العون عند الجفاف ، وكلتا الحالتين يمكن تلافيهما بعمل سدود لحفظ هذه الثروة المائية الهائلة الضائعة ! •

غير أن الغريب حقاً أن بعض أهل هذه الديار يعارضون ـ لجهلهم ـ مشاريع السدود ، فهم يظنون أنها تحجب الماء نهائيا عن أراضيهم ، وهم يعتمدون كثيراً على زراعة البعل ، وهي زراعة تدر ـ أحياناً ـ غلالاً

خيالية ، فقد حصل أحدهم في بعض السنين على مبلغ ستين ألفاً من الريالات من مزرعة صغيرة للحبحب ، وليس هذا نادراً ، بل كثير الحدوث مما جعل بعضهم يعتمد كلية على الزراعة العثرية ويراها أربح كثيراً من زراعة الري .

ثنيـة غزال

ومن عسفان يخرج الطريق في ثنية بين الحرار تقع على خمسة أكيال شمال عسفان ، وتعتبر بوابة في وسط الحجاز ، ليس غيرها طريق إلاّ الساحل ، ولذا قال جعدة بن عبد الله الخزاعي :

ونحن الأولى سَدّت غزال خيولنا ولفتاً سددناه وفج طلاح

وكان كُثيّر عَزّة قد مر هنا ــ قبل ثلاثة عشر قرناً ــ في رحلة خيالية ، أو رحلة تخيلها لمحبوبته ، فصورها في لاميته التي سارت على هذا الطريق الى ما وراء المدينة المنورة حيث قال :

ماعناك الغداة من أطلال دارسات المقام مذ أحوال
بادي الرّبع والمعارف منها غير رسم كعصبة الأغيال
ماترى العين حولها من أنيس قربها غير رابدات الرئال
يا خليلي الغداة إن دموعي سبقت لمح طرفها بانهمال
قم تأمل فأنت أبصر مني[1] هل ترى بالغميم من أجمال
قاضيات لبانة من مناخ وطواف وموقف بالجبال
قلنَ عسفانِ ثم رحنَ سراعاً طالعات عشيّةً من غزال
قارضات الكديد مجتزعات كل وادي الجحوف بالأثقال
قصدِ لفْتٍ وهنّ متسقات كالعدوليّ[2] لاحقات التوالي

---

(١) في الديوان وانت أبصر مني . وهذا أجود .
(٢) نوع من السفن .

حـين وركـن دوّة بيمين وسُرير البُضَيع ذات الشمال
جزن وادي المياه محتضرات مدرج العرج سالكات الخلال
والعُبَيلاء منهم بيسار وتركن العقيق ذات النصال
طالعات الغَميس من عَبّود سالكات الخُوّى من أملال
وطوت جانبي كنانة طيّاً فجنوب الحِمَى فذات النضال
فسقى الله منتوى أم عمرو حيث أمّت به صدور الرحال[1]

وقد أتيت على شرح هذه القصيدة وتحديد الأماكن الواردة فيها ، في « مجلة المنهل » خلال سنة ١٣٩٨هـ . وهي واردة إن شاء الله في هذه الرحلة تباعاً .

والطريق يصعد في ثنية غزال بين حرتين : حرة صُوَيك في اليمين وحرة موقّلة في اليسار ، وكانت الثنية ضيّقة تحف بالدرب الضفائر من الجانبين لحماية القوافل في الماضي ، وعندما مهد الطريق وعبد أزيل معظم تلك الضفائر ، فتوسع كثيراً .

وادي غُران

علوت هذه الثنية ، ولما أشرفت منها فإذا أمامي سهل يشبه السهل السابق اتساعاً ، ولكنه يختلف عنه في الخصوبة والعمران ووفرة المياه .

هذا هو وادي غُران الخصيب المتصل شمالاً بوادي خُلَيص الأخصب منه ، فظهرت النخيل من وراء الأشجار الحرجية التي تكثر في هذه الأودية الريانة ، وهي أنواع كثيرة من السلم والمرخ والسمر ، وغيرها ، تشكل غابات يضل فيها الغريب .

---

(١) ديوان كثير من ٣٩٥ ــ ٣٩٨ .

يأتي وادي غران عن يمين المشرف عليه من الثنية ، ثم لايلبث أن ينحرف شمالاً ، حيث يسمى الحمض ، وهو ما كان يعرف بالكَدِيد ، سمي الحمض لكثرة ما به من شجر العصلاء ، وهي نوع من الحمض ؛ ثم يتصل بسهل خُلَيص الواسع الخصيب الوفير المياه ، وهو ما كان يسمى (أمَج) ، ويظن من يراهما أنهما وادٍ واحد لامتزاجهما .

ويعتبر غران — في العرف الجغرافي — رافداً من روافد أمَج ، رغم كبره ومطاولته أمج على طوله .

وغران يسيل من حرة الحجاز العظيمة من قسمها الجنوبي، فيسمى رهاطاً . وادٍ خصب فيه عيون جارية وآبار زراعية غزيرة المياه ، وسكانه الروقة من عُتَيبة ثم مُعبَّد من حرب ، فاذا انحدر الوادي إلى (البَرْزة) المنطقة الزراعية المشهورة سمي غُراناً إلى أن يجتمع بأمج.

وفي غران كانت غزوة بني لحيان لرسول الله ﷺ .

المنظر العام من ثنية غزال

من اليمين : تمتد حرة صويك مشرّقة كحد السيف ، حيث يرى أعلى وادي غُران ضيقاً بين الجبال أتياً من مطلع الشمس ، وفي هذا المضيق تقع أم الجِرْم : أرض زراعية ، فيها عين وأبار تسقي مزارع كثيرة هناك ، وسكانها المصابيح من الشيوخ ، وهم منتشرون في الحجاز، وينتسبون إلى الأنصار ، والله أعلم .

ثم تحف بغران من الشمال الحمراء : هضبة حمراء ، تكنع في سيل الوادي ؛ وهذه بداية ديار مُعبَّد من بني عمرو من حرب ، وتمتد ديارهم شرقاً على جانبي غران إلى رهاط ، وجنوبا إلى مَدْركة : صدر وادي الهدة الذي تحدثنا عنه آنفا ؛ ثم تبدأ ديار الروقة من عتيبة على نواشغ غران العلى ؛ يلي الحمراء من الشمال ضعاضع أجبل تسمى

الهضاب ، تشترك فيها قبيلتا مُعبَّد والبِلادِيّة (بلاديّة اليمن) قوم صاحب هذه الرحلة ؛ ثم يظهر بعد الهضاب فجوة وادي أبي حليفاء ، منساباً بين المهاد ، ثم جبال البلادية المشرفة على خُلَيص من الشرق ، فاصلة بينه وبين الخوار القرية العامرة من وادي أمج ، أما وراء أبي حليفاء فاذا كان الجو صحواً فبامكانك رؤية شَمَنْصير ، ذلك العلم الشامخ ، ويسمى هنا ضلع سليم ، يبعد من هذه الثنية قرابة أربعين كيلاً شمالاً شرقياً •

كل هذه المعالم من الجنوب الى الشمال مما يلي الشرق على نسق، تحد هذا السهل الواسع من الشرق •

أما من الشمال فتظهر حرة الخُلَيصية ــ نسبة إلى خُلَيص ــ مستطيلة من الشرق الى الغرب ، وهي تحد هذا السهل من الشمال دون أن تترك له أية فجوات كما هي الحال في الجبال التي تتخللها الأودية ، وتبعد هذه الحرة من هنا قرابة خمسة وعشرين كيلاً ، وهو عرض السهل مدار البحث •

واذا نظرت يسارك رأيت الحرار تماشيك غرباً شمالياً : حرة نِقْرَى ، التي يقول فيها عُمَير ابن الجعد القهدى في يوم حشاش[1]:

لمّا رأيتُهُم كأن نبالهم ، بالجزع من نقرى نجاء[2]خريف
وعرفت أنْ من يثقفوه يتركوا للضبع أو يصطف بشر مصيف
أيقنت أن لاشيء ينجي منهم إلاّ تغاوث جَمّ كل وظيف

(١) قريب من نقري تلعة تسمى حشاشة ، فربما هي حشاش .

(٢) وردت نقري هنا بالتحريك، والمسموع اليوم بكسر النون وسكون القاف ، مقصور ، والنجاء : المطر .

رفعتُ ساقاً لا أخاف عثارها ، ونجوتُ من كثبٍ نجاء خذوف
واذا أرى شخصاً أمامي خلته رجلاً فملت كميلة الخذروف[1]

وقال مالك بن خالد الخناعي الهذلي :

لمّا رأوا نَقَرى تسيل إكامها بأرعنَ إجلال وحامية غُلب

وقال أبو صخر الهذلي أيضاً :

فلما تغشى نقريات سحيله ودافعهُ من شامه بالرواجب
وحُلَّت عراه بين نقرى ومنشد[2] وبُعِّج كَلْف الحنتم المتراكب

ثم حرة عويجاء ـ تصغير عوجاء ـ : حرة تجد نعوفها أمامك على الطريق بعد ثمانية أكيال تقريباً ، ثم تتجه غرباً فتكنع في الساحل بين جبلي الأخَلّ وجُمْدان ، ثم جبلا جُمْدان شمال حرة عويجاء تجدهما يسار الطريق بعد اثني عشر كيلاً ، تكون قد مررت ـ قبلهما ـ بحريرة سويداء فيها بياض طيني ، هذه تسمى (النَّغْر) وهو في لغتهم المغر ، وهو ما تعمل منه الطباشير وتمحى به ألواح الكتابة أيام المُعْلَيمات .

هذه حدود هذا السهل الذي يبلغ من الشمال الى الجنوب خمسة وعشرين كيلاً ، ومن الشرق ـ عند جبال البلادية ـ الى الغرب عند جمدان قرابة عشرين كيلاً .

وهذا السهل كله صالح للزراعة ، والمياه متوفرة في معظمه ، ولكن

---

(١) عن « معجم البلدان » شخص : أي خيال . الخذروف : لعله ما يعرف اليوم بالتخروف : اناء يصنع من سعف النخيل .

(٢) ولا تصح هنا نقرى الا بتسكين القاف كما في شعر الخناعي ، وهذا يؤيد ماهي عليه اليوم ؛ والتصحيف في الكتب القديمة معروف . ومنشد ليس من ديار خزاعة واظنه مقحمٌ هنا .

المزروع منه لايزيد على ٢٥٪ من هذه المساحة المقدرة بـ (٥٠٠) كم٢ لأسباب ، من أهمها :

١ ــ يسيل وادي خليص وكذلك غران ــ وهما قوام هذا السهل ــ في بعض السنين عدة مرات مما يحدث خراباً في الأراضي ، ثم يطفو الماء حتى يصبح على نزعة أو نزعتين في كثير من الأماكن ، ثم تأتي سنين جدب ، ومنها هذه السنة فتغور المياه وتتوقف آلات الضخ ، الا لمن استطاع تعميق بئره كأصحاب المزارع الكبيرة .

٢ ــ كثير من المّلاك ليست لديهم القدرة على تحويل أراضيهم الى مزارع دائمة لضيق ما في أيديهم ، لذا باع الكثيرون منهم أراضي على أهل جدة ومكة فأنشأوا المزارع ذات الأشجار المثمرة ، بينما ضلت الأرض التي يتمسك بها أهلها بؤرا .

٣ ــ عدم وجود ارشاد منظم ، وعدم عناية المكتب الزراعي الموجود ، فالحشرات تفتك بالمزروعات حتى بعد أن يحين حصادها .

٤ ــ بعد الحرب العالمية الثانية بدأت في الجزيرة موجة الهجرة الى المدن ، حيث تتوفر الأعمال والخدمات المغرية ، مثل الكهرباء والماء والمواصلات ، فهجر الكثيرون أرضهم فبارت .

ووداي خليص (أمج) بالذات يسيل في سنين الرجع أزيد من عشرين سيلة ، تذهب هدراً الى البحر ، بل تجرف معها ما على الأرض من مدر يصلح للزراعة فتترك كثيراً منها شاقّة جرعاء ، فيجأر الأهالي بالشكوى فترسل هيئة ، يكون قراره دائماً ــ كالشريط المسجل ــ معاوضة الأهالي عن هذه الخسائر ! ولا تتعمق تلك الهيئات ــ لقلة خبرة أكثر أعضائها ــ إلى ما وراء ذلك ، كدراسة المسببات ، وعلاج هذه الحالات مستقبلاً . والعلاج الذي ننادي به دائماً هو (السدود)

سدود لهذه الأودية شديدة الانحدار ، وقد سمعت هنا أن النية تتجه الى سد وادي خُلَيص • فاذا صح فسيتغير وجه الأرض •

مشاهدات

أكتب كل هذا وأنا أقف في رأس ثنية عسفان أو غزال ، كما هو اسمها القديم ، ويتراىء لي من الشرق من وراء الحدود التي حددتها لذلك السهل ، جبل ضفد أو جبل معبّد كما يسمى أحياناً : وهو جبل أسمر مستطيل من الجنوب الغربي — حيث يقرب من غران — الى الشمال الشرقي حيث يبتعد كثيراً الى جهات (نبط) ؛ وأرى وراءه بعيداً — عليه العسام — جبل شمنصير أو ضلع سليم ، المار ذكره آنفاً ، وهذا الجبل من أعظم مصادر وادي أمج التي تغذيه بالمياه •

ثم أرى في الشمال الشرق جبال بعيدة متقاطرة من الشرق الى الغرب كالأنياب : أحدهما جبل عمدان : جبل له ثلاثة رؤوس في جسم جبل يسيل ماؤه في ساية من صدر أمج • ثم أبا النَّغَر : بالتحريك : يلي عِمْدان من الغرب ، وهو ضلع طويل محدد الرأس يسيل ماؤه في وادي مِسْر من صدر الخريق (وادي الأخرم قديماً) وسيمر معنا بعد حين

ثم القنعاء : هضبة ململمة الرأس ذات فرعة مستدير ، يسيل ماؤها في مسر الشمالي ، وهي منبع هذا الوادي ، وهي التي يقول فيها والد صاحب الرحلة :

أنا هَيَّض عليّه يوم أنا في المرقب العالي
مواين في حجا القنعا لعل الغيث يسقيها

من قصيدة رويتها في (الأدب الشعبي في الحجاز) وفي كتاب (نسب حرب) •

ثم ظهر في الشمال العدل – من موقفي هذا – رأس جبل من وراء حرة الخليصية كأنه غرس في وسقها ، بينما هو يبعد وراءها بأزيد من ثلاثين كيلاً تقريباً ، ويبعد عن مكاني هذا بستين كيلاً تقريباً بالمسافة التسامتية ، ذلك أو تلك هي هضبة (الوَشْحَاء) التي تقع في طرف وادي قُديد من الجنوب ، وسوف نمر بها بعد ساعات ، إن شاء الله .

افتراق الطرق

ومن موقفي هذا افترقت الطرق الى ثلاث شعب :

١ – طريق أخذت يميناً ، وهي غير معبدة ، وكانت هذه الطريق هي الموصلة بين المهد (مهد الذهب) وبين جُدَّة ، عندما كان يستخرج الذهب من ذلك المعدن الذي كان يعرف قديماً بمعدن بني سليم ، أما الآن فانه مسلك سكان القرى التي بأعلى غران، مثل: المعارج ، والبَرْزَة ورهاط ، وغيرها .

٢ – طريق تأخذ شمالاً ، وهي ترابية أيضاً ، غير أن مصلحة الطرق تعني بمسحها بين حين وآخر ، وهي طريق ساية ونواحيها من ديار بني سليم ، وعلمت هنا أنه قد شق منه طرق يصل حرة ذَرَة بساية ، وهذه الطريق تجزع وادي غُرَان على مرأى من هنا بين القرى والنخيل فاذا خرجت من غران فرقت منها شعبة الى صدر خُلَيص الواقع شمالنا من هنا .

٣ – أما الطريق الثالثة فتنحرف يساراً غرباً : هذه الجادة العظمى، وهي درب الأنبياء ، وطريق مهاجرته ، ﷺ ، وهي الطريق المؤدية الى المدينة المنورة ، طريق معبدة تعبيداً حسناً ، وهي طريق رحلتنا .

استئناف السير

كانت الساعة الثامنة صباحاً ، وكيل السيارة يشير الى (٨٥) من مكة ، وخمسة فقط من عسفان . والجو غائماً ، وقد ترى على زجاج السيارة بعض نقيطات صغيرة لبعض الرذاذ ، والرياح رخاء محركة للسحب ، ولذا فقد ترى زرقة السماء بين حين وآخر لتماوج هذه السحب تحت جذب الرياح الشمالية .

تحركت على طريق الاسفلت ، وقد وصفت لك كل الأرض المحيطة بطريقي على مد النظر ، والى مسافة تقرب من ثلاثين كيلاً الى الأمام .

ولكن لن نعدم ما يستحق التعليق مما لم يظهر أثناء المشاهدة .

ثم مررت بصمد مرتفع يسمى صمد المغربي ، يبعد عن عسفان (١٢) كيلاً شمالاً ، تقسمه الجادة قسما ، ثم مررت بعد ذلك بما يقرب من كيلين بطرف الحمض (الكَدِيد قديماً) وهذه النقطة بالذات هي المعنية بالأقوال الواردة في الكَدِيد .

جاء في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صام ، حتى إذا بلغ الكَدِيد أفطر ، فأفطر الناس .

وقال البكري : انه كانت بالكديد عين جارية . ولكن اليوم لا يوجد فيه أثر للحياة .

وفي الكديد يوم بين بني سليم ، وبني فراس من كنانة .

قتل فيه ربيعة بن مكدّم الملقب بحامي الظعينة ، كان فارس بني فراس بن غَنْم ، وكلهم فارس ، ولشجاعة بني فراس ، قال علي كرم الله وجهه ، لجيشه يوم صفين : وددتُ والله أن لي بكم ألفاً من بني فراس بن غَنْم ، صرف الدينار بالدرهم .

وكان جيشه يومذاك عشرة آلاف مقاتل ، وقيل أكثر بكثير .

ومن طرف الكديد كانت على يساري كراع حرة يكـاد يلامس الجادة ، به بياض يسمى النُّغْر ، وله شهرة مكانية في الاسترشاد عند أهل البلاد ، والنغر كما قدمنا نوع من التربة يستعمل لصنع الطباشير .

جِمْدان والدَّفّ

وهنا اقتربت من جبل جمدان ، ومن الدف ، وعلى كيل واحد من النُّغُر توجد محطة أقامها أحد الأهالي ، وهي مكونة من : مقهى صالح للجلوس في هذه الأرض الجرداء ، ومحطة محروقات . والأرض المحيطة بها بيضاء جرداء تنكفىء من جبل جمدان ، منحدرة شرقاً الى الحمض ، بميلان منتظم غير حاد ، ولقربها من الدَّفّ (دف جمدان) سميت قهوة الدف ، والدف القديم يبعد عنها بأربعة أكيال ، وسيمر ذكره لاحقاً .

ومنذ أن جاوزت صمـد المغربي الى قهوة الدف كانت مـزارع الحبحب العثرية منتشرة ، وخاصة الجانب الأيسر الذي تنحدر منه سيول التلاع الآتية من حرة عويجاء أو حرة نقرى ، مثل تلاع : أم السَّلَم ، وحَشَّاشة ، وغيرهـا .

وهذا يحيل هذه الأرض الجرداء الى خضرة قد تدوم أربعة أشهر أو نحوها ، فاذا جاء الحميم واحتر الجو يبس الشرى وابيضت الأرض .

كانت الساعة الثامنة وعشرين دقيقة ، وقد لحقني الريق ، لأني لم أفطر بعد ، وقد غاض خزان السيارة بما يقرب من عشرين لتراً من الوقود .

توقفت أمام المقهى فتوجهت الى داخله ، وكان رواده قليل ، لأن الناس الذين يرودونه هم في هذا الوقت منصرفون الى أعمالهم ، وكان يعمل فيه رجـل أسود ، وهو غير نظيف ألبتة ، ولكن كما يقولـون في أمثالهم : (أدنات ما جزَّى البَعِير المسافر !) والمحطة على (٩٦) كيلاً من مكة ، والدف هو المرحلة الثالثة من مكة أيضاً ، والثامنة من المدينة على نظام قوافل الجمال .

والدف يقرن دائما بجمدان ، فهو سفح رملي من جمدان يكـاد يشمل كل سفحه الشرقي ، وكل سفح جبل رملي يسمى دَفّاً ، مثـل : دَفّ زيني ودَفّ خزاعة ودَفّ شُلَيَّة ، وكلها بمر الظهران ، والدف محطة تأريخية على مر الزمن بين مكة والمدينة ، ولها خبر في قصة تُبَّع وغزوة البيت الحرام (١) •

وعندما جلست في المقهى كانت الأرض التي أمامي غرباً الى سفح جمدان قرابة ٤٠٠ متر مزروعة شرياً ، يظهر فيه الحبحب كأنه أحجارسود تناثرت من جبل جمدان •

ثم أخذ بعض الرواد يتوافدون ، كان معظمهم سائقي سيارات كتب على بعضها : نقل الرخام السعودي • واخرى كتب عليها : العين العزيزية •

وأردت أن اختبر صاحب المقهى ، وهو من أهل هذه البلاد فأشرت الى جبل جمدان فسألته عن اسمه ــ وهي عادتي مع من أريد أن أخـذ عنه الأخبار ــ فقال : حرة خُلَيص ! فعرفت أنه أما كذاب أو جاهل ، فلم أسأله عن غيرها • وهكذا فان أكثر أخطاء الذين يمرون بهذه الأرض ناتج عن سؤال مثل هؤلاء الجهلة الذين لا يعرف أحدهم حتى المكان الذي يقيم فيه ، ولكن الباحث يظن أن كل أهل مكة أدرى بشعابها •

ذكريـات

وبعد أن تناولت طعام الافطار ــ الذي أحضرته معي ــ طلبت بَرّاداً من الشاي ، هكذا نسمي اليوم الوعاء الذي يحضر فيه الشـاي ، ولا أدري كيف يكون بَرّاداً وهو حار ! المهم هذا هو اسمه وكفى ، وذكرت وأنا أشرب الشاي كيف كنا نقف قريباً من هنا عندما كنت في السابعة من عمري ، وكنا تنفرج على قوافل الجمال التي لا نرى أولها ولا آخرهـا ،

---

(١) للتوسع في هذه المعالم كلها يراجع « معجم معالم الحجاز » .

تحمل الشقادف ، ومن فوهاتها يطل بعض الحجاج برؤوسهم على نغمات الأطفال يقولون :

سلامات سلامات حجاج بيت الله • • • وكلمات حلوة أخرى لم أعد أذكرها ، غير أن اللحن كان ينبعث من أفواههم حلواً شجياً ، وكان يستهوي بعض الحجاج فيبتسم لهم في حنان واعجاب ، كيف لا ، وهو لحن يغنيه أبناء الحجاز ، وكثير منهم من سلالة الصحابة والأنصار ، وهذا حاج يرى القداسة في كل ذرة على هـذا الطريق ، فهو درب الأنبيـاء والصالحين والأتقياء على مر الأزمان ، كانت القافلة الواحدة تعد بعشرات الجمال ، مربوط كل جمل في مؤخرة سابقه وهي تسير في هدوء وتؤدة لايقطع السكون سوى صرير أخشاب الشقادف ، وتلك النغمات التي يرددها الصغار ، والجَمّالة يسيرون على جانبي هذه السلسلة البديعة، فلا يميل شقدف حتى يسرعوا اليه ، وان انقطع خطـام بعـير اسرعوا يربطونه ، وهم مع ذلك أمناء على أموال الحجاج وكل ماحرم الله عليهم، يؤدون واجبهم في شمم ونخوة وأمانة وشهامـة ، هي خصائص العربي ومميزاتـه •

تذكرت هذا وتذكرت كم كانت المسافة من هنا الى مكـة تستلزم من الزمن للمسافر ؟ •

ورأيت السيارات تمر من أمامي تنهب الأرض نهبا وكأنها في عجلة من الأمر ! رغم أنه قطع ثلاث مراحـل في ساعة واحـدة ، كان أباؤه يقطعونها في ثلاثة أيام بلياليها •

كانت هذه الذكريات تعود الى نيف وثلاثين سنة ، وقـد تقدمنـا خلالها تقدما فاق الحلم ، ولم نكن آن ذاك تتصوره أو نفهم كيف هذا الوضع الذي نحن فيه الآن !•

واذا كان الطريق أمامنا لايزال طويلاً فانه يجب أن نعرف قيمـة ما أنجزنا ، ومن ثم نستعد لمواصلة السير في طرق مدروسة مخططة •

لقد خرجت كثيراً عن الموضوع ، ولكنها شردات ذهن وذكريات يعجز الانسان عن طردها ، ومما قد يؤخذ علي هنا هو أن الوصف الطبوغرافي يفرض علي نفسه حتى لاأستطيع الا أن أقدمه لك ، وكأني أقدمه الى مجموعة تستعد للهجوم ! وهذا تأثر بحياتي العسكرية ، وعلى العموم فهو جزء من الجغرافية الوصفية بل يعتبر خلاصتها .

وادي خُلَيْص

تحركت من محطة الدف أو محطة خليص كما كتب على لوحتها ، وكانت الساعة (٩ر٤٠) متجهاً شمالاً على الطريق العامة ، فكان عن يميني امتداد سهلَ خُلَيص الخصيب ذي الشجر الكثيف والغابات المدلهِمَّة وظهرت سوادة أشجار الحمضيات كقطع من الليل ، غير أن أكثر مايشوب الوادي كثرة غابات الأثل والطرفاء في هذه الأرض الخصبة وفيرة المياه في معظم الأوقات ، فالوادي ليس مستصلحا كله للزراعة ، ولا يزال مايقرب من ٤٠٪ من أرضه بوراً ، لها مُلاَّك وليس لها زُرَّاع ، ومع ذلك ففيه خمسمائة بئر زراعية ، ويبلغ عدد سكانه (٣٠) ألفاً وظهر في طرف خُلَيص من الشمال حصن خليص المشهور ، يتربع على رأس مجمر (قارة سوداء) بظله من الغرب مقر امارة خليص التي تتبعها خمس وثلاثون قرية ، كلها لقبيلة حرب .

وادي أمَج

ووداي خليص هذا هو وادي أمج قديماً ، أو هو الجزء الهام منه فوادي أمج ينحدر من حرة الحجاز العظيمة التي كانت تعرف بحرة بني سُلَيم ، وله منها روافد عديدة وبعض هذه الروافد من جبل شمنصير المتقدم ذكره ، كل ذلك لبني سليم بن منصور القبيلة التي توجد اليوم في جزء ضيّق من ديارها الأصلية ، وأسفله خُلَيص لبني حرب القبيلة

الخولانية التي نزلت هذه الديار في أول القرن الثاني الهجري ، فما لبثت أن استولت على جل ديار خزاعة وكنانة ومُزَينة وعَنَزة وبني سُلَيم[1] وقد روي أن سبعين أو تسعين عيناً جارية كانت بأمج ، أما اليوم فمجموع العيون في هذا الوادي لا تزيد عن عشر ، سحبت منها خمس الى جُدّة .

جبلا جُمْدان

بينما كان عن يميني وادي خليص كان عن يساري جبلا جمدان ، وهما جبلان في شكل سلسلة تساير الطريق من الجنوب الى الشمال ، يفصل بينهما فج واسع يسمى فج العشار ، وهي الابل اللقح ، وقدتكون غير ذلك ، وهما يميلان الى السواد ، ويشرفان على الساحل غرباً ، ولا تسمع من يقول أن جمدان جبلان ، بل يقال : جبل جمدان ، ويظهر أن التسمية كانت تثنية من قديم الزمن . ولجمدان نصوص في كتب المتقدمين وله ذكر في الحديث ، وقد مر بجمدان شاعر تهامة كُثيِّر عَزَّة وهو يصف رحلة غيث بدأت من ذهبان قرب جُدَّة الى جَيْدَة في ديار قضاعة قرب تبوك ، فقال بعد تسعة أبيات من هذه الرائية :

وأعرض من ذهبان معرورف الذُّرى تُريِّع منه بالنطاف الحواجرُ
أقام على جُمْدان يوماً وليلةً فجُمْدان منه مائل متقاصرُ
وعَرَّس بالسَّكران يومين وارتكى يجرُّ كما جرَّ المكيثُ المسافرُ
بذى هَيْدبٍ جَوْنٍ تُنجِّزه الصَّبا وتدفعه دفع الطَّلا وهو حاسرُ

---

(١) عن بني حرب انظر كتابي « نسب حرب » ، وعن بقية القبائل الواردة هنا انظر « معجم قبائل الحجاز » .

وسيّل أكناف المرابد غدوة ⁂ وسَيَّل منه ضاحك والعواقر
ومنه بصخر المحو ودق غمامه ⁂ له سَبَل واقور منه الغفائر
ومرفأ روى ينبعاً فجنوبه ⁂ وقد جيد منه جَيْدَة فعباثر

من قصيدة تبلغ ثلاثين بيتاً ، ولمعرفة هذه المواضع وتحديدها يراجع (معجم معالم الحجاز) .

شجرة تزار

وفي الشمال على يسار الطريق شجرة تختلف في شلكها ونوعها عن أشجار هذه الديار ، يزورها بعض جهلة هذه النواحي ، ويعلقون عليها بعض الخرق تبركاً ، ويقال : ان بعض من لا ينجبون يذهبون فيباتون تحتها ، ويزعمون النفع ، وقد ندب نفسه لقطعها السيد عبد المطلوب من أهل عسفان من السادة الحسينيّين ، فقطعها قبل سنوات ، ولا أعلم عنها شيئاً بعد ذلك . والذي يتبادر الى الذهن أن هؤلاء ورثوا بالعادة أن لهذه الشجرة أو مكانها علاقة بهجرته صلى الله عليه وسلم ، ومن الثابت أنه مر هنا أثناء مهاجرته الى المدينة ، ولكن الأشجار والأحجار جماد لا يضر ولا ينفع ، والاتجاه الى الله هو الطريق السوي عند الملمات .

وعلى بعد أربعة أكيال من المقهى المتقدم ذكره مررت على جسر ، هذا الجسر على شعب يأتي من جمدان الشمالي وفي صدره الشجرة المار ذكرها .

وعند نهاية الجسر مباشرة فرق الى اليمين طريق يذهب الى خليص وسوق خليص يبعد من هنا ثمانية أكيال ، وبعد هذا الجسر مباشرة يوجد بناء مهدّم هو الأثر الوحيد في هذه المنطقة ، وهو مكان سوق الدف التأريخي القديم ، ولا توجد آثار لهذا السوق لأن حوانيته ومقاهيه كانت تبنى بالجذوع وخشب الطرفاء . لذا زالت بزوال الجمال التي كانت هذه المحطة قائمة على خدمتها .

ومن هنا انحدر الطريق في منخفض تكتنفه غابات من الطرفاء جعلت الأرض الطينية سبخاء ، وهذا هو أسفل وادي أمج حيث يدفع سيله في البحر ماراً بين جبل جمدان في الجنوب ، وحرة البكاوية في الشمال ، ثم يسقى ثول عند بلدة الدُّعَيْجِيَّة ، ومن هنا مر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيهجرته حسب النص المتقدم معنا ، ولأن هذا المكان أنسب الطرق هنا •

ويمر الطريق هنا على عدة عبارات يجري تحتها سيل هذا الوادي الفحل ، غير أن سيله كما يقول الأهالي (مضيّع القياس) أي يجعل من يتعامل معه يخطىء التقدير ، وهذا ما حدث مع الشركة التي عملت هذه العبارات ، فقد جاء سيل أمج فأكتسحها ودمّر الاسفلت ، وهانحن نمر في تحويلات عند كل عبارة •

والأرض المحيطة بالطريق صالحة للزراعة ، الا انك لا ترى بها أثراً للعمار والاستصلاح • وفرق يميناً طريق ممسوح الى امارة خُلَيص ، وبعد أن قطعت الوادي الى طرفه الشمالي رأيت على يمنيي قرية صغيرة وبويتات من القش أحدثت في عهد قريب ، سألت عنها فقيل : لي إنها نزلة السواطي : بطن من زُبَيد من حرب سكان هذه الديار •

وعلى اليمين ببعد رأيت المباني التي تقيم فيها امارة خليص ، وهي تحت الحصن من الغرب • كما رأيت نخل (العين) يابساً بعد أن سحب ماؤها الى جُدَّة ضمن تلك العيون التي سحبت ، وهذه العين كانت تعرف بعين ابن بزيع ، ثم أطلق عليها اسم عين خُلَيص أو عين الباشا ، ثم صارت تسمى العين مطلقاً لأنه ليس في خليص عين سواها في الزمن القريب ، وأجر أهلها ماءها على العين العزيزية بجدة ضمن عيون أخرى في وادي الخوار وهو جزء من أمج بين ساية وخليص ، من تلك العيون عين لنا فيها أملاك ، فيبس نخل هذه العيون وهجرها أهلها وانيسها ، وأصبحت خلاء خراباً •

ذلك أن النخل في هذه السنين غير مربح ، بل يقول أهله أنه لا يرد التكاليف ، يضاف الى ذلك ان الوسائل لم تتحسن هنا ، فما أن وصلت ادارة العين العزيزية الى خليص حتى تسابق أهل العيون الى تأجيرها بثمن بخس ، ضمن ذلك عين لنا فيها أملاك ــ كما أشرت آنفاً ــ تبعد من هنا (٣٦) كيلاً .

ثنيــة لِفْت

وما أن جزعت أسفل أمج حتى رأيت أمامي فجوة في حرة الخُلَيصية أو هي فاصلة بين الخليصية والبَكَاوية ، هذه الفجوة تلعة كبيرة تسمى خرابق ضَبْع ، وفي رأس هذه التلعة تقع ثنية لِفْت التأريخية ، والتي مر فيها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في مهاجرته ، وكانت طريق الجمال ، وطريق الحج تطؤها الجادة العظمى أو الطريق السلطاني كما يسمونه ، الى أن سدتها الرمال قبل خمسين سنة تقريباً ، فتحول الطريق الى الغرب حادراً وادي أمج ثم أخذ خشم الرُّخْمَانية ــ شرق الدَّعَيْجيَّة فالقَضِيمة وتسمى الثنية اليوم (الفَيْت) ولعل الأصل تصغير لفت (لُفَيْت) ثم أدغم في النطق كما قالوا : القَيْم في لُقَيم : من أودية الطائف .

وعند شق الطريق المعبد ترك لِفْتاً يمينه واعتبط حرة البكاوية كما سترى .

وفي لفت يقول معقل الهذلي :

لعمرك ماخشيت وقد بلغنا ... جبال الجَوز من بلد تهامي (١)
نزيعاً مُحلِباً من آل لِفْتٍ ... لحيّ بين أثلَةَ فالنجام

(١) الجوز : اسم قديم للمنطقة الجبلية بين مكة والمدينة .

وقد مرت معنا في لامية كثير (قصد لفت وهُنّ متسقات) .

ومن هنا ــ أي من مرأى فجوة لفت ــ انحرف الطريق الى اليسار مع صعود حاد في عقبة كأداء لم يكن لها سابق طريق ، انما شقت سنة ١٣٨٥ هـ عند سفلتت هذا الطريق لأنها كانت أقصر وأعدل ، وأرضها هشة طينية .

سهل قُدَيْد

علوت ظهر حرة البكاوية فنظرت الى عداد السيارة فاذا هو يشير الى (١١٥) كيلاً من مكة ، والساعة العاشرة ، فتوقفت وقد أشرفت على سهل قديد والأخرم عندما يختلطان في سهل واحد واسع فسيح ، يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب (١٥) كيلاً .

وهذا السهل يتكون من واديين اثنين هما :

وادي الأخرم

واد قاحل قليل الأهمية نسبياً ، يأتي من الشرق بين **قُدَيد شمالاً** وأمج جنوباً .

وأعلاه مسران : واديان ، أحدهما يسيل من هضبة القنعاء المار ذكرها والتي أرها الآن شرقاً مع ميل يسير الى الشمال ، ويسمى مِسْر الشمالي ، والثاني مِسْر اليماني ، وهو يسيل من جبل عمدان المتقدم ، فاذا اجتمعا سمي اجتماعهما الملاقي أو ملاقي مِسْر ، ثم يسمى الوادي الخَريق الى أن يختلط بسهل قُدَيد الفسيح ، يختلط به في الجنوب بلبط حرة البكاوية من الشمال ، وفي مسرين يقول شاعر سُلَمي في يوم بينهم وبين زُبيد من حرب :

أنا اللي هاضني واطرى على بالي	**نهارٍ في ملاقي مسر يطرونه**
نهار زبيد جَوْنا جمع هيّالي	على الركبان والمزري يشيلونه

ويمر الطريق في الأخرم (الخريق اليوم) عند الكيل ١٢٤ من مكة.

وفي الأخرم يوم بين بني جُشَم بقيادة دُرَيد بن الصِّمَّة وبين ربيعة بن مُكدَّم من بني فراس بن غَنْم من كنانة ، وفي ذلك اليوم قتل ربيعة ثلاثة من أتباع دريد ، وسمّيَ حامي الظعينة ، فقال :

ان كان ينفعك السؤال فسائلي   عني الظعينة يوم وادي الأخرم

ويلي الأخرم من الشمال طارف قديد ، كان محطة للجمال قبل انسداد ثنية لفت ، وهو المرحلة الرابعة من مكة ، وله ذكر في رحلات الحجاج ، ثم تحول أهله الى القضيمة تبعاً لمنازل الحاج فاندثر الا من بئر لازالت تورد .

ووادي الأخرم عموماً وادٍ قاحل ليست به زراعة و لاسكنى دائمة، ولا أظنها كانت فيه يوماً ، انما به آبار سقي وقد يزرع عثرّياً .

ورغم اشراف هذا المكان الذي أنا فيه إلا أن الجو قد تغير هنا ، فأصبح كل ما أمامي يحجبه الغبار حتى سد الأفق ، مما حال دون اعطاء وصف للمنطقة ، غير أني أتجهس حرة المشلّل من وراء هذا السهل الواسع ، التي تسير محاذية لوادي قديد من الشمال ممتدة بامتداده من الشرق الى الغرب فاصلة بين واديي قديد ودَوْرَان ، وتسمى اليوم القُدَيْديَّة نسبة الى قديد ، ويشبه تكوينها تكوين حرة ضجنان .

وادي قُدَيْد

وادٍ فحل من أكبر أودية الحجاز وأكثرها عيوناً ، حظه في بقاء هذه العيون يأتي في الدرجة الاولى ، اذ لاتزال تجري فيه عشرون عيناً ثجاجة .

يأتي وادي قديد من حرة ذَرَة ، ويسمى أعلاه سِتَارة لبني سُلَيم ، ثم يسمى أسفله قديداً وهو لقبيلة زُبَيْد من حرب ، وفي

كلا الجز عين عيون وآبار زراعية وقرى متصل بعضها ببعض حتى أنك عندما تكون في قرية يمكنك أن ترى عدداً من القرى الأخرى ، وتربته خصبة صالحة للزراعة رغم أن المستصلح منه ــ خاصة في أسفله ــ قليل، وفي قديد هذا أماكن تاريخية سوف تمر معنا، وكان سكانه خُزَاعة في صدر الاسلام ، غزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماء لهم يسمى المريسيع سنتحدث عنه لاحقاً . وأخذ عمر الأموال حتى نزل قديداً فقسمها في بني خُزَاعة .

ولقديد ذكر غير خامل في تأريخ الحجاز[1] ، وله اليوم امارة تجمع جزئيه السلمى والحربي بعد أن كان الأول يتبع ساية ، والثاني يتبع رابغ ، فأسست له امارة وضعت على الحد بين القبيلتين في عين تسمى (الظُّبَيَّة) تصغير ظَبْيَة ، فصار اسم الإمارة ، امارة الظُّبَيَّة ، والمفروض أن يكون اسمها امارة قديد .

ويبلغ عدد سكان قديد (٢٥) ألفاً تقريباً ، منهم (١٥) ألفاً في القسم الحربي .

تحركت من هذا المشراف على حرة البكاوية فانحدر الطريق في عقبة صلاء فجزعت سهل الخريق أو بالأصح مجرى ، سيله إذ السهل واحد لا يتجزأ ، وعلى عشرة أكيال و (١٢٥) كيلاً من مكة فرق طريق قديد يميناً عن الطريق المعبدة ، وهذا الطريق ترابي يسير في خبت سهل لا تجد السيارة فيه صعوبة عدا دعيصات هنا وهناك حول منابت الشجر، وبعد مسيرة كيلين فقط أصبحت الطرق تفترق في كل اتجاه وكثرت بُنيَّات الطريق ، فشككت فيما أسلكه ، فوجدت امرأة تحوش ضأناً لها فسألتها فأكدت لي انني على الطريق القيم ، كانت الهبوب تثير السافي

---

(١) انظر معجم معالم الحجاز .

بشكل مزعج ، حتى لم أرى ما عن يميني وشمالي ، وأخذ الطريق يميل تدريجياً الى الشمال الشرقي ، وعلى (١٢) كيلاً من الاسفلت ظهر لي نخل عرفت أنه أول مزارع قديد وبداية الأرض المأهولة ، كان ذلك بقايا نخل البُرَيكَة : تلك العين المندثرة ، والتي كانت ـ أحياناً ـ تناوب المحطة أو تتقاسمها مع الطارف لقربهما من بعضهما ، فقد قال لي أحد الجمّالة القدامى : كنا أحياناً نحط البريكة اذا كثر الحجاج وخشينا نضوب مياه الطارف ، وأحياناً تكون هي المحطة بدلا منه اذا اندفنت بئاره بسبب السيل أو السافي •

وقريب من البريكة الى اليسار ظهر نخل (مَلَح) القرية المجاورة للبريكة ، وصلت البريكة فوجدت فيها امارة ومدرسة ناحية عن الطريق، وكانت الامارة مغلقة الأبواب ، فظننت أن ليس بها أحد فتعديتها ، فوجدت امرأة قروية تستقي من حنفية من الأنابيب التي تسقى بلدتي القَضِيمة والدُّعَيْجِيَّة ، فسألتها عن الطريق فأشارت الى رجلين كانا يتذريان عن الهبوب بجانب مرخة ، فمررت بهما فسألتهما عن قاعدة قديد فأخبراني ووصفا لي الطريق والمسافة •

ثم سرت بين قرى عديدة وعيون جارية ، كان منها : المعترضة ، ودَوقه ، وغيرهما •

وعلى بعد (٢٠) كيلاً من الاسفلت ضاق الوادي بين حرتي المشلّل من الغرب وحرة رَيِّن من الشرق ، ثم استمر الطريق في درب السيل ، فلمحت على يساري ثنية الرغامة التيتطلعك على دَوْران شمال قُدَيد ، كان بها يوم بين بني سليم وبني حرب [1]•

وعلى ٣١ كيلاً وصلت الظُّبيَّة قاعدة قديد •

---

(١) راجع كتاب « نسب حرب » : أيامهم مع بني سليم •

كانت النخيل تحف بالطريق بشكل متفرق ولكن لم أر وادياً في تهامة بهذا المنظر وهذه الخصوبة عدا وادي الفرع فيما بعد ، بل يخيل إليّ أن قديداً أكثر خصباً ونخلاً ، ثم تشرفت بالسلام على الشيخ مطلق ابن مقبول العصيمي ، من عتيبة ، وهو أمير قديد ، وأول مسؤول أقابله بعد وكيل امارة منطقة مكة بشأن هذه الرحلة .

كبرت وهانت

ظهور شخص بملابس المدن في هذه القرى وخاصة زيارته لاحدى الامارات البعيدة لاتعني في نظر الكثيرين هنا الا أنه مفتش ، أو مرسل للتحقيق في شكوى بعض المواطنين ، وعندما دخلت امارة الظبية كنت ارتدي عباءة (مشلح) من النوع الذي يلبسه كبار الموظفين ! فكانت ملامح الناس وحركتهم ــ بما من أولئك الأمير نفسه ــ تدل على الاحتفاء فانصرفوا كلية إليّ واهتم بي سعادة الأمير وطلب القهوة ودبت حركة الذهاب والاياب بين الخويا [1] ، ونظراً لرغبتي في كسب الوقت ولطمأنة هؤلاء الأخوة ، قلت للأمير : أنا راحل ، أتيت اليكم لتساعدوني بمن لديه خبرة في هذه الديار ، وخاصة ما كان منها له ذكر في الأدب والتأريخ .

وكأنّ سعادته تنفس الصعداء ، ولسان حاله يقول : (كبرت وهانت) .

وهو مثل يقوله من يتخيل أن أمراً ما يحتاج الى جهد ومكابدة ، ثم يكتشف أنه سهل ميسور . وسرعان ما انصرف لتصريف شؤون الامارة وكأنه لم يسمع ما قلت الا أنه عرف بأني بصفة غير رسمية ، وبينما كنت

---

(١) تطلق هذه الكلمة في المملكة العربية السعودية على الذين يوظفون لخدمة الأمير .

أتناول فنجان القهوة اتبعت لسعادته القول : انني قد أكون مستعجلاً حتى عن شرب الشاي ، والمهم أن يساعدني .

فطلب مني ماأحضرت من امارة مكة،فأخبرته الخبر ! فقال: إن لدينا تعليمات بأن مثل هذه الأمور لابد أن تأتي عن طريق الامارات ـ يقصد الكبرى ـ ولكن هل معك ما يثبت هويتك ؟ قلت : نعم ، وناولته بطاقة اثبات الشخصية . ولما رآها عسكرية وقع ـ فيما يبدو ـ في احراج ، ذلك أن الناس في بلادنا ما تعودوا من الرجل العسكري مثل هذه الأعمال، وكل ما يعرفون عنه أنه ذلك الشخص الذي يمسك بالبندقية ، أو يحل الخصومات بين الناس أو يحضر حادثاً في الطريق ، أما أن يكون كاتباً باحثاً فهو أمر من النشاز أو ربما اتهم بأنه يتخفى وراءه لمأرب غيره ! المهم أن الأخ مطلق تكرم ـ بعد أن أخذ رقم البطاقة ـ فاعطاني خطاباً الى الاستاذ علي بن رومي المولد ، مدير مدرسة زيد بن ثابت الابتدائية في البحول ، والبحول : عدة قرى لحرب ، قريبة من الظبية ، منها الجمعة التي فيها هذه المدرسة .

قابلت الاستاذ علياً فكان كما وصفه الأمير أديباً مثقفاً متفهما ، يعرف قيمة البحث ويعرف كثيراً من الباحثين ، ورأيت في المدرسة نشاطاً حسناً ، ورأيت على الحوائط جرائد منها : فجر الاسلام ، ونور على نور ، والشروق .

وقام الاستاذ علي بالواجب ، فأخذ يعدد لي الأماكن ، وشدّد على الأماكن التاريخية ، مثل خيمتي أم معبد ، والمريسيع ، وجبلة وغيرها [1] .

فاذا هي كلها معلومة باقية باسمائها في هذه الأرض . وفي الساعة الثانية عشر والثلث خرجت من عنده شاكراً ، رغم تكرار دعوته لي بتناول طعام الغداء عنده .

---

(١) انظر تحديدها في « معجم معالم الحجاز » .

وعدت على طريقي الذي اتيت عليه ، حادراً الوادي ، وكنت عند ذهابي رأيت ببطن الوادي قويرة سوداء يسمونهـا الحُـمَـيْـمة ، وعلى قمتها بناء من الحجر الجاف ، أي بدون مؤنة ، فظننت ذلك البناء موقع « مناة » : الصنم الجاهلي الذي ذكر المؤرخون والجغرافيون أنه في حرة المشلل وهذه الحريرة أو القويرة من حرة المشلل، وقفت سيارتي فتسلقت ذلك الضلع ، ولما وصلت ذلك البناء وجدته كان معداً للرماية أيام كانت القبائل تغير على بعضها ، وأنه لا يمت الى الآثار القديمة بصلة .

ثنيـة المشلّـل

ثنية يكثر ذكرها في كتب الأقدمين ، وكانت شهرتها بوقوع «مناة» الطاغية على أحد جانبيها ، وقال المتقدمون : هي في جبل قديد ، وقالوا : المشلل الجبل ، وثنية المشلل في ذلك الجبل .

والواقع أن المشلل حرة وليست جبلاً أو أن الاسم للثنية ونسبت الحرة اليها ، وهناك فرق بين الحرة والجبل ، فالحرة : جسم حجـري حجارته سوداء مستطيل الشكل مستوى الظهر ، أما الجبـل : فغالبـاً يكون منتصباً، وظهره أما قمة أو تكون استدارته محدودة، وهو لا يكون أسود الا نادراً ، وكل الجبـال السود عند العرب تسمى الغـرابات ، واحدهـا غراب .

وكون البحث عن ثنية فان النظر يتجه الى تلك الحرة التي سبق ذكرها ، والبحث عن فجوة فيها كفجوة ثنية عسفان أو لفت ، مثلاً .

غير أن ثنية المشلّل ليست من هذا النوع ، فقد كنت أسأل الأهالي عن الثنية التي كان يسير الحاج عليها ، فأشار شيخ لقيته قربها قائلاً :هذا الريع الذي كانت القوافل تجيء معه ، ولا ريع غيره من هنا الى الرغامة.

أي قرب الظّـبيّة وهو مكان لا يمكن أن يسلكه الحاج لبعده .

فوجدتها ليست ثنية بالمعنى المفهــوم ، فهي مسلك في خشم حرة المشلل يترك الى الساحل برثاً صغيراً ، يمكن أن يتجاهله المسافر فيلبه من جهة الساحل فلا يكون في المسافة فرق أكثر من نصف كيل ، ولكنك إذا تتبعت طرق القوافل علمت أنهم كانو يحسبون حساباً لمثل هذه المسافة.

ظهر الطريق منقّى واضحاً كأنه سلك قبل عام ، رغم أن القوافل هجرته قبل نيف وخمسين سنة حسب رواية ذلك الشيخ ، لزت سيارتي فيه صعداً ولم تصعده سيارة قبلي حتماً ، فرأيت على رأس البرث الذي يكثر عليه حجر المــرو أثاراً تــدل على أن منــاة الطاغية كانت تربض على قمته .

ومناة هذه كانت من الأصنام في الجاهلية ، كانت في شهرة العُزّى واللاّت ، وكانت الأوس والخزرج ومن يدين بدينها تحج وتقف بالمشاعر فلا ترى حجها تاماً حتى تأتي مناة فتحلق عندها . وكان هادمها علي ابن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وابدل الله بها دين الاسلام القيم [١].

خيمتا أم مَعْبَد

أم معبد الخزاعية : تلك المرأة الصالحة التي ضافها ، صلى الله عليه وسلم ، في هجرته هو وأبو بكر الى المدينة ، فخلد الله ذكرهــا وخلد البقعة التي كانت تنزلها ، أشار اليها ذلك الشيخ فاذاً هي على بعد ثمانية أكيال تقريباً جنوباً، يهبط هذا الطريق الى الجنوب اليها، وتبعد عن الطريق المعبدة التي تمر الآن على مرأى مني من جهة الغرب تبعد عنها شرقــاً بمثل هذه المسافة أو أقل ، وهي أرض تزرع اليوم زراعة عثرية ، والى

---

(١) انظرها في معجم معالم الحجاز ، فقد أطلت هناك في ذكرها .

الشرق منا بما يقرب من أربعة أو خمسة أكيال حجر فيه أثر قدم انسان، يسميه الأهالي (وطية النبي) •

صَعْبَر

محطة ظلت على مر الزمن صغيرة لوجودها قرب القَضيمة الواقعة جنوبها غير بعيد ، تبعد ــ صَعْبر ــ (١٣٨) كيلاً شمال مكة ، و (٤٤) كيلاً جنوب رابغ ، عندها تفترق الطريق الآتية من المدينة الى شعبتين : شعبة الى جدة على (١١١) كيلاً ، والأخرى الى مكة كما تقدم •

انحدرت الطريق فهبطت فيها بصعوبة فائقة حتى كادت عجلات سيارتي تتمزق ، فسلكت الطريق الآتية من قُدَيد فعارضت طريق مكة المعبد ، فسرت ثمانية أكيال فقط فوصلت بلدة صعبر ، وكانت الساعة الرابعة إلاّ عشر دقائق،وفي صعبر ثلاث مقاه وحانوتان ومسجد أهلي بناه أهل المحطة بالتعاون ، والى جانب المحطة من الغرب قرية بيوتها متناثرة في الخبت ، فيها سكنى أهل المحطة ، وجل سكانها من صيادي السمك ، إذ أن هذه القرية ساحلية لها ميناء صغير يبعد من هنا (٨) أكيال غرباً ، والطلبة هنا يدرسون في مدرسة القضيمة على اثنى عشر كيلاً جنوباً من هنا ، وكانت صعبر عند مروري بها تابعة للقضيمة التابعة لرابغ ، ثم علمت ــ وأنا أعد هذا الكتاب للطبع ــ أن الامارة نقلت من القضيمة الى صعبر،فأصبح التابع متبوعاً والعكس واقعاً ! فسبحان مغير الأحوال• وقد أنيرت صعبر بالكهرباء الآن ، ويبدو أنها مقبلة على عهد تقدم •

وصلت صعبر متعباً ، وكان أسوأ ماعانيته اليوم هو هذه الرياح السافية ، فكنت أغلق الزجاج فيشتد الحر ، فافتحه فيثور علي الغبار •

وعند الغروب هدأت الرياح ــ وهي عادتها ــ فتكشفت عن سحاب كان يغطى السماء ، ولكنه خفيف غير مؤهل لنزول المطر ،

وصارت النسائم باردة ، وكان الجو ــ عموماً ــ غير حسن ، والمقاهي هنا غير صالحة لشيء •

نزلت في مقهى رجل من السفران ــ قبيلة بني السفر ــ فوجدت آخاه هنا ، وكان ذا معرفة بأنساب قبيلة حرب ، ومعرفة حسنة بالديار المحيطة بنا ، واستمر الحديث معه حتى أذان المغرب فصلى بنا في مسجد صَعْبر المار ذكره ، وبعد خروجنا من الصلاة أخذ يلح عليّ بالدعوة الى بيته القريب من هنا فاعتذرت منه بأني متعب وأريد الراحة •

وهذا الشيخ اسمه عمر العفلقي السفري من أهل كُلَيَّة ، ويسكن صعبر حالياً وهما متقاربتان ، ويبعد صعبر قرابة ثمانية أكيال عن البحر •

وقد صليت العشاء جمعاً في المسجد • وفي الساعة الثامنة انتقلت الى مقهى يقدم الطعام للمسافرين ، فطلبت عشاء فجيء لي بطبق فيه أرز وسمكة ، وكان ثمنه ريالين اثنين • وهذا الثمن يعتبر حلماً قد لا يصدق ، رغم ان الفرق الزمني هو خمس سنوات ونيف ، نحن الآن سنة ١٣٩٨ •

جو الربيع في ساحل الحجاز

انتهى غبار اليوم ورياحه ، إلاّ أنها عادت فنشطت ، وتكاثفت السحب فغطت السماء واحتجبت النجوم ، وأخذ رذاذ يتساقط خفيفاً فزادت نسبة الرطوبة ، ولم أر المقهى صالحاً للنوم ، فخرجت بسيارتي مسافة ففرشت فيها فنمت نوماً عميقاً ، كان يقظني منه أحياناً ، وللحظات قصيرة ــ قصف رعد خفيف وطقطقة الرشاش على شراع سيارة الجيب •

اليوم الثاني للرحلة

كان يوم الأحد ٢٩ محرم ، ١٣ الحوت سنة ١٣٥١ شمسية ، الرابع مـن آذار مارس ١٩٧٣ م • استيقظت في الساعة الخامسة والنصف صباحاً ، وهو وقت آذان الفجر ، فصليت صلاة الصبح ، وبقيت حتى انبلج الصباح ، فكان صحواً جميلاً تذري فيه نسائم رقيقة باردة ، وكانت السحب تتكاثف كقوات دفاع ضد شروق الشمس ، فلم تدع لها طريقاً تطل منه علينا ، والغبار متغيب وكأنه أخذ إجازة بعد عمل يوم شاق !

والعسام غير موجود ، فلا حجاب بيننا وبين كل ما يمكن أن يصل إليه النظر من جبال تهامة الشوامخ ، فاغتنمت هذه الفرصة لأكتب وصفاً لما يحيط بي بالمشاهدة من مكاني هذا :

وصف الأرض من صَعْبر

كان سهل « كُـلَـيَّة » يبدو أمامي ممتداً شرقاً وكأنه لا نهاية له ، فهو يمتد من الجنوب إلى الشمال مسافة تقرب من أربعين كيلاً ، ومن الساحل غرباً إلى جبال فرسان وذَ وْ رَة شرقاً بما يقرب من خمسين كيلاً •

تحده من الجنوب حرة المُشلَّل ، ويبدو لي الآن وجهها الشمالي مستقيماً كاستقامة المسطرة فاصلة بين سهل قَـدَ يد جنوباً وسهل كليَّة شمالاً ، تسايرهما إلى آخر امتدادهما شرقاً وتقصر عنهما في الساحل ، والذي يليها من سهل كلية هنا هو وادي دَ وْ ران •

وأرى في الشمال ـــ بعيداً ـــ حرة الوبرية التي لا يكـاد يميزها النظر لبعدها ، وهي تمتد من الشرق الى الغرب كامتداد حرة المُشلَّل

تماماً ، تتصل بجبال ذَوْرَة ـ بين الذال والراء واو ـ شرقاً ، وتكنع في الساحل غرباً قريباً من الجحفة جنوباً .

أما من الشرق فترى سلسلة من الجبال كأنها تصل بين هاتين الحرتين ، هذه السلسلة ينفذ من خلالها واديا دوران وكلية ، وأهم جبال السلسلة :

١ ـ جبل فُرَسَان : جبل أشعل شامخ يسايرك إذا كنت في الساحل إلى مسافات بعيدة ، هذا الجبل أصبح يسمى جبل الرخام لاستخراج الرخام منه ، ويقال ان الوعول توجد فيه بكثرة ، وهو واقع بين رأسي كلية ودوران ، وله أهمية بالغة في تغذيتهما بالمياه ـ ولهذا الجبل شهرة في هذه الديار ولهم حوله أساطيره وأراد شاعران أن يتكاذبا ، فقال أحدهما :

انا سمعت فرسان يَردّ زين اللحُون[1]
يرد زين اللحون بسمعي آحيتها [2]

فقال الآخر :

أنا لقيت جمدانٍ نابتة له عيون
ولانّ فيها رمد ما غير داويتها [3]

٢ ـ جبال ذَوْرة وليست ذَرَة : جبال تقع على الجانب الأيمن من وادي كُليَّة في صدره ، تقابل فرسان من الشمال ، وهي سلسلة عالية أقل ارتفاعاً من فُرسَان ، ترى من الساحل ، وهذه الجبال ـ فرسان وذورة ـ تكوّن الحد الفاصل بين قبيلتي حرب وبني سُلَيم في هذه الناحية . أما من الغرب فهذا السهل الواسع مختلط بالساحل .

---

(١) يقول الحانا بديعة .

(٢) سمعتها بأذني .

(٣) فاذا بها رمد فداوتها .

يتخلل هذا السهل ثلاثة أودية تتبارى وتختلف في الحجم والخصب، هذه الأودية هي :

١ ـ وادي دَوْران : هو وادٍ قاحل تزرع بعض أراضيه زراعة عثرية ، وهو آخر هذه الأودية من الجنوب ، يسيل بلبط حرة المُشلّل من الشمال فيمر سيله عند بلدة صَعْبر فالى البحر ، سكانه الذُّرَا ـ واحدهم ذِرْوي ـ من زُبَيد من حرب .

و في هذا الوادي يقول عمر بن أبي ربيعة :

وليلة ذي دوران جَشَّمتني السُّرَى وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرَّرُ

وكان من ديار خُزَاعة قبل الاسلام فجاء في أشعار فخرية لهم ، ليس هذا مكانها (١) .

وبادية هذه الديار ينطقونه داران .

٢ ـ وادي كُلَيَّة : وهو أكبرها وأكثرها سكاناً وعمراناً ، يأتي من الشرق من حرة ذَرَة ـ بذال معجمة بعدها راء مهملة ـ فيسمى أعلاه ثَمِره ، وسكان هذا الجزء بنو عُصيَّة من سُلَيم ، فاذا توسط بين جبال فرسان وذورة سمي الحُصَيْنية ، وسكانه بِشْر من بني عمرو من حرب ، فاذا دفع من بين الجبال أصبح وسط السهل الواسع سمي كليّة وبه ما يقرب من مائة بئر رزاعية ، وسكانه الفوارس من زُبَيد ، والسفران من مسروح من حرب ، والمساحة المزروعة لاتساوي ٢ ٪ من هكذا السهل الواسع ، وكان في الامكان أفضل مما كان لو سد وادي كليّة ، فانه من الأودية التي يبحر سيلها كل عام ، وليس كل السهل

---

(١) توسعت كثير في ذكر هذه المعالم في كتابي (معجم معالم الحجاز) حيث هو المعني بالاستقصاء .

الذي تحدثنا عنه صالحاً للزراعة سواء بالري أو البعل ، ولكن مالا يقل عن ٤٠٪ منه يمكن استصلاحه .

ولكن استصلاح هذا القدر من هذا السهل الواسع سيظل حلماً من الأحلام ، ولا يمكن الحصول عليه الا بواسطة السدود لا بغيرها ، الا اللهم فيما لو أصبح في الامكان الزراعة على ما يستعذب من مياه البحر ، وهذا غير وارد في زماننا لتكاليفه الباهظة .

٣ ــ وادي جَلِيل : وادٍ يشبه وادي ودران في قحولته وحظه من العمران والسكان ، يجري في أقصى الطرف الشمالي من هذا السهل ، بلبط حرة الوَبريَّة ، يأتيه مشيلق من سيل كلية اذا فاض فيحسن حال أهله ويزرع بعلاً ، وتأتيه مياه الحرة من شعاب وشجون أهمها (قِرْبَى) وادٍ لبلادِيَّة الشام ، وهذه أول ديارهم مما يلي اليمن ثم تمتد الى ما وراء الفرع .

الطريق الى كُليّة

بئار كلية القديمة لها ذكر في روايات حرب وتأريخهم ، اذ هي من معاقلهم الأولى ، كما أن لها ذكر في كتب الأدب القديم ، وكانت محطة على طريق الهجرة على مر الزمن ، ومر بها رسول الله ﷺ ، في هجرته، وهنا أو قريب من هنا همَّ به سُراَقة بن مالك الكناني المدلجي فساخت قوائم فرسه في الأرض ، فآمن وتواثق مع رسول الله ﷺ .

وفي الساعة السادسة والنصف تحركت من مبيتي باتجاه الشرق قاصداً بئار كلية ، كان الجو جميلاً ــ كما أشرت آنفاً ــ فاتخذت طريقاً ترابياً كثير البطانيج والمطبات ، ما لبثت أن صارت أرضه رخوة تنغرز فيها العجلات فتثير غباراً يملأ السيارة ويلوث الأمتعة التي بداخلها ،وكنت

أظن أن ما سقط ليلة البارحة مـن رذاذ ظل يهتن طول الليـل قد أثرى الأرض ، ولكنها ظهرت يابسة لم يؤثر ذلك فيها تأثيراً يذكر .

كانت الطريق تسير بين غابات ملتفة من شجر السمر غير عظيم الارتفاع الا أنه كان يتحكم في الطريق فتتعرج يميناً وشمالاً ، وأخذت الطرق تتشعب كالشرايين ، فتهت ، واخطأت الطريق المقصودة ، فسرت على طريق سيارات الرخام التي تتجه الى جبل فُرَسَان وعندما شككت في الطريق علوت صمداً من الصمود التي تكثر في هذا السهل ، فرأيت نخل كلية يساري شمالاً ، فعدلت اليه على أرض ليست بها طرق للسيارات ، ولكن سيارة الجيب تشق طريقها في كثير من الأراضي غير المطروقة ، وعلى (١٦) كيلاً من صعبر وصلت بئار كلية ، وظهرت لي الزراعة ـ هنا ـ بشكل بدائي، فالأساليب لم تتحسن وبيوت السكان منثورة بين غابات السمر ، مبنية من القش المكون من الجريد والأثل مدعوماً باعمدة من سُوَق السمر ، وليست هنا قرى رئيسية ، ولا مياه للشرب الا من الآبار ، ولا انارة .

وجدت رجلاً من الفوارس فظن انني من مسؤولي وزارة الزراعة، فأخذ يشكو لي مما يعاني الوادي من سوء الرعاية الزراعية ، وبعد أن استفدت من هذا الشيخ في شرح المعالم المحيطة أخبرته بأنني لست ممن بيده ما يفيده ، غير أنه ـ حسب مالدي مـن معلومات ـ ليس هنـاك تقصير في الخطة لانعاش الزراعة عموماً ، فالأموال ترصد بسخاء والقروض مسهلة والمعونات مغرية ، انما التقصير ـ وهو شيء أراه بعيني ـ من التنفيذ ، والتنفيذ في هذه البلاد أمامه علامات استفهام كثيرة .

رابـغ

تجولت في كلية ثم عدت متجهاً غرباً حتى جاءني طريق الاسفلت ، فسرت فيه شمالاً على الساحل ، فوصلت الى بلدة رابغ على (٤٠) كيلاً من كليـة .

ورابغ : مدينة صغيرة على سيف البحر لها ميناء جميل مهجور مما يقرب من ثلاثين سنة ، لها امارة تشمل الأرض الواقعة بين الدُّعَيجِيَّة جنوباً الى النصائف شمالاً ، وتصل الى الحدود بين قبيلة حرب وكل من سليم ومُطَير، وتتبعها عدة طوارف يسمونها امارات ، مثل طارفة ثُوَل، وطارفة القَضِيمة ، وطارفة حَجُر، وطارفة النُّويبع ، وطارفة مستورة، وطارفة الأبواء •

ولرابغ أحياء عديدة متناثرة وسوق لبيع جميع ما يباع في المدن ، وبيوتها كلها من ذوات الطابق الأرضي ما عدا النادر أو بعض دور الحكومة •

وفيها من المرافق : مكتب تعليم يتبعه عدد من المدارس منها مدرسة ثانوية برابغ ، وبلدية قليلة الأثر في تقدم البلد وتنظيمه ، وادارة مالية، ومحكمة شرعية ، وشرطة ، وهاتف عادي •

وامراء رابغ آل مبيريك ، وهي أسرة ظهرت فيأواخر العهدالعثماني عند ضعف العسوم أمراء حرب السابقين ، ثم استمرت في العهد الهاشمي مع عدم الوفاق بينهما ، ولذا لم يكن لها نفوذ آنذاك ، ثم تطورت في العهد السعودي فاصبحت لها امارة المنطقة من ذهبان وعسفان جنوباً الى قرب بدر شمالاً ، وهي منطقة تبلغ مائتي كيل طولاً على الساحل ، ويتراوح عرضها الى الداخل بين مائة كيل وثمانين كيلاً ، وكان كل ما ليس معموراً من هذه الأرض تحت تصرف أقوى أمرائها اسماعيل ابن مبيريك ، معاصر الملك عبد العزيز ، ثم بدأ — بوفاته — يقل سلطانها ، ففصلت عنها منطقة خُلَيص وغُرَان ، وجعلت لها امارة تتبع امارة مكة رأساً ، ثم فصل وادي قُدَيد فوحد مع ستارة في امارة واحدة تتبع مكة أيضاً ، وكفت يد الأسرة عن جميع الأراضي عدا حدود بلدية رابغ ، وهي مساحة ضيقة ، غير أن غلاء الأراضي الذي خيم على المملكة السعودية

خلال هذا العقد ــ ١٣٩٠ هـ وما بعد ــ جعل أسرة آل مبيريك ترفل في ثراء لم تعرفه من قبل .

وأمير رابغ اليوم : محمد بركة ــ اسم واحد ــ ابن اسماعيل بن مبيريك ، وهو شاب حسن الادارة نزيه ، أعاد الى هذه الامارة شبابها بعد أن كادت تشيخ رغم قصر زمنها .

وآل مبيريك فرع من الغوانم من زبيد من مسروح من حرب ، فهي أسرة عريقة وذات حضارة في رابغ [1] .

وصلت الى رابغ على (١٥٥) كيلاً شمال جدة ، و (٢٧٠) كيلاً جنوب المدينة الى الغرب ، فنزلت في مقهى كسائر مقاهي المحطات يجلس الناس فيه على سرر من الخشب وحصير الدوم ، وبعد تناول طعام الافطار زارني صدفة (النشمي بن طامي) امير البلادية ، فدعاني الى قاعدته النُّوَيبع على قرابة ٢٢ كيلاً من هنا شرقاً شمالياً ، وأعلمت النشمي انني ــ فعلاً ــ أقصد المرور بالنويبع ، ولكن للاطلاع لا للضيافة . فقال : بل تتحرك بالغداء ، ولن تمر النويبع الا في وقته ثم تواصل رحلتك فاعتذرت .

وابن طامي هذا من أسرة ذات أمجاد قبلية ، وهي أقدم من أسرة آل مبيريك ، بل هي معاصرة لأسرة العسوم ، وبلغ أمراؤها من القوة والسطوة حتى صاروا كالأرداف للعسوم ، وقيل : ان ابن عسم ــ أمير حرب في الزمن المتقدم[2] ــ كان يشاور ابن طامي قبل اعلان الحرب على أية قبيلة أخرى ، وبلغت بهم الجرأة الى أن يصادروا ــ بالتواطىء مع حسين بن مبيريك أمير رابغ ــ جامكية [3] أرسلتها الدولة الى الحسين

(١ــ٢) انظر عنها كتابي (نسب حرب) .

(٣) الجامكية : مبلغ من المال ، وعادة تعني المخصصات .

ابن علي كمرتبات للعربان الذين كان يجندهم ، قيل : ان ذلك المال كان حمل سبع مطايا من الذهب •

وكان نصيب حسين بن مبيريك منها حمل مطية •

ثم أخذت هذه الأسرة في التناقص حتى أفل نجمها اليوم ، فالنشمي هذا ليس في شيء مما ورث ، وأخبرني اليوم أنه يستقبل طارفة للتّوبيَع معيَّن بدلاً منه ! وأنه مقيم حفل غداء هناكَ ، وأنه يأمل أن يعيِّنه خوياً براتب شهري !•

الجُحْفَة

تركت النشمي لما هوفيه ، وكانت الساعة العاشرة والنصف ، والجو لازال صحواً جميلاً تهتهت نسائمه الرخية الباردة نوعاً ما ، وتحركت من رابغ باتجاه الجحفة ، فسلكت الطريق التي أتيت عليها ، أي عدت من رابغ جنوباً ، وبعد سبعة أكيال فرق طريق الجحفة شرقاً ، فسرت في سهل ساحلي ليست له مميزات ولا معالم غير صمود متناثرة تتخللها المساهب المنخفضة ، وكانت تتراءى أمامي حرار وبرق ، كان من ابرزها برقة الخرجاء ، جعلها الطريق يساره غير بعيد ، وهي التي يقول فيها كُثيِّر :

لقد كان يرتاد الجميمَ برابغٍ ... الى بُرقة الخَرجاءَ من ضحوة الغدِ

وبعد مسير ٢٢ كيلاً من رابغ وصلت الى مسجد الجحفة •

ماذا في الجحفة ؟

مسجد جميل مبني بالاسمنت المسلح ، بناء حسناً محكماً ، ولا شيء غيره اطلاقاً •

كان المسجد مغلقاً بسلسلة بلا قفل ففتحته ودلفت الى الداخل ، فاذا حوشه الترابي ليس به أثر لانسان، ولا يظهر أن أحداً يقيم فيه صلاة

ولو مرة في الاسبوع ، وكان فرش المسجد مقلباً بعضه فوق بعض بفعل الرياح ، وليس به أثر تنظيف أو عناية ، صعدت المنارة ذات (٣٧) درجة بالتواء ، ونظرت يميناً وشمالاً ، فرأيت رجلاً يسقى إبلاً على بئر في الشمال الشرقي من المسجد ، على بعد يقرب من ٦٠٠ متر ، فنزلت اليه، ومنه عرفت أنه امام المسجد وأن لاسكان في المنطقة القريبة من المسجد عدا بويتات شَعَر ترى بالعين يسكن الامام أحدها وأرشدني الى مسجد الجحفة القديم ، فاذا هو بقايا أساسات بناء مهدم شرقي هذا المسجد الحديث ، وبجواره بئر مطمورة •

وهذه البئر التي يستقى منها اسمها الخالدية ، وهي خارجة عن حدود الآثار المحيطة بالمسجد ، والتي يقول : انها بلدة الجحفة القديمة ، وحول المسجد خرائب لاتكاد تميزها من الأرض التي حولها ، ثم أراني الامام طريق الحاج القديم من الجحفة وإليها ، وهي المرحلة الخامسة من مكة على نظام القوافل القديم • ولسبب قد نعلله ظهر أن الجحفة جحفتان أو أنها انتقلت في زمن معين من مكان الى مكان ، وسنعود الى هذا بعد قليل •

عدت الى المسجد وصعدت المنارة مرة ثانية لأكتب وصف الأرض المحيطة بهذا المكان أو قل بالجحفة الثانية ، وصعد معي الامام فشرح لي كل مايحيط بنا من معالم •

وصف الأرض

سهل مستطيل من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، يتخلله وادي الغائضة ، وهو أسفل وادي الخَرّار ، وكل زراعة الوادي عثرية، وكان في زمن من الأزمان يجري فيه وادي مرّ ثم حدث انكسار حوّل وادي مر الى رابغ وبقي هذا الوادي قاحلاً الا من أودية صغار تأتيه من الحرار والجبال القريبة •

ومن الجنوب الى الجنوب الشرقي : برقاء القطيعاء ، وراء السهل منقطعة من حرة الوبرية عندما تكنع في الساحل ، كان طريق الحاج يمر بخشمها من الغرب في مسيره الى مكة .

تتصل بها من الشرق ثم تعطف شمالاً ــ بشكل قوس ــ حرة الوبرية ، فتحد السهل من الشرق ، تتصل بها شمالاً حرة الغُرَبة الواقعة في الشمال الشرقي من هذا المسجد ، بينما تظهر شرقاً عدلاً بعيداً جبال الشّراء ، ترى رؤوسها من وراء الحرار .

وعند نهاية حرة الغربة من الشمال يلتف وادي الخرار ، ويسمى هناك الحَلْق فيلب حرة الغربة من الشمال ثم يشّرق ، وهنا تبدأ الحدود بين قبيلتي زبيد والبلادية ، الأولى الى الساحل ، والأخرى الى الداخل ممعنة في الأرض الجبلية الى ما وراء وادي الفرع .

وفي الشمال حرة العزورية ــ عزور قديماً ــ تشرف من الشمال على آثار أخرى للجحفة ستمر معنا فيما بعد ، وتتصل بها من الغرب حرة أم الكلى ، ولها قصة وبها ثنية يأخذها الطريق بين الجحفة وهرشى ،ومن الغرب ــ غرب هذا المكان ــ برقاء أم التنضب ، يفصمها طريق الجحفة الى رابغ .

وليس بالوادي زراعة إلا عثرية .

وحسب معاينة الأرض ومشاهدة مداخلها ومخارجها فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مر قريباً من الجحفة في هجرته الى المدينة .

ويسكن أرض الجحفة اليوم قبائل من زبيد ، منهم : الزنابقة ، والروايضة ، والعصلان ، تخالطهم عناصر من عوف .

الجحفة جحفتـــان

تحركت من الجحفة هذه أو قل الجنوبية أو الجحفة الحديثة ، في الساعة الواحدة الا ربعاً بعد الظهر بعد أن صليت في مسجد الجحفة ، ثم سرت شمالاً على طريق الحاج الذي يسمى الطريق السلطاني ، وعلى بعد أربعة أكيال وجدت قصراً أو قلعة قد تهدم بنيانها من الداخل ، وظلت منه ثلاثة أضلاع قائمة ، يبلغ ضلع بنائه ٣٣ متراً ، وهو مبني بالجص ، ولم استطع قياس ارتفاعه الا أنه لايقل عن ستة أمتار ، وبجانب القصر أثار بلدة قد غشيها السافى الا أنك تستطيع أن تميز الشوارع ومناخات الجمال القديمة ، وهذا القصر يسميه أهـــل البلاد (قصر عليـــاء) وهم يقصدون زوجة أبي زيد شيخ بني هلال بن عامر ، وهي عادتهم أن ينسبوا كل أثر من الآثار الى بني هلال ، فيقولون لك : هذا من صنع الهلالا •

والبناء عباسي ، أنشيء أما لحماية البلدة القديمـــة ، أو مقر لوالي البلدة ، أولهما معاً ، وشاهدنا انه عباسي كون الجحفة هجرت في أواخر ذلك العهد ، فالبناء ليس عثمانياً ، ثم لايتوقع أن يكون أموياً لأن التاريخ لم يذكرلنا اهتمام الأمويين بهذه المحطات الى درجة بناء الحصون والقلاع ، وما كانت لها ضرورة آنذاك •

ومن استقراء تاريخ الجحفة نجد أنها كانت بلدة عامرة في الجاهلية ، وأنها كانت محطة رئيسية على هذا الطريق الذي كان مطروقاً ومعروفـــاً عند العرب ، فلما جاء الاسلام وقّت بها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل مصر والشـــام •

وكانت تسمى (مَهْيَعة) وقيل بل سماها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا الله أن ينقل حمى المدينة اليها ، وكانت سكنى بني عبيل وأقوام من العرب البائدة ، ثم صارت لكنانة ، ثم ملكتها حرب من أول القرن الثاني الهجري الى اليوم •

ويذكر لنا المؤرخون : أن لرسول الله ﷺ مسجداً بعد الجحفة مما يلي مكة ، ويظهر أنه ذلك المسجد القديم الذي بني بجواره المسجد الحديث الذي ذكرناه آنفاً .

سبب انقسام الجحفة واندثارها

ما أن أهل العهد العباسي حتى أخذ المسلمون يتتبعون آثارالرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد خفي الكثير منها على قرب العهد ، ذلك أن الرعيل الأول كان معنياً بنشر الاسلام وترسيخه ، فقام من المسلمين من يبني المساجد في الأماكن التي تثبت أنه صلى فيها ، لذا يظهر ـ استنتاجاً ـ أن مسجده الذي بعد الجحفة مما يلي مكة في ذلك العهد ، ومن المحتم أن يزوره الحجاج تبركاً وتذكراً ، ومن ثم تطلبت الحاجة من يخدمهم ، فقامت بعض الحوانيت ، ثم ان هذا المكـان أرحب ، فيبدوا أن بعض القوافل أخذت تحطه ، وبهذا انقسم البلد الى محطتين متجاورتين .

وما أن كثر الحاج المصري والافريقي الآتي عن طريق ساحل الحجاز الشمالي حتى وجدوا أنه من الضرورة البحث عن محطات تلائم طريقهم اذا تجاوزوا بدراً ، فودّان والجحفة تائعتان عن طريق الحاج الآتي على هـذا الطريـق .

فاتخذ الحاج (بئر مستورة) بدلاً من ودّان ثم لما رحل من مستورة وجد رابغ أنسب لطريقه فاتخذها بدل الجحفة ، هذا السبب ، والسبب الثاني : نأه في العهد العباسي ساء الأمن في هذه الديار فأخذت القبائـل المحيطة بهذه القرى تغير عليها وعلى من يمر بها .

فلما عمرت رابغ بفعل نزول الحاج بها ، أخذ أهلها ـ والناس تباع المصلحة ـ يتتابعون اليها هاجرين بلدتهم القديمة ، حتى تركت تماما ، وأول من رأيته نبه على اندثارها ، ياقوت في «معجم البلدان» في أول القرن السابع الهجري ، فقال : انها هجرت من زمن سابق لزمنه .

والرحالون المغاربه والمصريون كلهم نصوا أن طريقهم كان على رابغ، ونص كثير منهم انهم كانوا يحرمون اذا حـاذوا الجحفـة ، أي كانت مهجورة كميقـات .

ولكن الغريب حقاً انك ترى الجادة وكأنها لم تعطل الا قبل زمـن قريب ، فالرصف لازال واضحاً ومجرات العربات تظهر في بعض الأماكن وكانت الطريق تنقّى من الحصى وتمهد ، هذا واضح في ثنية المشلل ، وثنية عزور شمال الجحفة . ولعل الحاج التركي والشامي ظل يطرق هذا الطريق في الزمن العثماني .

ذكريـات

وأمام ذلك القصر الذي تسميه العامة هنا قصر علياء ، ذي الشهرة المكانية لاتجد من لايعرفه ، عادت بي الذاكرة الى نيف وثلاثين سنة ، وانني قد رأيت هذا القصر وعمري آنذاك خمس سنين فقط ، فقد انتجع والدي ـــ رحمه الله ـــ هذه الديار لسبب لا أذكره ، انما أذكر أنه يقول لي : (عمرك خمس سنين) . وكنت أذكر أن الحبحب كان كثيراً في هذه الأرض التي لاأرى فيها شيئاً أخضر اليوم سوى غابات من المرخ والأراك .

غدير خُمّ

ومن عند ذلك القصر انعطف الوادي الى الشرق فانعطف طريق بانعطافه، وكان الى جوار الطريق من الشرق غابة الأراك ، ثم صار نبات الوادي جله المرخ والضرم (الثمام) وأرضه رخوة تنغرز فيها العجلات ، وهنـا دخلت ديار بلادية الشام ، فخرجت في حزم يطيف به الوادي ، منه ترى البلدة القديمة ، فاذا بي أمام (**فُقَـّر عين الجحفة**) **مشاهدة بالعين بعدها** العداد ، وكأنها ظلت جارية زمناً طويلاً بعد البلدة ، أو أن أحداً حاول

بعثها فلم يقدر . وهنا ظهر لي رجل يحمل على كتفه مخباطاً [1] يسير بحث ، ولا يكاد يشعر بوجودي ، فاستوقفته وسألته فاذاهومن البلادية فحدد لي ديارهم فقال : الى الشرق تصل الى الشراء ـ قرابة ٣٠ كم ـ وعلى طول وادي مر ـ شرقاً شمالياً ـ تصل الى حجر ، وشمالاً الى وراء أم العيال . وأم العيال عين للبلادية في وادي الفرع .

وسألته عن عين غدير خُمّ ، فقال : وش تبي بها ؟ قلت مازحاً : أبا اظهرها ! ذلك انني سمعت أن أحد شيوخهم حاول أن يبعث عين خُمّ فلم يقدر عليها . قال : أزرى فيها غيرك . وبعد محاورة أشار الى نخلات مطلع الشمس فقال : هذيك الغُرُبة . كانت الطريق كؤداً لاتسير فيها السيارة الا بالدبل [2] . وبعد ثمانية أكيال من قصر علياء وصلت غدير خم ، ويسمونه اليوم الغربة ، ويقع شرق رابغ بما يقرب من ٢٦ كيلاً . وكان استغرق السير نصف ساعة بسبب وعورة الطريق . وهو غدير في لجف جرف بطرف الوادي من الغرب ، وعليه ثلاث زرائب نخل لأناس من البلادية ، في كل زربة ما يقرب من خمس واربعين نخلة ،كانت مكتملة الطلع مؤبرة ، غير أن بعض عراجين العام الفائت لازالت مما يدل على اهمال العناية بها .

هذا الوادي كان يسمى الخَرّار ، وكان يجري فيه سيل مر ، فجاء سيل كبير فخرم مرا في وادي رابغ فتحول الماء عن وادي الخرار والجحفة فاقحلت وقل رواؤها .

ويسمى الخرار اليوم مما يلي مراً (الظهر) لأنه أصبح ظهراً لايطؤه السيل ، ويطالب اليوم أهل الجحفة بقسم من ماء مر ، وأهل رابغ يعارضون ذلك بشدة .

---

(١) منساة يخبط بها الشجر لتنزل حبلته أو ورقه .

(٢) غيار اضافي يوضع في سيارات الجيب الخاصة .

وأذكر أنني قلت مرة لأمير رابغ الحالي : انه من العدل أن يعطى أهل الجحفة مسقى من وادي مر • وما كان في الظاهر يرفض ، ولكن الخصم غيره • ومن نصوص المتقدمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، مر من هذا المكان في هجرته الى المدينة •

قصة انكسار مر في وادي رابغ

كان وادي مرّ — ويميّز بمر عُنَيب — يجري غرباً ، حتى اذا وصل الى مكان يدعى النباة على ما يقرب من ٢٥ كيلاً شرق رابغ عرج يساراً جنوباً في شكل زاوية شبه قائمة ، وكان رأس هذه الزاوية ثنية هشة طينية الداخل تصل بين مر عنيب ووادي رابغ فجاء سيل جحاف فكسر هذه الثنية فانخرم مر في وادي رابغ ، ونتج عن ذلك انبعاث عينين جاريتين تعرفان اليوم بالحكّاك •

والانكسار ثابت من المعاينة يعرفه كل من له خبرة بالأرض ، ذلك أن حصى الحرة الاسود لازال يرى في مجرى السيل ، وقد تغير جزئياً لطول ما تجري عليه السيول ، ذلك أن الحصى الذي يوجد في مجرى السيل يكون — عادة — مصقول له لون مميز عن غيره بفعل جريان الماء عليه ، خاصة أن وادي مر هذا كثيراً ما يكون غَيلاً جارياً في سنين الارجاع •

ولكن المقصود هنا بقصة انكسار مر هي تلك الاسطورة التي تقول:

كان رجل من زُبَيد ينزل وجه هذه الثنية مما يلي رابغ ، وكان له عشرة أبناء أنجب كل منهم عشرة فأصيب بالزهو حتى أنه اذا اعتزى ، كان يقول : أنا أبو عشرة جد مائة !

وكان أحفاده في تيه وطغيان ، فكانوا يصيدون كل حيوان يصادفهم فاذا صادوا الثعالب سلخوا جلودها وهي حية ، ثم اطلقوها في الأرض ،

فكانت تسرع تحفر في هـذه الثنية احتماء من حرارة الطقس ، وبهـذا تخلخلت الثنية من الداخل ، ولما جاء السيل تسرب من خـلال المغارات فاجتاح الثنية ، وباجتياحها جرف أسرة ذلك الشيخ (أبى عشرة جـد مائة) ! وكان الشيخ غائباً ، فلما عاد وشاهد ماحل بأهله تألم ونظر الى أماكن يعرفها من ربعه ، فقال :

ذا مركز الشلفاء وذا مربط الفرس   وذا مفرش الخطار يوم يجون

ومن كلمة (الشلفاء) الواردة في هذا الشعر نستنتج قدم الاسطورة.

فاذا لم تكن منقولة من قصة سد مأرب ـ مـع التحريف ـ فانها قصة حقيقية في الأساس . نقـول : في الأساس ، لان الاساطير العربية ليست بلا أساس ، فهناك أساطير عائمة استطعت أن أجد لكثيرمنها أساس في القصص القديم ، غير أن الاسطورة يتناقلها الرواة وتؤثر فيها التيارات الفكرية والسياسية وأهـواء أولئك الرواة أحيانـا ، فتزيد أو تنقص ، وتغرب وتهول ، كل ذلك نتيجة لتلك العوامل ، ولكنها تبقى قصة ذات أساس ومساس بالحيـاة .

صفة الأرض حول غدير خُمّ

يأتيه من الشرق وادي الخانق ، يسيل مـن جبال الشراء المتقدم ذكرها، على بعد يقرب من ٢٥كيلاً وهو الذي يغذي الغدير بالماء ،ولولاه لانقطع هذا الغدير التأريخي، وهو غدير دائم لاينضب مهما كانت السنين جدباً ، وهذه السنة لم تهطل الامطار ، ومع هذا فماؤه باق .

وتأتيه من الجنوب حرة الوبرية ويسمى جانبها هنا عويرضة، وهي عنه على حذفه حجر جنوباً عدلاً ، وأرضه مفتوحة تجاه وادي مر الذي يمر شماله على أحد عشر كيلاً ، وما بينهما يعرف بالظهر ، وقد تقدم الحديث عنه .

والى الغرب من غدير خم وشماله الغربي تمتد مدينة أثرية كانت مسورة ، ظاهرة بقايا السور بصفة واضحة ، من أثارها ثلاثة قصور أو قلاع على شكل رجوم قد انهارت وغشيها السافي • ولم تعطنا المراجع القديمة شيئاً البتة عن هذه المدينة ، غير أن هناك ثلاثة عناصر نستنتج منها قيام مدينة هنا فيما بعد الخلافة الراشدة • هذه العناصر :

١ ــ ذكر أن غدير خم كانت له عين ، وفي العهد غير البعيد حاول أحد شيوخ البلادية بعث هذه العين فلم يفلح ، ووجود عين في الحجاز يساوي وجود قرية على صفة ما ، فاذا أخذنا العنصر التالي في الاعتبار قررنا وجود قرية نموذجية مبنية بالحجر مسورة •

٢ ــ بعد مقتل الامام علي ــ كرم الله وجهه ــ تفرق أبناء الصحابة والانصار وقريش في أودية الحجاز فاتخذوا بها الضياع وعمروا القرى ، وها هي اخبارهم تأتينا بأنهم كانت لهم أملاك بالسوارقية وخلص ، وسويقة والأكحل ، وغيرها ، فاذا علمت مكان خلص والأكحل وما فيهما من وعورة وبعد عن المدن علمت أن الذين عمروها وعمروا ساية وأمثالها ليس بعيداً عليهم أن يستوطنوا هذا الغدير فيعمروا ما حوله ، خاصة أنه أثر من أثاره ، ﷺ •

٣ ــ الحرار المحيطة بغدير خُمّ من معظم جهاته تعرف بالقدام ــجمع قَدمةــ والقدمة في لهجةأهل الحجاز طرف الحرة المائل الىالسهل أو نعفها المنقاد بارزاً عن بقية الحرة ، وتقول حكايات أهلها ، ان هذه القدام كانت تغطى سفوحها غابات من النخيل ، يستشهدون بالحكاية التالية : كان رجل من أغنياء هذه البلدة أصاب دما فيها فاضطر الىالجلاء الى مكان ليس فيه الا الأشجار البرية ، فاخذ يأكل جروان المرخ وينشد:

جرو المرخ في الدار الخليّه   أطيب منك ياتمر القدام
وفي دار المعزة فرد يوم   ولا دار المهانة ألف عام

كل هذه العناصر تدل على أن هذه الأرض الخالية اليوم إلا من بويتات شعر هنا وهناك ، كانت يوماً ما تضم مدينة مزدهرة .

ومن معاينة الأرض واستقراء النصوص يظهر واضحاً أنه ، ﷺ ، مر في هجرته من هذا المكان .

ومن غدير خم أو الغربة كما تعرف اليوم ترى شمالاً بشرق حرة سوداء تسمى حرة ذويبان ، والى الغرب حرة رُمْحة ، دونها قُرَين تجاوره قرينات تغطيها غابات السمر ، أما الى الشمال فواد واسع هو وادي الظهر ، تغطى أرضه غابات السمر التي لاتكاد تترك منفذاً لنافذ ، مع وجود زريعات قليلة هنا وهناك .

استراحة

عندما وصلت الى هذا المكان كنت متعباً ، فتوقفت في بطحاء الى جانب الغدير ، وأخرجت ما أحضرت من زاد ، وصنعت كوباً من الشاي ، وفرشت في ظل السيارة ، وكان الجو جميلاً والغيم يظلل المكان ، وهنا وردت غنيمات ليست بالكثيرة ، كانت معها فتاة لا يرافقها أحد ، فهذه الأرض يقل رائدها ، وبنات البادية يحظين بالثقة وقوة الارادة ، غير أن تلك الفتاة ما أن رأتني حتى جفلت فتوقفت بعيداً عن الغدير واخذت ترقب غنمها حتى شربت فصدرت ، فتجاهلت وجودها طيلة وقفتها تلك حتى لا أزيد خوفها ! وما لبثت أن غادرت المكان بغنمها .

غدير خم في التأريخ

قال في « معجم البلدان » : خم اسم رجل صبّاغ أضيف اليه الغدير الذي هو بين مكة والمدينة بالجحفة : هو على ثلاثة أميال من الجحفة ، وذكر صاحب «المشارق» أن خما اسم غيضة هناك بها غدير نسب اليها ،

وقال : وخم موضع تصب فيه عين ، بين الغدير والعين ، مسجد رسول الله ﷺ ، وقال عرام : دون الجحفة على ميل غدير خمّ وواديه يصب في البحر ، لانبت فيه غير المرخ والثّمام والأراك والعشر ، وغدير خم هذا من نحو مطلع الشمس لايفارقه ماء المطر أبداً ، وبه أناس من خزاعة وكنانة غير كثير ، قال معن بن أوس المزني :

عفا وخلا ممن عهدت به خُمّ وشاقك بالمسحاء من شرف رَسمُ
عفا حقباً ، من بعد ما خف أهله
وحنّت به الأرواح والهُطّل السُّجمُ

وقال الحازمي : خُمٌّ وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير، عنده خطب رسول الله ، ﷺ ، وهذا الوادي موصوف بكثرة الوخامة.

ويقول البكري : موضع غدير خم يقال له الخرّار .

وقال النُّصَيْب :

وقالت بالغدير غدير خُمٍّ أُخَيَّ الى متى هذا الركوب
ألم تر أنني مادمت فينا أنام ولا أنام اذا تغيبُ

وفي مكان آخر يقول : وغدير خم على ثلاثة أميال من الجحفة ، يسرة عن الطريق . ـ يقصد لمن أتى من المدينة ـ وهذا الغدير تصب فيه عين ، وحوله شجر كثيف ملتف ، وهي الغيضة التي تسمى خمّ ، وبين الغدير والعين ، مسجد النبي ﷺ ، وهناك نخل ابن المعلى وغيره .

وبغدير خم قال النبي ﷺ لعلي : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » . وذلك منصرفه من حجة الوداع، ولذلك قال بعض الشيعة :

ويوماً بالغدير غدير خُمٍّ أبا له الولاية لو أُطيعا

وخطبة الغدير مشهورة على هذا الغدير ، وهي من حجج الشيعة في ولاية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وادي مَرّ عُنَيْب

واد فحل من أودية الحجاز ، يأتي من قرى حرة الحجاز العظيمة ، فأعلاه الأكحل ، ثم مر ، ثم وادي رابغ ، وكان يميز بمر عنيب ــ تصغير عنب ــ ذلك أن في الحجاز أربعة مرات : مر الظهران ، ومر هــذا ، ومريين[1] : قرية اندثرت من نواحي المدينة . ومر آخر هو أحد روافد مر الظهران في صدره .

ولمر عُنيب روافد كثير كبــار ، منهــا : وادي حَجْر ، كان يعرف بالسائرة : وادٍ كثير العيون والقرى والنخيل ، يقع شرق رابغ على ١٠٠ كيل ، ووداي خَضِرة يلي حجراً من الشرق ، وهو كثير المياه الجاريــة والنخيل ، وكلاهما والأكحل لقبيلة حرب ، أما بين حجر ورابغ فترفده أودية أقل أهمية من السابقين ، منها : ندا ، وتماية ، والنويبع ، وكلهــا للبلادية خــاصة .

وكل مرّ ورد في شعر كثير عزة هو مر هذا ، حيث يقول :

ونحن منعنــــا بــين مر ورابــغ من الناس أن يغزى وأن يتَـكنَّف

ووادي مر يظل أبداً غيــلاً يسح على الأرض حتى في سنــوات الجدب ، وفيه عيون ، منها : مُغَيْنية ، والحَكّاك ــ عينان ــ وغيرها ومزارع على الضخ الألي ، جل هذه لقبيلة البلادية ، فاذا اقترب من بلدة رابغ اتسع وكثر ماؤه ولكنه غير مستصلح ، ومعظم النخيل حول رابغ تعيش بعلاً على رواء السيول .

---

(١) انظر الرحلة الرابعة في آخر هذا الكتاب .

تحركت من مقيلي أو قل استراحتي من غدير خم ، وكانت الساعة الثانية بعد الظهر ، فسار الطريق شمالاً شرقياً على طول وادي الظهر ، بين حرة ذويبان شرقاً وحرة رمحة غرباً ، وتكاثفت الغيوم وادلهمت الغابات التي كانت تحف بالطريق فتحد النظر الى مسافة أمتار فقط ، فاختلطت ظلمة السماء بظلمة الأرض ، وتوارت الشمس مجبرة ، فلم أعد أميز الشرق من الغرب ، ورغم أنني قد سلكت هذا الطريق قبل سنوات الا أنني ضللته الآن ، فقد تفرقت الطرق البرية ، وبنيات الطرق مولعة بالغواية ! وكان يحزنني كل وقت يضيع سدى مهما كان ضئيلاً ، وبينما أنا حائر أسير الهوينا لكيلا أتوغل كثير لو غويت الطريق ، فاذا بعنز عاطية في شجرة[1] ، فعرفت أن وراء العنز عنزات ، فتوقفت وترجلت عن سيارتي فأخذت أتخلل هذه الغابة بحثاً عمن استخبره ، فاذا غنم مفلّية ووراؤها انثى قد تخندفت حياء أو خوفاً ، فناديتها بما يعرفه القوم هنا (يا رعية الغنم) ! ثم أردفت : انني ضال الطريق فارشديني ، فانتصبت وأشارت بيدها ووصفت الطريق وصفاً جيداً . وبعد أحد عشر كيلاً من غدير خم هبطت وادي مر ، ثم صعدت النباة : ربوة مرتفعة بطرف مر من الشمال ، وهي بقايا تلك الثنية التي انفجرت في انكسار مر ، واستمر الطريق على قرارة مغطاة بشجر عمري من السمر ، ألمح فيها بعض بيوت الشعر ، وبعد كيلين اثنين هبط الطريق مراً مرة ثانية على ما يسمى (رقبة الحكّاك) وكان الوادي غيلاً يجري بغزارة ، فسرت فيه في أخدود تكتنفه الجرفة ذوات الحروف الحادة الظاهر أكل السيل فيها ، وكانت

---

(١) واقفة على رجليها شابية بيدها .

السيارة تتراكع فلا تزيد سرعتها عن خمسة أكيال في الساعة • وعلى(١٤) كيلاً من غدير خُمّ وصلت الحكاك : عينان تسقيان نخيلاً للبلادية ، تسمى أحداهما الحومة ، والأخرى الطرنبة أو الطلمة ، وهما حد ديار البلادية من الغرب على بعد عشرين كيلاً تقريباً شرق رابغ، وفي أكمة هناك بين النخيل قصر مهدم كان لأمير البلادية، وكانت هذه هجرته في الصيف • الصيف •

وادي النُّوَيْبِع

تركت الحكاك الذي قد هجره كل أهله فلم يعد به عريب ولم يعد به من يسقي نخله الذي لوح الظمأ مجموعات منه ، وسرت غرباً ، فكان عن يميني جديب الغرّاء ، ثم هبطت وادي النويبع •

والنويبع : واسعة أرض كالجوبة بين حرار صغار وجبال قليلة الارتفاع ، يغذيه وادي السادّ الذي يسيل من حرة الشيباء — بين مرو الفرع — وهو غزير المياه العذبة ، خصب التربة ، ومنه شرب مدينة رابغ، مدت مياهه الى هناك بواسطة أنابيب • وهو مقر أمير البلادية ، وبه زراعة قليلة •

ويبعد النويبع عشرين كيلاً شمال شرقي رابغ •

بين رابغ ومستورة

بعد مائة كيل من السير في أرض وعرة ومضلات، مررت فيها بكثير من المعالم ذات الأهمية الجغرافية والشهرة التأريخية عدت الى الطريق المعبدة عند (الصُّلَيْب) بطرف رابغ من الشمال ، ضارباً بذلك دائرة من رابغ وإليها ، واستغرقت هذه المسافة خمس ساعات ونصف ، أي بمعدل أقل من عشرين كيلاً للساعة الواحدة • وسبب ذلك وعورة الأرض •

سرت على طريق الاسفلت شمالاً باتجاه مستورة التي تبعد من هنا أربعين كيلاً ، وعلى بعد (١٢) كيلاً رأيت يميني حرة الخَمَص تشرف على الساحل ، بين هرشي ورابغ ، وعن يساري ماء البحر وقد عكسته شمس الأصيل فظهر لامعاً رقراقاً كلون زجاج أزرق • وعلى ٢٤ كيلاً أي ٢٩ كيلاً من رابغ مررت بالخَشْم ، وهو نعف حرة بَيْض عند ما تكنع في الساحل ، والطريق يذب أنفها فيترك منه الى الساحل أكمة تشهد بما حدث ، وحرة بَيْض هذه تشرّق من هنا الى أن تتصل بهرشي ، ومعها ريع بَيْض ، وقد ذكرها نُصَيْب شاعر وَدّان ، فقال:

ولا شك أن القوم أدنى مقيلهم   كناثر أو رغمان بَيْض الدوائر

وريع بيض آنف الذكر لصيق هرشي من الغرب ، وذكر أن لرسول الله ، ﷺ ، مسجداً ببيض •

ومن الخشم هبطت أسفل وادي أرثد ، ويسمى هنا (المدرج) ويسارنا وادي النهدي ، ويميننا الى الأبواء وادي مستورة ، كلها أجزاع لواد واحد أصله من شعبتين ، هما : وادي الفرع ووادي القاحة ، يجتمعان فيسمى الوادي الأبواء ، فاذا انحدر كان يسمى أرثد ، أما اليوم فكما قدمنا أجزاعه ، ولا يعرف أرثد •

وينفرش الوادي هنا حتى يبلغ عرضه قرابة عشرة أكيال ، جل نباته شجر السمر،تتخلل ذلك مزارع عثرية، ولا وجود لزراعة الري هنا البتة، وكانت ترى بين حين وآخر مزارع الحبحب •

وظهر — من هنا في الشمال الشرقي — جبل بني أيّوب : أشمخ جبل في المنطقة المحيطة بمستورة ، وهو ثافل الأصغر ، ويسمى جبل الطّريف ، والى شماله عليه العسام جبل بني صبح (ثافل الأكبر) • وبنو أيوب هؤلاء من بني عمرو من حرب ، يلون البلادية حلفا ، وأصلهم من بني صبح ، وبنو صبح من ميمون من بني سالم من حرب •

مَستُورة

وفي الساعة الخامسة الا ثلثاً وصلت الى بلـدة مستورة : بلـدة ساحلية لها ميناء لصيد السمك، وتبعد عن البحر شرقاً بما يقرب من خمسة أكيال ، بينه وبين جبال تهامة ، وتبعد شمال رابغ بأربعين كيـلاً على الطريق المعبدة بين مكة والمدينة ، فيها مركز امارة تابع لامارة رابغ ، وشرطة ، ومستوصف صحي ، وفيها مقـاهٍ كثـيرة ، ومحطات لبيـع المحروقات ، وسوقها عامرة ، وجدت فيها مايزيد على عشرين سيارة من المسافرين ، وتشتهر بجودة سمكها ، ولذلك يتوقف كثير من المسافرين ليطعم شيئاً منه ، ولها أحياء متناثرة حول السوق ، وبها مسجد جـامع نظيف ، ومدرسة ثانوية ، ومن مستورة تظهر لك فهوة الأبواء مطلـع شمس بين الجبال على ٢٨ كيلاً •

نزلت في مقهى لايختلف كثيراً عن مقاهي صعبر ، وكان الجو غائماً بارداً رطباً ، والرياح سريعة الجريان ، ذلك أن مستورة تقع في سهـل ساحلي مفتوح من الشمال والجنوب ، لذا تكون مهباً للرياح ، وأسوأ ما تهب هنا الصبا ، فاذا هبت عطلت الحركة ، وقد تسد أمـاكن مـن الطريق بالرمال السافية • صليت المغرب والعشـاء قصراً ، وتعشيت في ذلك المقهى الذي يمتلكه ويديره رجل من بني أيوب ولم أشأ أن أعرفه على نفسي ، وذلك أن وشائج القربى بين البلادية وبني أيوب تفرض عليه ــ حسب أعراف القبائل ــ أن يغلق مقهاه ويدعوني الى بيته ولن تقل الكلفة عن ذبيحة وما يتبعها ! وان لم يفعل ذلك فهـو ــ في عرفهم ــ نقص يذم عليه •

وبعد المغرب اجتمع نفر من أهل البلد من بني أيوب وبني محمد ، وكلهم من بني عمرو ، ودار النقاش حول مستورة وسبب تسميتهـا ،

فقالوا : انّ وَدّان كانت عيناً تبعد الآن عن مستورة في الجنوب الشرقي فويق الخط وأنت آتٍ من رابغ بما يقرب من اثني عشر كيلاً ، وان المعمرين يروون عمن أدرك جثم نخلها النخرة ، وآثار عينها•أما مستورة فقد كانت بئراً الى الشرق من هذا المكان، وكانت لامرأة اسمها مستورة، فكانوا يقولون : نصبح بئر مستورة (أي الجمّالة) ثم غلب عليها اسم مستورة ، وعندما شق طريق الاسفلت جنّب عنها الى الغرب ، فانتقلت البلدة اليه ، وقد جنب الآن مرة أخرى الى الغرب عند تجديده ، فأراد أهل السوق أن ينتقلوا اليه فمنعهم أمير البلد ، وبينهم وبينه مرافعات وصلت الى السلطات العليا •

والواقع أن هـذه القرى التي على الطريق مـا عمرت أساساً الا كمحطات للمسافرين ، فاذا جنب الطريق عن احداها ماتت بسبب انتقال الناس الى مكان مناسب من ذلك الطريق ، لأن المسافر يرغب النزول في أقرب مكان ، ولا يعرج على تلك البلدة التائعة عن خط سيره ، لذلك ماتت وَدّان عندما جنّب عنها هذا الطريق ، وكذلك الجحفة • وليس في مستورة مياه للشرب ، وشربها بالصهاريج المحمولة على السيارات ، وليست بها انارة ، الا ان النية متجهة الى عمل ذلك • وسكانها في الأصل زُبَيد ، غير أن بني عسرو القريبة ديارهم من هنا الى الشرق استوطنوها للتجـارة •

افتراق الطرق

مستورة هي المرحلة السادسة على نظام القوافل لمن جاء من مكة ، وهذه المراحل ، هي :

الجموم ، عسفـان ، الدف ، الطارف أو القضيمة ، رابـغ ، ثم مستورة •

ومنها تفترق الطرق الى المدينة الى ثلاث شعب :

١ ــ طريق يأخذ شرقاً الى بئر مبيريك من صدر الأبواء ، وهو طريقي الآن ، ثم يفترق هناك ، وسوف نذكر ذلك في موضعه •

٢ ــ من مستورة الى بئار الشيخ ثم غيقة فريع الخائع فالحمراء فالى المسيجيد • وهذا يأخذ شمالاً تاركاً الساحل يساره داخلاً بين الجبال ، يمينه سلسلة ثافل ، ويساره جبال ظبية ، وكراش ، ثم يفترق من غَيْقة ، وسيذكر أثناء الحديث عن غَيْقَة •

٣ ــ طريق يأخذ شمالاً عدلاً على سهل البزواء ، ويأخذ في الابتعاد عن البحر تدريجياً حتى يصل الى بدر على ٤٥ كم تقريباً شرق البحر ، وهناك يفترق الى شعبتين : طريق المدينة من بدر الى الحمراء الى المسيجيد مجتمعاً مع طريق غيقة المتقدم ، وشعبة أخرى تعود الى الساحل فتذهب الى ينبع ، وهي طريق الحاج المصري والمغربي ، تستمر على ينبع وأم لج ــ الحوراء قديماً ــ والوجه ، والازلم ، وضبة ، والمويلح ، فالى العقبة بالأردن ، وكل هذه المدن يمر بها الطريق على التوالي ، وبينها قرى ومحطات عديدة ، وكلها موانىء ، على الساحل الشرقي للبحر الأحمر [1] •

الخروج من مستورة

لم أشأ أن أنام في المقهى ، وعندما أدرك صاحب المقهى ذلك دعاني الى مرافقته وهو يستعد للذهاب ، فشكرته واعتذرت ، ذلك أنك تجد ــ في هذه البيئات ــ أن مجموعة من الناس ينامون في غرفة واحدة ، وأنا قد تعودت على النوم منفرداً ، فاذا شاركني أحد غرفة لظرف ما

---

(١) انظر المخطط المرفق .

لا يجد اليوم طريقاً الى عيني ، من أجل هذا تجدني أنام في سيارتي أغلب أيام رحلاتي ، وفي الساعة العاشرة خرجت من ذلك المقهى متوجهاً شمالاً على الطريق العامة ، وبعد أربعة أكيال فرق الى اليمين مطلع شمس طريق الأبواء ، فسلكته قليلاً فبتّ هناك وأنا أرى واسمع السيارات العابرة على الطريق العامة •

وَدّان

بلدة ظلت عامرة في الجاهلية وصدر الاسلام ، ثم تأثرت بعاملين : أولهما ــ انتشار الاسلام في مصر والمغرب ، فكثر حاجهما ، ولما كانت طريق ذلك الحاج تأتي على الساحل فقد اتخذ مستورة محطة فأخذ أهل ودّان ينتقلون الى المحطة طلباً للكسب ، وهي عادة تشاهدها اليوم في مستورة وفي الفريش ، وفي الطريق بين مكة والرياض ، حيث انتقلت بلدة المويه من مكانها فأصبحت في طريقها الى الاندثار [1] •

ثانيهما ــ في العهد العباسي تراخى نظام الحكم في هذه الديار فقل الأمن ، فأخذ بعض الحاج يميل الى الساحل حيث النظر أطول ووجود المكامن عزيزاً ، ولبعدها عن القبائل المغيرة ، وهي عادة قبائل الجبال ، وقد شنت قبيلة حرب غارات على بني جعفر في ودان وغيرها ، ذكرها بعض المؤرخين •

زد على ذلك أن ودان ليست على طريق مستقيم لدرب الحاج ، فالحاج الآتي على درب الأنبياء يمر بالسقيا ثم هرشي ، وودّان تائعة يميناً بقرابة اثني عشر كيلاً ، فكان من يريد أن يحط ودّان يأخذ من الأبواء يميناً منحدراً مع الوادي قرابة اثني عشر كيلاً كما قدمنا ، فاذا قضى لبانة من ودّان عاد جنوباً شرقياً الى هَرْشي بمسافة مثل السابقة ،

---

(١) انظر كتابي : « الرحلة النجدية » .

لذلك نشأت محطة المُقَيْتلة على نفس الطريق بين هرشي والسُّقْيا ، والقول هذا استنتاج مني،لأن وجود المقيتلةالتي سنتحدث عنها فيالرحلة الثالثة يوحي بذلك ، وآثار ودّان اليوم باهتة بالية في الجنوب الشرقي من مستورة بينها وبين هرشي على استقامة واحدة ، أي فيالشمال الغربي من هرشي ، وتبعد عن كل منهما بما يقرب من اثني عشر كيلاً ، وهي في نهاية حرة الأبواء ، في مكان يسمى (العُصْعُص) لأنه مستدق من خشم الحرة ، عندها يلتقي وادي حمامة الآتي من هرشي وما حولها بوادي أرثد الذي يسمى اليوم وادي مستورة فهي من أرثد ومنها الشاعر الفحل نُصَيْب بن رباح[1] الوَدّاني الذي يقول :

ألم تسأل الخيمات من بطن أرثد ... الى النخل من وَدّان ما فعلت نعمُ ؟
أسائل عنها كل حيٍّ لقيته ... ومالي بها من بعد مكثتنا علم

وقال

أقول لركب صادرين عشية ... قفا ذات أو شال ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان انني ... لمعروفه من آل ودّان طالب
فعاجوا وأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنيت عليك الحقائب

وهو القائل :

فان أك حالكاً فالمسك أحْوَى ... وما لسواد جسمي من دواء
ولي كرم عن الفحشاء ناءٍ ... كبعد الأرض من جو السماء
ومثلي في رجالكم قليل ... ومثلك ليس يعدم في النساء
فان ترضى فردّي قول راضٍ ... وان تأبي فنحن على السواء

---

(١) هو نصيب بن رباح ، شاعر فحل كان عبداً لرجل من كنانة من أهل ودان ، كان فصيحا مقدما في النسيب ، ويكره الهجاء ، وفد على عبد العزيز بن مروان بمصر ومدحه فاشتراه عبد العزيز فانتقل ولاؤه الى بني أمية ، له قصة مع الفرزدق وسليمان بن عبد الملك ، انظرها في « معجم الأدباء » و « الأغاني » .

اليوم الثالث للرحلة

نمت في العراء الخلاء في جو ظل يرسل بين حين وآخر هَتَّاناً من الرذاذ الذي لايكاد يسمع وقعه على شراع سيارة الجيب الا أنه تشبع بالرطوبة آخر الليل فتساعد مع برودة حديد السيارة على تحريك الروماتزم فأخذ يدب في عضلاتي كالنمل ، مما جعلني استيقظ قبل طلوع الفجر رغم شدة التعب ، وما أن انبلج ثغر المشرق عن ذلك الضياء الذي لايشعر بجماله الا من شاهده في البرية ، حتى أديت صلاة الفجر ثم اتخذت طريقي مشرقاً وكأني والشمس على موعد في (دفدف) ، وهذا طريق الأبواء ، وتعرف اليوم بالخُرَيبة ، و في الساعة السابعة كنت والشمس في بروث دفدف على ٢٥ كيلاً شرق مستورة ، ووضح النهار عن جو صحو ساكن الرياح ، مالبث أن صار دافيئاً حتى مللت المعطف الذي أرتدي ، ذلك انني دخلت الأرض الجبلية •

حيث تضيق الطرق على الرياح وتشل حركتها •

دَفْدَف

بروث وأكيمات صخرية فيها ضريح آمنة بنت وهب ، أم النبي ﷺ ، وقبرها هنا معروف مشهور يتوارثه الأحفاد عن الأجداد ، وكان قد هدم ، ويظهر أن بعضهم تطوع فبنى عليه حجيرة من الحجر الجاف — بلا مؤنة — ثم سقف ذلك بأعواد السمر والاذخر ، ثم تداعى جزءمنه فتهدم أو هدم •

وفي التأريخ ثابت أن آمنة ماتت بالأبواء منصرفها من زيارة قبر

عبد الله أبي النبي ﷺ ، ومن قال : انها مدفونة بمقبرة مكة فقد وهم [1] .

ويبعد قبرها ثلاثة أكيال عن الأبواء مما يلي مستورة ، وقيل لي : بل ان مزارع الأبواء تقرب من ذلك القبر من الجنوب انما كان يحجبها عني أحد تلك البروث ، وهذه البروث المعروفة بدفدف يشقها الطريق الى الأبواء ، والقبر على قاب حذفة من الطريق ، وتتصل هذه البروث شمالاً بجبل الطِّرَيْف (ثافل الأصغر قديما) وشعابها تسيل منه الى الخبت والأبواء .

الأبــواء

وعلى ٢٨ كيلاً من مستورة وصلت الى طرف الأبواء من الشمال، فتراءت لي مزروعاتها الى اليمين ، كانت غابات متصلة من النخل وأشجار الحمضيات ، لاترى بينها فاصلاً حتى ليظنها الرائي مزرعة واحدة ، تتشابك أشجارها في خضرة نضرة مبهجة ، تحف بوادي الأبواء من الجنوب حرة الخريبة التي تمتد غرباً حتى تكون نهايتها أثار ودّان ، كما تقدم ، وهذا الوادي الخصب كثير المياه يتكون من التقاء واديين فحلين : أحدهما وادي القاحة الذي يأتي من الشمال الشرقي بين جبال ضخمة ، هي جبال قدس يساره ، وجبال ثافل يمينه ، ولـذا كان سيله جارفاً هداراً . والثاني وادي الفرع ، وسيأتي الحديث عنه . ولذا كان وادي الأبواء مرجعاً ريان أبداً مهما كانت السنين محلاً ، والاسم يطلق عليه منذ اجتماع الواديين الى قرب وَدّان ، ثم يطلق عليه اسم أرثد الى البحر ،هذا قديماً أما اليوم فيطلق عليه اسم الخُرَيْبة ،فاذا وصل ودّان سمي وادي مستورة ، ومنه جزع ــ حيث يقطعه الطريق العام ــ يسمى وادي المدرج ، ثم بعده وادي النهدي الى البحر .

---

(١) انظر « معجم معالم الحجاز » .

وسكان الأبواء قبيلتا بني محمد ، وبني أيوب من بني عمرو من حرب ، الذين تبدأ ديارهم من قرب مستورة غرباً الى بئر مبيريك شرقاً •

وفي الأبواء مدرسة للبنين وأخرى للبنات ، ومستوصف صحي ، ومركز امارة تابع رابغ • ولها قرى يسمونها نُزَلاً : جمع نِزْلة • وهي متفرقة حول المزارع ، ومن عاداتهم أن تكون نزلة كل فخذ على حدة •

بئر مُبَيْرِيك

تركت الأبواء يميناً ماراً بمدرستها ، وأخذت طريقاً يجنب مع ضعاضع جبال وريعة ، تتخللها شعاب تأتي من جبل ثافل الأصغر من يساري ، وهو جبل شامخ كثير الأودية ، فيه نخل في فُرَع في رأسه ، وعلى (١٥) كيلاً من أول الأبواء وصلت الى بئر مُبَيْرِيك ، وهي بئر صغير في صدر الأبواء عندها يلتقي الواديان العظيمان : القاحة والفُرُع فوجدتها مقفرة ليس عليها نزل ، وكانت محطة لقوافل الحجاج ، وهي المرحلة السابعة من مكة عن طريق مستورة ، والسادسة عن طريق الجُحْفة ، ومنها تبدأ ديار العبدة من بني عمرو ، وهي الحد بينهم وبين بني محمد • وبئر مبيريك ملك الشيخ مُبَيْرِيك بن حمدي الغانمي والد الشيخين حسين واسماعيل ابني مبيريك ، وهو مؤسس امارة آل مبيريك ، ولم يكن لهم كبير أمر قبله ، وهذه البئر اشتراها من العُبَدَة سنة ١٢٦٣ للهجرة بموجب وثيقة لدى أبنائه وهي الحد الفاصل بين امارتي مكة والمدينة ، ومن بئر مبيريك كان يفترق طريق الحاج الى : طريق الفرع ، وطريق القاحة • وطريق القاحة هو الطريق السلطاني ، وهو درب الأنبياء ، فمن بئر مبيريك الى السقيا ثم الى الحفاة ، وكانت تعرف بالطلوب فالى العرج الخ •••

غير أنه عندما كثرت قبائل حرب وتباعدت في أنسابها وأمنت شر اعدائها عاد بعضها يطمع في بعض ، فكانت قوافل بني عمرو اذا مرّت بالقاحة طلبت منها عوف أتاوة ، فاذا وصلت المسيجيد طلبت منها بنو سالم أتاوة ،ولذا فقد شقوا طريقهم عبر وادي الفرع وهو لهم كله،ويسمى وادي بني عمرو كما يسمى وادي الصفراء : وادي بني سالم ، وهذه الطريق طويلة ، فمن بئر مبيريك الى بئر القاضي مرحلة ، ثم الى أم العيال أو أبي ضباع مرحلة ، ثم الى الشعبة مرحلة ، ثم الى اليتمة مرحلة طويلة ، والى بئر الماشي مرحلة ، ثم المدينة ، فهذه ست مراحل .

وكان طريقي الطريق اليسرى ، فأخذت وادي القاحة صعداً .

بين بئر مُبَيْريك والسُقْيا

وعلى بعد ثمانية أكيال من بئر مُبَيْريك جاءني من اليسار وادي نَعَا ــ بنون مفتوحة ، وعين ، مقصور ــ وفي مفيضة آثار محطة أو سكن قديم . وبعده بأربعة أكيال افترق الوادي الى شعبتين : وادي ثَقِب يميناً، ووداي القاحة يساراً، وثقيب : أحد روافد القاحة في أسفلها يأتي من جبال قدس فيدفع من اليسار ، وهو وادٍ كبير ، وهو الذي يقول فيه الأحوص :

عفا مثعر من أهله فثقيب فسفح اللوى من سائر فجريب

فسلكت ثقيباً ، لأن الطريق الى السقيا تسلكه ثم تعود يساراً الى القاحة ، وعلى كيلين وجدت بئراً على يسار الطريق يستقي منها الناس ، وبعدها بكيلين بئر عليها آلة ضخ زراعية صغيرة ، وزراعة قليلة لقوم من قبيلة العَبَدَة . وبعد (١٩) كيلاً من بئر مبيريك وصلت الى البستان: مزرعة في وادي ثقيب ماؤها عذب ، لها شهرة في هذه الديار ، كانت الساعة التاسعة والنصف ، ولم أفطر بعد ولم أشرب الشاي الذي تعودت

على شربه مبكراً ، توقفت أمام المزرعة فظهــر لي رجــل اسمه محسن الجَرّاري ، نسبة الى الجراجرة ، فخذ من العبدة أهــل هذه الديار ، فدعاني الى محله . فقلت : اذا سمحت أريد شاياً فقط ، لأن معي كل ما يحتاج المسافر اليه غير الشاي ، فقد نسيت أن هذه الديار ليس بها مقاهٍ ، فقال : حباً وكرامة . فنادى طفلاً صغيراً وأرسله الى البيت الذي نراه من هنا ، وحرّض عليه في السرعة .

أحضرت الفطور فرفض محسن أن يتناول الا الفاكهة ، لأنه كان قد أفطر . وبعد قليل جيء بالشاي، وكان مضيفي من عامة الناس الذين لاتجد عندهم مما تريد علماً ، ذلك أن أهل الرواية عندهم هم أهــل بيوتهم ومن تضمه مجالسهم من أهل الفهم وحسن الذاكرة .

السُّقْيَــا

خرجت من البستان فعدل الطريق شمالاً فخرج من وادي ثقيب يساراً ، فأخذ في ريعه فجزع شعب (يــاج) ، وبعد عشرة أكيــال من البستان هبط وادي القاحة من ضفته اليسرى عند عين تسمى الشُّبرة ، فيها زراعة قليلة ومساكن واهنة ، والعين ضعيفة الجريان ، أخذ الطريق الوادي قابلاً فكان السير فيه صعباً حيث كان معظمه سليلة تنغرز فيها العجلات ، وكان يظهر بين حين وآخر رصف قديم جرفت معظمه السيول هذا الرصف كان طريقا للسيارات أول عهدها ، فقد كانت تأخذ من هرشي على بئر مبيريك فالسقيا فالعرج فالمسيجيد ، الخ.. ثم عدل الى غَيْقة فالملف ــ ملف غيقــة ــ فالشُّفَيَّة ــ شُفَيَّة العرج ــ فالمسيجيد ، الخ .. ثم عدل أثناء تعبيده فأخذ من مستورة على البزواء فبدر فالحمراء فالمسيجيد الى المدينة .

وبعد سبعة أكيال فيه وجدت مزارع ليست ذات أهمية ، ثم الى اليسار وادي السنوية ، ويجمعونها السنيان بما حولها : شعاب تتأي من سلسلة ثافل فتصب في القاحة ، يقابلها من الشرق وادي تعهّن ، وينطقونه بتشديد الهاء ، وكل هذه الديار من خروجي من بئر مبيريك الى هنا لقبيلة العبدة ، وحدّهم فوق السقيا مما يلي المدينة • وبعد مسيرعشرين كيلاً من البستان صعدت ريعاً صغيراً فاذا أنا في السقيا ، كان يحجبها برث لاطىء هناك ، ويسمونها أم البرك : جمع بركة الماء • والمسافة بينها وبين بئر مبيريك ٣٩ كيلاً ، وكانت مرحلة للجمال على هذا الطريق ، والمرحلة التي تليها هي الحفاة ــ انظرها في الرحلة الثالثة في آخر الكتاب•

وأول مهبطي من الريع كانت مدرسة أم البرك،فهرعت اليها فاستقبلني مديرها الشاب الخلوق عوادة بن عائد العوفي هاشاً باشاً ، وطلب الشاي بسرعة ، وأجلسني في مكتبه ، وتحدثنا عن تعهن ولحي جمل والطلوب ، فارشدني شيخ حضر الى بعضها • والسقيا هــذه كانت تعرف بسقيا مُزَينة ، وهي المرحلة الثامنة من مكة عن طريق مستورة ، والسابعة لمن أتى على طريق هرْشي ، وكانت عامرة لوقوعها على الطريق السلطاني، ولما قل الأمن وكثرت قبائل حرب وأصبح لكل قبيلة عــدد وافر مــن الجمال وحصة كبيرة في نقل الحاج ، حاولت كل قبيلة أن تجر الطريق الى ديارها ، فصار درب الفرع الذي تحدثنا عنه ، ودرب غيقة ، ودرب بدر ، ثم ان الطريق السلطاني صار يتأثر بالأمن فحيناً يمر بالسقيا وحيناً يمر بغيقة ، وأخرى يمر ببدر • فتأثرت السقيا وتأخرت كثيراً ، وعندما ظهرت الآلة السيارة رؤى احياء هذا الطريق التأريخي ــ درب الأنبياء ــ فاخذته السيارات فانتعشت السقيا ودبّت فيها الحياة دبيب الرواة في الخميد ، غير أن هذا الأمل سرعان ماهمد ، فتحولت السيارة فهجرت

هذه البلدة التأريخية [1] ، وقد ظهرت لي اليوم شبه ميتة ، وبها مركز حكومي يتبع امارة الفرع ، وجهاز لاسلكي لاأعلم مدى الاستفادة منه، ولا غير ما ذكر .

تعهّن ولحي جَمَل

خرجت من عند الاستاذ عواده مدير مدرسة أم البرك شاكراً حسن ضيافته واستقباله ، ثم عدت على دربي الذيأتيت عليه ، وبعد كيلين فقط جاء من اليسار وادي تعهّن فقبله الطريق . وتعهّن : وادٍ يأتي القاحة من الشرق من جبل عوف (قدس) فيصب عند أم البرك (السقيا) مما يلي الثبرة . وبعد ثلاثة أكيال من اجتماعه بالقاحة وصلت الى بركة تعهن : بركة مهدمة في جانب الوادي الأيسر تمتد تحتها أرض كانت تسقيها عين ، فيها قعور النخل النخرة ترى ، ومجاري قنوات الماء معمولة بالحجر ، ومساكن مهدمة ، وضفائر على شكل زوابن للجبال لئلا تنقض على الأرض الزراعية . وبينما أنا سائر في تعهن ميمّماً مطلع الشمس رأيت أمامي جبل عوف شامخاً ، فتذكرت قول شاعرهم :

يا جبل عوف من دونك عسام ليت عيني تخيل اللّي وراك

وبنو صُبْح يقولون : ياجبل صُبْح ...

وبعد مسير ١٦ كيلاً من السقيا افترق الطريق الى شعبتين : يساراً على طول وادي تعهن ، وهو طريق يذهب في ديار عوف ، يطرقه سكان هذه النواحي .

ويميناً يأخذ تلعة تسمى أم هشيم ، وهذا يذهب الى الفرع وما

(١) عن تأريخ مثل هذه القرى والديار ، انظر كتابي « معجم معالم الحجاز » ففيه تفاصيل ليست واردة هنا .

حولها • سلكت طريق أم هشيم ، وكان رأسها ريع وعر ، ومن هنا ظهرت يساري سلسلة من الجبال الشامخة متقاطرة من الجنوب الى الشمال ، هذه سلسلة جبال قدس العالية، ويسمونها جبال (أُدْقس) وهي لغتهم في قدس، فهم يقولون: حصاة أُدْقس ، وبيت أدقس ، في حصاة القدس وبيت المقدس • وكانوا يقولون لنا في صغرنا : ان حصاة أدقس كان يمر من تحتها راكب المطية ، وهي معلّقة في الهواء بقدرة الله ، وانها تنزل بالتدريج ، فاذا مست الأرض قامت القيامة ! وظلت هذه الاسطورة عالقة بذهني لم أمحّصها أو أمررها على العقل ، فلما زرت القدس سنة ١٣٧٦ هـ ، وجدتني أسأل شيخاً كان يرشدنا ، عن شيء من هذا ! فاذا هو نفسه كان يسمع في صغره عن هذه الاسطورة •

وهذه الجبال تسمى اليوم جبال عوف لأنهم سكانها ، وعوف : بطن من مسروح من حرب •

ومن ريع أم هشيم هبطت وادياً يقال له (ما فِر) ، وهو أول ديار قبيلة البلادية من الشمال ثم تمتد جنوباً الى كُلَيَّة ، على قرابة مائتي كيل من هنا •

ومن مافر رأيت يساري جبل يقال له : عَمْليط : جبل مذورب الرأس يسيل منه مافر • هذا قاله صبي وجدته عند غنم •

وفي الساعة الواحدة توقفت في شعب من شعب مافر ، لصلاة الظهر والاستراحة • ولم أجد أرضاً يمكن أن يصلي فوقها الانسان ، فكل ما هنا حجر ، حتى الشجر نابت في الحجر ، وما حولك جبال صلاهيج لاتعيش فيها غير عنز وشقي وتذكرت قول محمد بن عروة بن الزبير :

لعن الله بطن لقفٍ مسيلا ومجاحاً ، وما أحب مجاحا
لقيت ناقتي به وبلقف بلداً مجدباً وأرضاً شحاحا

ولقف ومجاح من هذه الأرض ، وسيمران معنا اليوم • وقول محمد بجدب هذه الأرض قول صادق ، فانه ليست فيها أرض تنبت ما تأكله الأنعام ، فاذا أخارت وكثرت أمطارها كان جل نباتها البَرْوق والقرمل ، وهما من النباتات الخبيثة الى نفوس البهائم ، عـدا شجر السمر فانه ينبت هنا بكثرة وهـو صالح لتربية المعـزاء ، وفي شعوف الجبال ينبت القتاد أقل الأشجار البرية نفعاً •

وقد يستفاد من البَروْق فيضاف بزره الى تمر العجوة ، ويقال : انه يخفف من حرارتها في المعدة •

أناس طيبون

أهل هذه الديار طيبوا القلوب صادقوا العبـارة ، لا يكذبون السائل ، ولا يسخرون من الغريب ، مجبولون على ذلك ، يكلمونك بلا تصنع ولا تكلف ، ولقد تجولت كثيراً في بلاد العرب ، فيجزيرة العرب ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين وغيرها ، فكان كثير من الأهالي يبخلون بمعلوماتهم ، ويخفون اسمـاء بلادهم أو يغيرونها ، سخريـة واستخفافاً بالسائح ، الا أن أهل هذه الديار ليسوا في شيء من تلك الصفات ، ولقد وجدت لديهم التعاون والسخاء في اعطاء المعلومات مالم أجده عند غيرهم ، ففي الصباح مررت ببيت شعر لم أجد فيه غير امرأة فسألتها عن طريق بئر مبيريك ، فقالت تأخذ الوادي ، وبعد قليل تلقى بئر مبيريك ، ويفترق الوادي الى فرقتين : وادي الفـرع في اليمين ، ووادي القاحة في اليسار ، فاذا أخذت القاحة يأتيك ــ بعد قليل ــ من اليسار وادي نعا ثم بعد قليل تفترق القاحة الى شعبتين : ثقيب الى اليمين: وهو أصلح للطريق ، والقاحة الى اليسار ، وهي وعرة على السيارة •

وفي ثقيب ــ بعد قليل ــ البستان •••

لقد استرسلت هذه العربية وأضافت معلومات أخرى ، ولكني لم استطع موالمتها في الكتابة أكثر من هذا .

وبعد أن خرجت من البستان وجدت غلاماً وفتاة تماثله سناً ، فسألته عن أم البرك فوصف لي الأرض كأني أراها ، وسمى عشرات الروافد والجبال المحيطة بالقاحة ، واذا هما عبيديان من أهل هذه الأرض أما المرأة السابقة فهي أيثُوبية .

وفي وادي مافر وجدت غلاماً بلادياً يرعى غنماً ، فسألته ، فأخذ يشير الى كل مكان حوله ويسميه ، ويصف الطريق الى أم العيال .

وليس هذا كل ما صادفت ، ولكنها نماذج طيبة أحببت التنويه بفضلها ، فلهم جميعاً الشكر .

مَجَاح

وادٍ كبير من روافد الفرع ، له ذكر في هجرته ﷺ [1] ، وخلط المتقدمون في اسمه ، فقالوا : مجاح ، ومحاج ، ومجاج .

والصواب مجاح : بميم وجيم ، وحاء في آخره مهملة .

قال كثير :

اذا أمسيت بطن مجاح دوني وعَمْق دون عَزّةَ فالبقيع
فليس بلا ئمي أحد يصلي اذا أخذت مجاريها الدموع

وروينا لمحمد بن عروة ـ فيما تقدم ـ ذماً له وللقف .

تحركت من مقيلي في وادي مافر ثم سرت في شعبة منه أطلعتني على مجاح ، فجزعه الطريق قطعاً ، والى يسيني كانت العصوان : تلعتان

---

(١) انظر : طريق الهجرة في هذا الكتاب .

تجتمعان فتصبان في مجاح أسفل من طريقي ، وفيهمـا خلط المتقدمون أيضاً ، فقالوا : الغضوين ـ بالضاد المعجمة بعد الغين المعجمة أيضاً ـ وقالوا العصوين ـ مثنى عصا .

والصواب العصوين : بالمهملتين ، مثنى عصا ، وتسمى اليوم العصي، كجمع عصا ، وهي لغتهم اليوم في المثنى (١) .

ثم قبلت شعبة تأخذ شرقاً أطلعتني على وادٍ يقال له المرير ، يدفع في مجاح من اليسار أسفل من طريقي هـذه ، فأخذه الطريق قبلاً ، ثم عدل يميناً ، فطلعت على وادٍ صغير يسمى المليليح ثم الى وادٍ يقال له البحرة ، يصب في وادي الفرع ، وكل هذه الأودية من مافر الى البحرة من روافد وادي الفرع الشمالية .

أبو ضبـاع

من البحرة المتقدم ذكرها ظهرت لي نخيل وادي الفرع ، وفي الساعة الرابعة والنصف ، وعلى ٥٣ كيلاً من السقيا وصلت الى الملبنة ، وهي آبار زراعية للشيخ مريع شيخ جهم من بني عمرو ، وهذا هو أول الفرع لمن أتى على هذا الطريق .

تقدمت الى هذه الآبار فوجدت الشيخ مريعاً حاضراً في بستان له تختلط فيه أنواع الأشجار ، ومن مكاني هذا أرى أمامي : النخيـل ، والموز ، والليمون ، والعنب ، والمنقى محملة بالغـلّة ، فرحب ـ رحمه الله ـ (٢) وبعد جلسة قصيرة ، قال : ما هنا مقعد ، هيا للبيت .

ركبنا سيارتي ، وبعد ثلاثة أكيال سرناها قبلاً في وادي الفرع ،

---

(١) انظر : طريق الهجرة في هذا الكتاب .

(٢) توفي الشيخ مريع بحادث سيارة سنة ١٣٩٥ هـ في جدة .

وصلنا الى منزله في أبي ضباع ، وهي عين ثجاجة من أكبر عيون وادي الفرع ، وهي مقر العُبَدة التي منها الشيخ مريع ، كان ذلك في الخامسة والنصف .

من هم جهم ؟

أنا لا أعرف مريعاً وهو لا يعرفني ، بيد أني كنت أسمع به وبشيخة والده حسن بن مريع الذائع الصيت ، وهو حتماً يسمع عن والدي ، ولكن هذا ليس بيت القصيد ، فبيت القصيد هو ما يشاع عن قبيلة بني جهم من بني عمرو من حرب ، أن لها مذهباً غير مذهب أهل السنة ، وقد تعمدت الوصول الى هنا في هذا الظرف بالذات لعدة أسباب ، منها :

١ ــ أنني سأصلي مع القوم المغرب والعشاء صلاتين جهريتين ، احداهما ذات وقت محدد .

٢ ــ ان من المآخذ على هذه القبيلة : تأخير صلات المغرب كثيراً وعدم الافطار أول يوم من شوال ، وان لهم طريقة خاصة في الاستنجاء.

٣ ــ في هذا الوقت يجتمع القوم عادة عند شيخهم ، وفي هذا الاجتماع لا بد أن ينز ما يخفى اذا تعمدوا اخفاء ما يعتقدون .

وحضرت الصلاة فأذنوا وصلى بنا مريع فلم ألاحظ عليهم ماينكر، وكذلك صلاة العشاء ولكن العامة لديهم رسوخ لا يسكن مسحه من رؤوسهم ، فاذا رسخ شيء في أذهانهم وجدوا ألف حجة للتدليل عليه ، فعندما قلت لنفر من البلادية : **انني لم أر في القوم ما قلتم . قالوا :** (ما يورونك) أي لا يطلعونك على عقائدهم .

وجهم هذه قبيلة ذات وزن في حرب ، والعُبَدة هؤلاء فرع منها

وشيخهم يلقب بالعبيدي أو ابن مُرَيِّع [1] ، وكانت له صولة هنا ، قاوم جيش الأخوان أثناء غزوهم الفرع ، وكان يقال : ان لابن مريع قلعة بأبي ضباع ، وعندما كنت اتحدث الى مضيفي لاحظت على الجبل فوق البيوت رضمين ، فقلت له أين قلعة أبيك التي يذكرونها ؟ فقال : من قال لك هذا ؟ قالها بصلف أو خوف • ذلك أنه لايعرف من أنا ، ويظن أنني موفد من احدى الوزارات •

ومن جوابه هذا عرفت أنه لايريد الخوض فيما مضى ، الا أن هذين الرضمين هما ما كان يسمى قلعة ، فضعفت وضعف من تقلّع بها !•

وبينما أخذ أبناؤه يصبون القهوة كان قد ذبح ذبيحة ، وهي واجب الضيف عندهم • وبعد العشاء عرّفت مريّعاً على نفسي ، فقال : لو عرفناك من أول مرة ما كان هذا قدرك ! فقلت له : أتريد أن تذبح ناقة ؟ قال : وقليل ! رحم الله مُريِّعاً ، فقد كان شهماً جواداً ، وقد رأيت له أبناء شبان كالصقور ، يتحركون بلحظ العين ورفعت الحاجب ، وأرجو أن يكونوا خير خلف له •

وادي الفُرُع

وادٍ فحل من أكبر أودية الحجاز وأكثرها عيوناً وأطولها مدىً ، وأسيرها ذكراً في التأريخ • يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة بني عمرو وهي جزء من حرة الحجاز العظيمة المعروفة ، قديماً بحرة سُلَيم ، وتسمى في هذا المكان حرة بني عمرو ، ويسمى وادي الفرع أيضاً وادي بني عمرو ، لأنه كله لهم ، ويسمى وادي النخل ، لكثرة مابه من النخل، وكان اذا انتسب شخص الى بني عمرو من حرب قيل له : أين نخلك في

---

(١) انظر عن ذلك كتابي « نسب حرب » .

وادي الفرع ؟! فاذا لم يكن له نخل فهو ليس عمرياً البتة ! ولذا فان الكثيرين ممن رحلوا الى نجد وممن هاجروا الى المدن يتمسكون بما يسمونها الجديّات ، أي ذخر الأجداد ، فلما تكاثروا صار لبعضهم النخلة ، وشقص النخلة وأقل من ذلك .

ولوادي الفرع روافد أودية فحول ، مثل : مجاح ، ولقف ووادي الغَرَب ، ووادي مكة ، ووادي أطيب وغيرها كثير[1] .

وفي وادي الفرع أزيد من عشرين عيناً جارية ، منها : أبو ضباع عين قبيلة مضيفي ، كما تقدم الحديث عنها ، وأم العيال ، وستأتي معنا ، والمضيق ، والشعبة ، وعيون الريان ، وكلها ستذكر تباعاً ، لأن سير الرحلة مر بأكثرها .

ومن الجبال العظام التي تحيط بالفرع : جبل آره ، وجبال قُدْس وشُعَار ، وكلها سياتي ذكرها .

أم العِيَال

أقدم ماذكر الجغرافيون من عيون وادي الفرع ، وأغزرها ماء ، كانت صدقة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، ثم صارت ملكاً لقبيلة البلادية جمعاء ، فلا يكاد يوجد بلادي الا وله فيها لو فقير واحد ، وكان نخلنا فيها يسمى الحفيرة ، ثم بيع في صغري بعد وفاة الوالد ــ يرحمه الله ــ وكانت لهذه العين منزلة عند البلادية ، ولهم بها وله وحب عظيمين وينتدر الناس على البلادية ، فيقولون : ان البلادي كان يطلّق من أم العيال وصمدها ! .

وصمدها : حزم حائز وسط المزارع يسكنه أهلها وقت الصيف .

(١) انظر عنها « معجم معالم الحجاز » .

وبعد تناول طعام العشاء في دار الشيخ مريع بن حسن العبيدي وتبادل احاديث عديدة عن انساب حرب وفروعها ووقائعها ، استأذنت في المسرى ، فحاول ثنيي فشكرته وأصررت على ذلك . وفي الساعة الحادية عشر ليلاً ودعته ، فاخذت طريق وادي الفرع الذي يتجه شرقاً .

الخوف من المرس !

كنت أردت أن أعرج على عين أبي ضباع لأرى غزر مائها ، ولكني تذكرت قصة لطيفة تروى في هذه الديار ، ومن العادات المألوفة في وادي الصفراء والفرع وما جاورهما أن يحتجب النساء في النهار فاذا جن الليل هبطن الى العيون يغتسلن ويسبحن أو يغسلن الملابس ، ومن المتعارف عندهم ألا يعرج أحد على العيون بالليل .

وهذه القصة تقول : جاء رجل فضاف قوماً من جهم ، وسرى من عندهم ليلاً ، فأحس بالعطش فقصد احدى العيون ، فوجد النساء عليها بالحالة التي وصفنا ، فصحن به واستصرخن الرجال ، فوثبوا عليه فكتفوا يديه وربطوه بحبل من المرس وأخذوا يجرونه الى البيوت !.

وبعد أن أطلق قال :

سِلْف لجهم ما خبرته في الاسلاف[1] الضيف من بعد العشاء يادبونه
بعد التحية ثم زين التكلاف ولانّهم روس المرس ينعبونه[2]

فتركت أبا ضباع ومن قد يغتسل فيه ، ويمّمت أم العيال ، وبعد

---

(١) السلف ــ بكسر السين ــ العادة .

(٢) ينعبونه : يسحبونه بشدة . وهذا شاهد على كرم جهم .

سبعة أكيال سمعت نباح كلاب القرية ، فتوقفت وبت هناك الى الصباح، ذلك أنني حرصت على رؤية هذه العين نهاراً وباعث الحرص أنها أرض الأجداد ، فقد نزح جد جدي من هنا قبل ما يقرب من مائتي سنة ، أثر قتل عمه كريدم العرادي عامله على نخله وهو رجل من بشر من بني عمرو، وكان القاتل ليس أمامه الا الجلاء ، فجلا كريدم وهو يقول :

الله وأنا ولــد الزيــادي كريدم دار الجفا والبــوق ما ننثني لها
ياليت لواديا السبت معنا جنائب في كل يوم ليا شديت أدنى رحليها

والسبت نخل كريدم وقومه ، وهو معروف الى اليوم في أم العيال.

فغدا كريدم حتى نزل في بلي ، هو ومن تبعه من العرادات ، وهم عرادات بلي اليوم

هذه رواية الأجداد ، غير أن تحديد الــزمن لايتفق ومــا رواه الجزيري صاحب « درر الفوايد المنظمة»، فقد مر بديار بلي في القرن العاشر فعد العرادات من بطون بلي ، واذاً فهجرة جدنا كانت سابقة لهذه المدة بكثير ، أو أنها بعد هجرة كريدم وليست بسبب قتل كريدم البشري ، وعلى هذا لايكون كريدم عم حمود الجالي من أم العيــال كما هــو المحفوظ لدى العرادات . وعلى العموم قــد لاتهم الكثيرين هــذه المعلومات ، انما هي ذكريات يشطح اليها القلم .

★ ★ ★

اليوم الرابع للرحلة
(١ صفر سنة ١٣٩٣ هـ)

كانت العلامة المميزة لقرى الحجاز أن يستقيظ الناس صباحاً على أصوات السواني تجر الغروب على المحال ، وهي أصوات موسيقية جميلة ، أما اليوم فانك تستيقظ على آلات الاحتراق ذات الضخ المتدفق ، وهي نعم البديل للزرّاع ، أريح عملاً وأغزر ماء ، وأكثر انتاجاً .

استقيظت في الخامسة والنصف على صوت آلة زراعية ليست بعيدة من مبيتي ، ثم شغلت محرك السيارة للتحمية ، فقد كان الطقس بارداً ليلة البارحة ، والرياح تَوَجُّ طول الليل ، والمنطقة مرتفعة هنا .

وبعد أن انبلج نور الصباح رأيت نخل أم العيال على مقربة مني ، يشرف عليها من الشرق جبل آرة ، أشمخ ما في المنطقة من الجبال ، وهو جبل أحمر عال يرى من الساحل اذا كان الجو صحواً ، وقد رأيته من رابغ ، على مسافة تقدر بمائة كيل .

ويسمى اليوم هضبة أم العيال ، لأنها تقع في سفحه الغربي ، حتى أنه يؤخر شروق الشمس عليها لمدة من الزمن .

تحركت من مبيتي في الساعة السادسة وعشرين دقيقة ، فشق الطريق أم العيال ، شقاً على حزم عال وسط المزارع ، عليه سكن أهل العين ، وهذا هو الصمد المعروف بصمد أم العيال ، والذي قيل ان البلادية كانوا يشركونه مع أم العيال في الطلاق .

كانت من أمنياتي في الصغر أن أرى أم العيال ، وهاهي أمامي نخلاً وأرضاً بما لها من ذكريات في النفس .

لم أشأ زيارة أميرها ابن قويفان البلادي ، لأن ذلك سيكلفني وقتاً ثميناً ، اذ لايجوز ــ في عرفهم ــ أن يدعوا الضيف يمر مرور الكرام •

بل لابد من ذبح وايقاد ونفخ ينتهي بعد الظهر على أحسن تقدير ، لذا تجاوزته لا اسقاطاً له ولكن اكتساباً للوقت •

والقرية عامرة ، وبيوتها من اللَّبْن ، ورأيت أحدها مكون من طابقين ، وفيها بعض البناء الجاري بالطوب الاسمنتي ، ولم أر منذ غادرت مستورة قرية فيها بناء جار غيرها •

وعند شريعة أم العيال توقفت وملأت جالوناً كان معي ، وماؤها عذب صاف غزير ، حتى قيل : انها سميت أم العيال لأنها كانت تجرف الصبيان الذين يستحمون فيها ، ولكن التسمية قديمة أقدم من استيطان حرب لهذه الديار •

وفيها من الغروس : النخل ، والليمون ، والعنب •

اليسير وجبال قدس

واصلت سيري مشرقاً ، وكان الوادي أجرد يابساً أرضه جرعاء لاتحيد فيها السيارة عن الطريق المسلوكة ، وبعد سبعة أكيال وصلت الى عين تدعى اليسير ، ماؤها جار وعليها نخل ، وهي بين جبلين : جبل آرة جنوباً ، وجبال المعرض شمالاً ، وجبال المعرض هذه هي : نهاية سلسلة جبال قدس التي تبدأ من هذا المكان في الارتفاع الى أن تكون قمتها شرق القاحة على (٢٠٤٩ متراً) عن البحر ، ثم تبدأ في الانخفاظ التدريجي الى أن تتلاشى عند مفرّحات ، وطولها قرابة (١٥٠) كيلاً ، وتعرف اليوم بجبال عوف ، وقمتها جبل يسمى خَشَبة •

وبعد اليسير وجدت عينا صغيرة عليها نخل •

وعلى ١٢ كيلاً من أم العيال وصلت الى المضيق (مضيق الفرع) عين كبيرة ثجاجة ، مزارعها على جانبي الوادي ، وبهـا جميع أنواع الأشجار المثمرة التي تنبت في الحجاز، مثل: الليمون والعنب وغير ذلك، وسكانها كثير ، كانت قاعدة الفرع ، ثم نقلت الامارة الى الفقير لقربه من المدينة واتساعه ، ذلك أن المضيق بين جبلي آرة ، والمعرض فموقعها ضيق. يصب عليها من الشمال وادي الغرب ، يسيل من جبال المعرض.

مكّـة في الفُرْع

سرت في الوادي ، ولا زال السير مطلع الشمس مع تعرجـات في الوادي ، وعلى أربعة أكيال من المضيق ، جاءني من اليمين وادي مكة ، يلب آرة من مطلع الشمس ، وفيه عين المحضة ، يكون آرة بينها وبين أم العيال ، هذي شرقه ، وتلك غربه .

والمحضة : نبع من الجبل وليست كالعيون ذوات الفقر والأفلاج.

ثم سرت أربعة أكيال فجاءني من اليمين ـ أيضاً ـ وادي مُلَيح ، يأتي من جهة شُعَار .

وبعد كيلين اثنين جاءني من اليسار وادي أطيب : من أكبر روافد وادي الفرع ، ذلك أن معظم مياهه من جبال قدس العالية ، وبقدر علو الجبل يعظم سيله .

ثم بعد كيلين جاءني من اليسار وادي العطشان : وادٍ كبير تسيل فيه أودية يسمونها المناشير ، واحدهـا : منشار ، وقيل لي : إنـه أكبر روافد الفرع اطلاقاً ، وعند مفيضة صار نبات الوادي من المرخ الكثيف.

الشّعبـة

وبعد ٢٨ كيلاً من أم العيال وصلت الى الشعبة : عين صغيرة لبني

جابر من بني عمرو ، فيها نخل ، وماؤهـا قليل ، وهـذه كانت احدى المحطات على طريق الفرع ، بين بئر مبيريك والمدينة ، الا أنها لم تكن رئيسية ولم تتطور كقرية كبيرة ، ذلك أن عيوناً كثيرة منتشرة في الوادي على مقربة منها كالفقير وغيرهـا مـن عيون الريـان ، فكان الجمّالة يتجاوزها بعضهم ليحط الفقير أو غيره مـن العيون الأخرى ، تفادياً للازحـام •

الفقير

وبعد الشعبة بكيلين وصلت الى الفقير ، وهي اليوم قاعدة الفرع كله ، وكانت الساعة الثامنة والربع • تقع عين الفقير في متسع من الوادي يأتي بعد مضيقه الذي يبدأ من أم العيال الى الشعبة ، وهي عين ليست كبيرة وماؤها هذه السنة قليل نظراً للجدب الذي يعاني منه الحجاز ، وتحيط بها الجبال الحمر غير عظيمة الارتفاع ، وجبالها طينية هشة فعلت فيها الرياح خطوطاً أفقية متوازية،حتى ليخيل الى الرائي أنه سيأتي يوم تكون هذه الجبال قد نسفتها الرياح ، وليس هذا ممكنا ذلك أن هذا الفعل هو حصيلة أعمال هذه الرياح منذ أن خلق الله الأرض • وكانت الامارة في المضيق ، ولكن نقلت الى هنا نظراً لاتساع الأرض وطيب هوائها لارتفاعها عن المضيق ، ولقربها ـ نسبياً ـ من المدينة ، وامارتها تابعة لامارة المدينة المنورة • وجدت شاباً يدهدي برميلاً بطرف النخل فسألته عن موقع الامارة ، فأشار اليها •

وعندما دخلتها كان الأمير غائباً ، ووجدت شاباً حسن البشر كثير الترحيب يدعى عبد الرحمن بن نامي بن عتيق الجهني ، وهو وكيل الأمير فشربت عنده القهوة والشاي ، وعندما استأذنت أصر اصرار الكرام على أن أتغدى عنده ، حتى أنه لزم يدي ، فرجوته بحرارة أن يقدر قيمـة الوقت ، فما كاد يعذرني •

ومن الدوائر الحكومية في الفقير : محمكة شرعية ، ومستوصف ، ومدرسة ابتدائية ، وموعودة بانشاء متوسطة ، وتبعد عن المدينة المنورة (١٣٧) كيلاً جنوباً على طريق ترابية شاقة ، ولو سفلتت لما ازدت عن (١١٠) أكيال .

وتعاني المزروعات هنا شدة من قل الماء ، فالوادي لم يسل من ثلاث سنوات ، ومنذ أن تجاوزت خليصاً الى مكاني هـذا والديار في سنة سنهاء لاترى فيها الخضرة الا مايزرع بالري ، فالأرض غبراء والأشجار ذاوية ، والعيون انخفض ماؤها حتى توقف بعضها أو كاد .

والوادي من الفقير الى الشرق يسمى الريّان ،: وبه عيون عديدة لم أصل الى أكثرها ، وكان ريان مرجعاً أبد الدهر تتبعّج مياهه من جنبات الوادي بلا مؤنة ، حتى سلط الله عليه المحل فغارت عيونه حتى قيل : إن بعضها لايسير ماؤها أكثر من عشرين خطوة عن الشريعة .

والوادي كما تقدم كله لبني عمرو ، غير أن معظم أهل الريان نزحوا الى نجد ، فهم حول الرس الى الحناكية أهل قرى وبوادٍ كثيرة ، تسير السيارة أياماً في ديارهم .

وكان الوادي لمزينة ، فلما جاءت بنو حرب في أول القرن الثاني الهجري من اليمن ، نزلت بين المدينة ومكة ، فاستولت على ديار كنانة وخزاعة في هذه الجهات ، ثم زحفت على مُزَيْنة فاخذت منها هـذا الوادي ، وعادت مُزَيْنة فحالفت بني حرب في بني سالم ، ثم ظلت حول المدينةحتى ثارت الحرب بين حرب وعَنَزَة فأجليت عنزة عن المدينة والقصيم وتلك الديار فانساحت مزينة مع من انساح من حرب الى نجد [1] .

(١) انظر عن مثل هذه الاخبار كتابي « نسب حرب » .

وفي الساعة التاسعة والربع ودعت الأخ عبد الرحمن ، هذا الشاب الكريم الذي وقف حتى غابت عنه السيارة وهو يلوح بيده ، فله مني التحية ، والدعاء بالتوفيق •

الخَويْ وشدخ

اتجه الطريق من الفقير شمالاً ، فرأيت يميني عيناً فيها نخل وزراعة تدعى الخوّي ، وبعد قليل الى اليمين أيضاً عينين صغيرتين هما شِدَخ وكِميتان •

فهبط الطريق في غابة من المرخ ودوح السمر ، فخرج من وادي الريان ، وبعد ستة أكيال من الفقير اعترضني رأس وادي العطشان المتقدم ذكره ، فقبله الطريق صعداً ، وفي صدره زراعة على آبار ، قليلة غير نضرة ، وسايرني وادي العطشان ، حتى تعلّق بالشفية •

الشُّفَيَّة

وعلى (٢٣) كيلاً من الفَقِير شمالاً صعدت عقبة الشفية ، وهي عقبة نكداء كؤد ، وهي نهاية مساقط مياه ، بين وادي الفرع ، والنقيع (رأس عقيق المدينة) ، فما سال منها جنوباً ذهب الى وادي الفرع ، ثم الى البحر ماراً بالأبواء فمستورة ، وما سال منها شمالاً ذهب الى وادي النقيع الذي هو صدر وادي عقيق المدينة ، ثم الى المدينة فالى البحر مروراً بالوجه البلدة الساحلية •

وجبال الشُّفَيَّة : جبال سمر غير عالية الارتفاع ، تمتد من الغرب الى الشرق مقاطعة الطريق ، يسيل منها جنوباً وادي العَطْشان وروافد أخرى في الفرع ، وشمالاً السيح ، وهو فرعة وادي النقيع • وهي فاصل بين الغور والجلس ، الفرع غور ، والنقيع جلس ، وهي موصل

بين سلسلة جبال قدس غرباً ، وحرة الحجاز العظيمة شرقاً ، تراها من هنا كحد السيف منقادة جنوباً وشمالاً •

وصف الأرض من الشُفَيَّة

كان الجو حسناً صافياً ، فلا رياح شديدة غير غرياف منعش ببراد ربعي ، ولا عسام ولا سحب في السماء ، وكل ذلك يجعل البصر يأخذ مداه من هذه المرتفعات المشرفة على كثير من معالم المنطقة ، والنظر قد يصل الى مسافة خمسين كيلاً دائرياً مالم تحده الجبال العالية •

في أقصى الجنوب يظهر جبل آرة على بعد ٥٣ كيلاً ذو رؤوس شخانيب ممتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، حيث تقع (خَلْص) ذات المياه والزراعة ، وهي بلدة لها ذكر في كتب الجغرافية ، وتتصل بآرة من الشرق جبال أقل منه ارتفاعاً ، هذه الجبال يمر من شرقها وجنوبها وادي الأكحيل (رأس وادي رابغ) المعروف قديماً بمر عُنَيْب •

ودون آرة بطن من الأرض منخفض يتصل شرقاً بالقَرى تتخلله بعض الجبال الصغيرة ، هذا هو حوض وادي الفرع بعد (٢٣) كيلاً من هنا •

وفي الشرق من آرة ترى جبلاً بارزاً ذا قمة شقراء ، ذاك هو جبل شُعَار •

وترى فجوة تنداح عنها الجبال كالحوض ليست بعيدة من شعار ، هذه تسمى الفَيْفاء : قاع واسع على ظهر الحرة لبني عمرو فيه مزارع عثرية •

أما في الشمال ففضاء أفيح واسع من الشمال الشرقي الى الشمال الغربي ، وتظهر وراءه الى الشرق جبال ضعاضع تتصل بالقَرَى شرقاً ،

تبعد من هنا قرابة أربعين كيلاً خرصاً . هـذا السهل أو الفضـاء هو السَّيْح ، أول مساقط مياه عقيق المدينة .

والى الشرق لايكاد يحد النظر ، وتوجد زُمَل هنا وهناك تبرز على ظهر القَرَى الذي يرى كحد السيف ، منخفضاً تاركاً الأفق فراغاً لانهاية لـه .

أما في اتجاه الغرب فترى (خَشَبَة) : جبل أخشب ، لاتكاد ترى لشماله وجنوبه نهاية ، يتصل جنوبـاً بسلسلة جبـال المعرض ، وترى (الطويلة) ــ احدى قمم المعرض ــ بارزة كرأس الانسان ، ويمتـد شمالاً فينحرف غرباً الى قرب ورقان ، وهو أبرز ارتفاع في هذه المنطقة بعد جبل آرة ، ومنه تسيل معظم روافد النقيع الغربية ، مثل : صخوى ، والنبعة ، وضاف ، والحنو ، وريم ، وهذه السلسلة التي قمتها خشبة هي جبال قُدْس المتقدم ذكرها ، وما اتصل بها ، وخشبة هذا هو ما يسميه الأقدمون قدساً الأبيض ، وجبـال المعرض هي ما كان يسمونه قدساً الأسـود .

ومنها الى الغرب تسيل كل روافد وادي القاحة الشرقية ، ووادي الجي في وادي الصفراء ، فهذه الجبال ــ قدس ــ اذا مطرت سالت منها أودية ضخام ، فهي تسيّل : وادي الفرع ، والقاحة ، ووادي الصفراء ، ووادي ملل ــ شمالاً ــ ووادي النقيع في عقيق المدينة .

هذا الوصف الذي قدمته لك آنفاً ، هو وصف طبوغرافي ، يصلح للعسكريين ، غير أنه لايخلو من متعة لأي قارىء ، بقي شيء لم أقله ، وهو : ان المسالك في هذه الديار الوعرة قليلة ، فلا تصـل طرق ذات أهمية الى الفرع الا من ثلاث جهات :

١ ــ من أسفل الوادي طريقان يجتمعان في أبي ضباع فيكونـان طريقاً واحداً .

أحدهما : يأتي من هَرْشي مستورة الى بئر مُبَيريك فبئر القاضي فأبي ضباع ، والثاني : ماتقدم في رحلتنا هذه من أم البرك .

٢ ـ طريق تأتي من جهة المهد ـ معدن بني سُلَيم قديماً ـ وأبلى والرحضية،فتنحدر على رأس وادي الفُرُع،من المكان المسمى بالفرْع.

٣ ـ طريق الشفية الذي أكتب الآن وأنا أقف عليه ، وهو منفذ هذه الامارة الى المدينة .

غير هذا هناك طرق قديمة لم تطرقها السيارة بعد على حد علمي :

أحدها ـ طريق العُويْدي : وهذا الطريق يأخذ بين مكة والمدينة على ظهر القَرَى ، وهو متروك من زمن ، وسمعت بعد رحلتي هذه بزمن أن طريقاً معبداً سيشق على هذا الطريق العُويْدي ، وهو أقصر مسافة بين مكة والمدينة ، واعتقد أنه لايزيد على ٣٥٠ كيلاً .

وكلمة عويدي عندهم معناها : القديم المألوف .

وثانيها ـ درب الزائر : وهو درب كان تأخذه الرجالة من زوار المدينة ، وهذا يأخذ على صدور الأودية بين مكة والمدينة ، حيث تتقارب المسافة بين مناهل المياه ، ذلك أن الأودية كلما أصعدت في السراة اقتربت من بعضها ، وكثرت فيها المياه السائحة والعيون مما يجعل الزائر يجد حاجته منها بلا مؤنة ، بخلاف تهامة التي هي على العكس من ذلك .

أمضيت في رأس الشفية ساعة ، من العاشرة والربع حتى الحادية عشر والربع .

ومنها تحركت باتجاه الشمال ، فكان أول سهل هبطته مباشرة هو (السَّيْح) .

بَرَام وعَبّود

سرت في هذا السهل الواسع ــ الذي ينحدر سيله الى يسيني ــ ١٣ كيلاً ، فمررت بضُلَيْعين أحمرين مذروبين منعزلين عما حولهما في وسط السهل بارزين كالخيمتين،هذان هما جبلا بَرَام وعَبّود،وعَبّود هذا غير عَبّود ملل ، ولا يكادان يذكران الا مقرونين ــ برام وعبّود ــ وهما أشهر جبال الجلس على صغرهما ، ولبرام هــذا ذكر غير خامل في شعر العرب ، وهذا المُحرِّق المُزَني يقول :

واني لأهوى ، من هوى بعض أهله   بَرامــاً ، وأجزاعــاً بهنّ بــرام

ومن أبيات ذكرت في « معجم معالم الحجاز » ، يقول أبو براء :

وفي أســرى هــــوازن أدركتهم   فــوارس طَيِّءٍ بلــوى بــرام

ومن قصيدة لأبي قُطَيفة أوردتهــا كذلــك في « معجم معــالم الحجاز » ، يقول :

ليت شعــري ، وأيــن مني ليت .   أعلــى العهــد يلبــن فبــرام
أم كعهــدي العقيــق أم غيرتــه   بعــدي الحــادثات والأيــــام

وكان الجبلان من ديار مزينة وتحلها بنو سُلَيم ، وربما تداولتها القبيلتان ، ذلك أنهما من الحدود بين القبيلتين ، فلماء جاءت حرب أجلت كلاً منهما عن هذه الديار ، وهي اليوم ديار بني جابر من جرب ٠

ثم أخذ السيح يسيل يميناً تاركاً الطريق يساره ، وأخذت الجبال الشوامخ الغربية تبتعد الى الشمــال الغربي ، وفي الشرق ــ بعيداً ــ السلسلة التي ذكرتها في وصف الشفية أخذت تمتد شمــالاً ، وكانت زُمَلاً متفرقة ، فأضحت الآن أكثر بروزاً وتماسكاً وتسيل منهــا الى الغرب في وادي النقيع على التوالي أودية : العَرَار ، ووادي التغامل ، وبَجْرة ، ورواوة ، وهو آخرها مما يلي المدينة ٠

ثم جاءني من الغرب وادي صخوى ، من سلسلة قدس ، وكان نباته الطلح الكبار ، مما يدل على ارتفاع الأرض ورواثها ، فقطعه الطريق الى سلسلة حمر صغار تعترض الطريق •

ثم قطعت أودية : النبعة ، وضاف ، وأشعب كثيرة تسيل مقاطعة للطريـق •

اليَتَمة

وعلى (٥٣) كيلاً مـن الفقير وصلت الى اليتمة : وادٍ زراعي واسع ، يأتي من الغرب من سلسلة قدس (جبال عوف اليوم) ، قطعته من رأسه ، وقبله كانت قد انتهت ديار بني عمرو التي بدأت معنا من مر الظهران ، وبدأت ديار عوف التي تمتد من القاحة في الغرب فعلى قدس فوسط النقيع الى النُّخَيل قرب الحناكية ، ويبعد النُّخَيل (١١٥) كيلاً شرق المدينة •

وكانت اليتمة تسمى (الأتَمَة) ويقال : أتَمَة ابن الزُّبير، وكانت ربما دخلت في حمى النقيع ، وهي تصب في النقيع في وسطه ، ومن هنا ترى بياض أرض النقيع الواسعة •

وفي اليتمة قرية صغيرة بها عمران جار ، وبهـا مدرسة ابتدائية ، ومحطة محروقات ، وبهـا بساتين جميلة مسيّجة بالأثـل تمتد بعيداً من الطريـق •

وتبعد عن المدينة (٨٥) كيلاً وكانت المرحلة الثانية على طريق الجمال •

وسكانها اليوم قبيلة السهلية من عوف من مسروح من حرب ، وحركة العمران فيها تدل على رغبة القوم في التحضر وامتلاك الأرض •

بين الأتَمَة وبئر الماشي

زودت سيارتي بالوقود من محطة الأتمة ، ولم أبحث عن طعام أو غيره ، غير أن شيخاً كان أمام حانوت لعله صاحبه ، زودني بمعلومات قيمة عن المنطقة ، وعن الأحوال الزراعية والمواشي ، ثم وصف لي الطريق الى المدينة وصف الخبير •

وعلى (٣٠) كيلاً من الأتمة هبطت وادي الحنو ، وكنت مررت قبله بأحد روافده يقال له : (عشر) : وادٍ صغير يصب في الحنو ، فيه بئر سقي •

وفي الحنو حفائر أرى نثيلها من على الدرب ، وفيه دوح من الطلح متشابك •

ثم قطعت وادي رئمَ ، ينحدر سيله يميناً الى النقيع ، ثم وادياً يقال له : (الصَّهْوة) على (٥٦) كيلاً ، من الأتمة ، وواديه سيح واسع يسمى (السيح أيضاً) تنكفيء سيوله شرقاً الى اليمين في وادي النقيع ، والصهوة اسم لثنية تهبط الى ذلك السيح ، فيقال:وادي السيح وقد يقال : وادي الصهوة •

وظهر النقيع الى اليمين موازياً للخط كنهي عظيم ، تبتعد عنه الجبال شرقاً وغرباً •

بئر الماشي

وقد يقال : بئار الماشي ، وعلى مائة كيل من وادي الفرع ، وصلت الى بئر الماشي ، وتبعد شمال المدينة (٣٨) كيلاً •

كانت المرحلة الأولى من المدينة لمن سار على طريق الفُرع ، وهو طريق يفترق عن الطريق السلطاني من ذي الحليفة آخذاً يساراً ، ومنها يفترق الطريق الى شعبتين : طريق الفرع ، يستمر مشملاً ، وهو هذا

الذي أتيت عليه ، ودرب الغائر ، يأخذ يميناً على وادي ريم ثم ثنية الغائر فالحفاة فأم البرك •

وتقع بئر الماشي على ضفة وادي العقيق الغربية ، تشرف عليها من الشمال الشرقي حمراء، ووادي العقيق بينهما ، وهو يسمى هنا عقيق الحسا، وكان يدعى حضيراً ، وترى الى الأمام يساراً حمراء الأسد يقابلها من الشمال جبل عير ، وعقيق الحسا بينهما ، يلاصق حمراء الأسد من الغرب (الأسمر) : جبل من نوع الحرة (حلاءة) ، ذو ظهر مستطيل ممتد من الشرق الى الغرب •

ويقابل حمراء الأسد من الشرق بقرب (حُمر المراقيب) : ثلاث حمر متجاورات كأثافي القدر ، أحدهـا صغيرة جداً ، والثانية أكبر منها، والثالثة أكبر من الجميع ، والطرق بينها وبين حمراء الأسد ، ووادي الحسا يمر بلصقهن من مطلع الشمس •

وفي بئر الماشي قصر قديم مجصص يسكنه أناس من أهل القرية ، ومركز امارة تابع للمدينة ، ومسجد مبني بالطوب ، ويشرف عليها من الشرق حمر في رأس احداها زرائب ، كانت متاريس لحماية البلدة ، وفيها زراعة حسنة •

واعتقد أنها مكان يسمى (قلهى) وكذا وقع مني في « معجم معالم الحجاز » ، ولست على يقين من ذلك •

وادي العَقِيق

وادٍ فحل من كبار أودية الجلس ، يسمى أعلاه النقيع ، ووسطه الحسا ، واذا وصل الى ذي الحليفة سمي عقيق المدينة •

يأخذ أعلى مساقط مياهه مـن حرة بني عمرو ، وجبـال قدس ،

ويتقاسم الماء هناك مع وادي الفرع ، ثم ينحدر شمالاً مع ميل تدريجي الى الغرب ، ويبلغ طوله قرابة (١٥٠) كيلاً .

وهو أحد أودية المدينة الآتي ذكرها ، وأحد روافد إضم الكبار ، وجزعه المسمى عقيق الحسا ، هو المحصور بين بئر الماشي وذي الحُلَيفة، وكان يسمى حَضِيراً ، والنعنع الحساوي بالمدينة منسوب اليه .

وقد تقدم معنا في رحلتنا بين وادي الفرع وبئر الماشي الحديث عن معظم روافد هذا الوادي الضخم ، فأغنى عن الاعادة .

سرت – بعد بئر الماشي – في عقيق الحسا ، فحدره الطريق الى ذي الحُلَيفة على تسعة أكيال من المدينة ، وترى البساتين متناثرة فيه ، فاذا تجاوزت حمراء الأسد رأيت على يمينك قرية العلاوة ، ثم قرية الوُسَطة تجاور ذا الحليفة ، من الجنوب ، وهي قرية عامرة بيوتها كثيرة ، والقريتان لقبيلة عوف التي بدأت ديارها قبل الأتمة .

حمراء الأسد

وتبعد حمراء الأسد المشهورة بغزوتها التي غزاها رسول الله ﷺ في السنة الثالثة للهجرة تبعد عن المدينة جنوباً بعشرين كيلاً ، تراها وأنت تخرج من ذي الحليفة على طريق مكة المعبدة ، يسارك بعيدة ، بينك وبينها حمراء منعزلة في فسيح من الأرض ، تلك هي حمراء نمل ، أما حمراء الأسد فيميزها حلاءة سوداء تتلبطها من الغرب .

فاذا تجاوزت حمراء الأسد رأيت غرباً وعلى مايزيد عن سبعين كيلاً شعوف جبل الأجرد ، والأشعر جنوبه عليها العسام ، ولا يراها الا حديد النظر مع الصحو .

ثم ترى أمامك عن قرب جبل عَيْر : جبل أسود بحمرةٍ مستطيل من الشرق الى الغرب ، يشرف على ذي الحليفة من الشرق ، وتراه من

المدينة جنوباً ، في رأسه أثـار سراديب وقطع أوان ، ويصعد فيـه طريق متعرج (محالة) تراه من ذي الحليفة واضحاً .

ويقول الأهالي : ان هذا هو طريق تموين القوات التركية التي ترابط في رأس الجبل . ولعل ذلك أيام الثورة العربية الكبرى ، حيث ركز فخري باشا قواته حول المدينة .

ذو الحلَيفة

ويسمى اليوم بئار علي ، نسبة الى علي بن أبي طـالب ، كرم الله وجهه : بلدة عامرة على تسعة أكيال من المدينة يفترق فيها الطريق مـن المدينة الى : مكة ، يأخذ على البيداء ثم ذات الجيش فتربان ، فيستمر .

وطريق الفرع ، وقد تقدم وصفه .

تمتد على ضفتي عقيق المدينة ، فيها مدرستان : ابتدائية، ومتوسطة ومعهد معلمين ، ومسجد كبير يحرم منه الناس ، يتوارث الناس هنا أنه مسجد الشجرة الذي كان يهلُ منه ، ﷺ ، وفيها محطة كهرباء المدينة، وبطرفها الجنوبي حدود حرم المدينة ، يشرف عليها من الشمال جبـل (الغُرَابة) والجَمَّاوات ، ويتصل بها من الجنوب الغربي فضاء جلد كان يسمى البيداء ، يسير فيها الطريق الى مكة ، وبها مقاهٍ ومحطات لبيع المحروقات ، ومن عادة المسافرين أن يتزودوا من النعنع الحساوي من هنا ، وقد ارتفعت قيمته في الآونة الأخيرة .

ومن الثابت المتوارث عند المسلمين ان ذا الحُلَيفة هو ميقات أهل المدينة ، ومن مر بها من غير أهلها حاجاً أو معتمراً .

وصف الأرض من ذي الحلَيفة

ترى في الشمال منائر مسجد رسول الله ، ﷺ ، دونه — ظاهرة —

جماء تضارع يليك منها (الغـُر َابة) أحد رؤوسها ، والى الشمال الغربي ترى سهلاً أفيح كان يعرف بفَيْفاء الخَبَار ، ويسمى اليوم الدُّعَيثة، تظهر من ورائه جَمَّاء أم خالد : سمراء بارزة .

وفي الغرب : ترى جبلي صهلوج : جبلين أسودين لاينبت فوقهما شيء ، بينهما جبل أسمر يسمى جبل (عَظَم) .

واذا نظرت جنوباً رأيت جبالاً متراكمة بعيدة ، هذه جبال قدس عندما تستدق فتضعف ، دون ذلك حمراء نمل في فسيح من الأرض يصب فيه سيل الشَّلَبِيَّة (ذات الجيش قديماً) .

وغير بعيدة عنها الى الجنوب حمراء الأسد ، وتقدم وصفها .

أما في الشرق فيحجب النظر عنك على صوت المنادي أو أفرز جبل عَيْر ، المتقدم وصفه ، تتصل به شمالاً وشرقاً حرار ، منها حرة قُبَاء ، ويمكنك رؤية منارة مسجد قباء شرقاً شمالياً .

بلد الحبيب ﷺ

وفي الساعة السادسة مساء دخلت طيبة : الطيبة من باب العنبرية : أحد أبواب المدينة القديمة ، والتي لم يتغير من اسمائها شيء الى اليوم، وفوراً توجهت الى مكان غرب المناخة للسؤال عن الأهل والأحباب ، وسألت عن بيت صهري الشيخ محمد بن ابراهيم الحازمي ، قاضي محكمة نجران فيما بعد، فدللت عليه بيسر، واستقبلتني الأسرة بالترحاب، واسترحت بعد هذا السفر خلال مسالك وعرة وطرق لا يرى فيها الا سفلت .

الحديث عن المدينة

ماذا أقول عن المدينة ؟ هذه المدينة التي يملأ تأريخها عشرات المجلدات ، وهل يمكن أن أقدمها في صفحات داخل هذه الرحلة .

ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله .

موقع المدينـــة

تقع المدينة شمال مكة على (٤٦٠) كيلاً ، تربطهما طريق ظلت منذ عرفتا قائمة ، سماها الأقدمون درب الأنبياء ، ثم سميت الدرب السلطاني، ودرب الحج [١] ، ثم عبدت الآن فصارت تسلكها السيارات خـلال ساعات ، وكانت احدى عشرة مرحلة للجمال ، أي مسيرة أحد عشر يوماً بلياليها • وتقع بالنسبة لخطوط الطول على خط الطول ٣٦/٣٩° وخط العرض ٢٨/٢٤° ، وترتفع عن سطح البحر (٦٢٥) متراً وتربطها ببلاد الشام سكة حديد الحجاز المعطلة ، انظرها فيما بعد[١] •

وهي في فسيح من الأرض الخصبة التي تكتنفها الحرار ، وأخصب أراضي الحجاز ما كان تسيل فيه مياه الحرار ذات الطمي الهش ، ولهـا حرتان تسمى لابتي المدينة ، واللابة : الحرة السوداء ، الحرة الشرقية ، وتسمى حرة واقم وهي تطيف بها من الشمال ، والحرة الغربية ، وتسمى حرة الوبرة وهي تطيف بها من الجنوب ، وكان يشرف عليها من الغرب جبل سلع ، وقد أصبح الآن في وسطها تكتنفها ثلاثة أودية فحول، هي :

١ ــ وادي عَقِيق المدينة : وادٍ فحل يأتيها من الجنوب ثم يدفع أسفلها ، وقد سد عند بئر عروة ، بطرف المدينة من الجنوب ، وقد تقدم الحديث عنه •

٢ ــ وادي بُطحان: وادٍ هو أصغر أوديتها،غير أن شأنه بها عظيم، ذلك أنه يشق المدينة مع الوسط ويمر قبلة مسجد رسول الله ، ﷺ ، وقبلة مسجد الغمامة ، ثم يجتمع بالعقيق أسفل المدينة ، ويسمى اليوم (أبو جيِدة) يأتي من الحرة الشرقية ، وعلى صدره مزارع ونخيل العوالي ، ثم يمر بقرية قربان قبل أن يدخل المدينة •

---

(١) انظر ملحقاً آخر الكتاب عن الطرق الرئيسية في الحجاز .

٣ ــ وادي قناة : يعرف اليوم باسم وادي العاقول : وهو أعظم أودية المدينة وأطولها مدى ، وكان اذا سال قطع الوارد من قبل نجد مدة تزيد عن الشهر ، ولما عبد الطريق الى القصيم جعل فوقه جسر فخفف خطره ، ذكره الشريف عُلَيّ العلوي فقال : وادٍ جلواخ يحتلب نجداً • وهذا أصدق وأبلغ وصف له ، فهو يسيل من عالية نجد ، ويستسيل مساحة تقدر بمائة وخمسين كيلاً من الشمال الى الجنوب ، و ٢٥٠ كيلاً من الشرق الى الغرب ، وله روافد أهمها :

أ ــ وادي الشعبة : وادٍ يسيل من شرف نجد من جهات ضَرِيّة وما حولها ثم يمر شمال المهد (معدن بني سليم سابقاً) ثم تأتيه من الجنوب مياه جبال أبلى العالية ، ومن الغرب مياه الحرة ، ثم يسمى العقيق الشرقي تمييزاً له عن عقيق المدينة ، ثم يدفع في قاع واسع يسمى قاع حضوضي ، وهنا تأتيه الأودية الشمالية •

ب ــ وادي نَخْل : وادٍ كبير يسيل من الجهات الشرقية الجنوبية لحرة النار ، ويأخذ مياه ماشرق الحناكية كجبال رحرحان وما اليها ، ثم يندفع مغرباً بعد أن يمر بالحناكية ، ويسمى وادي الحناكية ، فتأتيه من الشمال أودية منها الشُّقْرة ونُجَار •

جـ ــ وادي الشُّقْرة : وادٍ أصغر من سابقه يسيل من جنوب حرة النار فيعانق وادي نخل فتجتمع في مكان يسمى المخالط ، أي : مخالط المياه •

د ــ وادي نُجَار : بالتخفيف : وهو وادي الصويدرة ، يقع شرق المدينة على ٦٠ كيلاً ، يأخذ من جنوب حرة النار فيدفع في المخالط •

ثم تذهب مياه المخالط الى حضوضي مجتمعة مع مياه العقيق الشرقي ، فيسمى الوادي الخَنَق وكان يعرف بالشظاة ، حتى يصل الى الحِبْس ، وهو سد العاقول اليوم ، فيسمى وادي العاقول ، فيمر بين

حرة المدينة جنوباً وجبال وعَيرة وأُحُد شمالاً ، ماراً بجبل عينين ومشهد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

فاذا اجتمعت الأودية الثلاثة : العقيق وبطحان ، وقناة ، سمي الوادي الخُلَيل ، فيسير حتى يأتيه من الجنوب وادي ملل على ٢٤ كيلاً غرب المدينة ، فيسمى وادي الحمض ، وهو ما كان يسمى بإضم ، وهذا الوادي ترفده أودية عظيمة تأتيه من اليمين والشمال الى أن يصب في البحر قرب الوجه جنوبه .

ومن كبار الأودية التي ترفد وادي الحمض :

١ ــ وادي ألتمة : يصب فيه من اليمين يأخذه طريق الشام الى الصُلْصُلة .

٢ ــ وادي الطِّبْق : يأخذ كل أودية خيبر ثم يدفع فيه من اليمين عند هدية احدى محطات سكة الحديد [١] .

٣ ــ وادي الجزل : من الأودية الفحول له شعبتان : احداهما وادي القرى ورأسه الحجر ، والثانية ــ الفرعة ، وهذان الواديان يتقاسمان المياه مع أودية تبوك[١] في شمال الحجاز .

وغير ذلك روافد كبار تركناها للاختصار [٢] .

أما ما يأتيه من اليسار فأهمها : وادي ملل ، ووادي بُوَاط ، ووادي العِيص ، وغيرها .

ونظراً لاكتناف الأودية المدينة غزر ماؤها وحسن زرعها وضرب

(١) انظر كتابي « رحلات في بلاد العرب » في شمال الحجاز والأردن .

(٢) لم نترك منها شيئا الا وضحناه في « معجم معالم الحجاز » الا مالم يصل الى علمنا ، وفوق كل ذي علم عليم .

بجودة رطبها المثل ، وله أنـواع كثيرة • واذا ذهبت في المدينـة الى مكان بيع الخضار والفواكه حمدت الله على ماترى وما تجد من رخص ورخاء ، فلا تكاد تبحث عن نوع من الفاكهة الا وجدته أو نوع مـن الخضار الا وجدته أيضاً •

وكان وادي قناة قليل الزراعة حتى سُدَّ الوادي بسد العـاقول على (١٦) كيلاً من المدينة فأرجع الوادي وكثرت أباره واخضر ونضر ، وتحسنت العيون أسفل من السد وكان بعضها قد نضب مـاؤه ، وأثر ذلك السد في الانتاج الزراعي أيما تأثير •

تطور المدينة

كان عهدي بالمدينة سنة ١٣٨٥هـ ، أي قبل مايقرب من ثمان سنوات، فوجدتها قد تقدمت عما أخبره كثيراً وتغيرت عليّ بعض معالمها ، فتوسعة الحرم النبوي التي كانت جارية آنذاك انتهت ، وأصبح في رونق بديع واتساع عظيم ، تحيط به ساحات واسعة وتصله بالأحياء شوارع فسيحة، وأنير أنارة ممتازة جعلت ليله كنهاره ، ومنظره من الداخل بهيجاً ، وقد جعلت له عشرة أبواب •

ولكن ليس يعني هذا أن مدينة الرسول ﷺ وعاصمة الاسلام الأولى ومنطلق جيوش الفتوح قد حصلت على حظها كاملاً ، فهي ــ والحق يقال يرضي أولا يرضي ــ لم تنل ما نالته مدن كانت تابعة لها ، وأقل منها قدسية وأهون حقاً ، غير أن نصيباً من غمطها يتحمله أبناؤها ، هؤلاء الأبناء الذين ــ كاخوتهم أبناء مكة ــ فزعوا الى أرض الثروة وموطن الشهرة ، حتى تجرأ زنادقتهم فسموها مقبرة الأحياء !•

أولئك الأبناء هاجروا عرازيل وفرادى الى حيث تنمو التجـارة سريعة ، ويرخص ثمن الجاه ، ويسهل طريق البروز •

أبواب الحرم النبوي

قلنا : ان للحرم اليوم عشرة أبواب ، ثم أخذنا الاسترسال عن ذكرها ، وهي أبواب بعضها من التوسعة السعودية وبعضها مما هو سابق ، وهذا تعدادها :

١ ــ من الناحية الشرقية ، وعلى الترتيب من الجنوب الى الشمال:

باب جبريل ، باب النساء ، باب عبد العزيز ، الجميع ثلاثة أبواب .

٢ ــ من الناحية الشمالية ، وعلى الترتيب من الشرق الى الغرب :

باب عثمان رضي الله عنه ، باب عبد المجيد ، باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الجميع ثلاثة أبواب .

٣ ــ من الناحية الغربية ، وعلى الترتيب من الشمال الى الجنوب :

باب سعود ، باب الرحمة ، باب الصديق ، رضي الله عنه ، باب السلام ، الجميع أربعة أبواب .

ولعلك لاحظت هنا غياب علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، فما هو السر يا ترى ؟

ألأن الشيعة خصوه بما لم يرض هو به ، وجاء العثمانيون فعادوا الشيعة فتحاشوا تبجيل عليّ لئلا يتهموا بالتشيع ؟ قد يكون هذا ، وقد يكون مالا أعلم !.

مساجد المدينة

كانت المدينة أول بلد استطاع أن يمارس المسلمون فيه دينهم بحرية مطلقة ، وفيها ثاني مسجد صلى فيه المسلمون ، ولما هاجر اليها رسول الله ﷺ ، أسس أول مسجد أُسِّس على التقوى في حي بني عمرو بن عوف من الأنصار وهو المشهور بمسجد قُبَاء ، ثم بنى مسجده الشريف

في مربد لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو من بني مالك بن النَّجَّار من الخزرج ، وكان بنو النجار أخواله ﷺ .

ولذا فان طيبة تحتضن أجل الآثار الاسلامية وأقدمها بعد أثار مكة، وخاصة المساجد منها ، وهذا بيان بأقدم المساجد المنسوبة الى فجر الاسلام في المدينة المنورة :

١ ـ مسجد الاجابة : يقع في الشمال مع ميل الى الشرق من المسجد النبوي ، ويقول الاستاذ عبد القدوس الأنصاري : يقع في ضاحية المدينة الشرقية ، شمالي البقيع ، وبناؤه على طراز عثماني (بالحجر والجير) ، وطوله (١٠) أمتار ، في عرض (٨) أمتار . وان هذا المسجد كان يعرف بمسجد بني معاوية بطن من الأوس .

وان رسول الله ﷺ ، صلى فيه ودعا ربه ، وطلب منه ثلاثاً ، فأجاب دعوتين هما :

عدم اهلاك أمته بالغرق ، ولا بالسنة ، ومنعه الثالثة ، وهي : أن يجعل بأسهم بينهم[1] .

٢ ـ مسجد بلال بن رباح: مسجد خرب يقع في السيح، في الجنوب الغربي من المدينة ، وجاء في كتاب الدرة الثمينة في تأريخ المدينة ، الملحق بشفاء الغرام : مسجد بلال بن أبي رباح . وأرى (أبي) مقحمة ، وان المسجد منسوب الى بلال بن رباح صاحب رسول الله ﷺ ، ولم أدخل هذا المسجد انما رأيناه من الظاهر .

٣ ـ مسجد الجمعة : يقع هذا المسجد يسار الخارج من المسجد

---

(١) « آثار المدينة المنورة » ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

النبوي الى قباء على الطريق المعبدة اليوم ، وهي غير الطريق القديمة ، وهو وسط وادي رانو ناء .

وفي آثار المدينة ما يفهم منه : أنه (٨×٥٠ر٤) من الأمتار ، وارتفاعه ٥٠ر٥ من المتر [١] ـ بالاتفاق ـ هو المسجد الذي صلى رسول الله ﷺ ، فيه الجمعة التي أدركته وهو سائر من قباء الى المدينة ، فصلاها في بني سالم ، والاجماع على أنها أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ .

ويقول الاستاذ عبد القدوس الأنصاري: كان يعرف بثلاثة أسماء : مسجد الجمعة ، ومسجد الوادي ، ومسجد عاتكة ، وقيل له اسم رابع هو : مسجد الغُبَيْب [١] .

٤ ـ مسجد ذُبَاب : ويعرف اليوم بمسجد الراية : يقع على تل صغير بجوار سلع من الشمال ، هذا التل كان يعرف بجبل ذباب ، وقيل ان الرسول ﷺ ، ضرب عليه قبة تركية يوم الخندق .

وهذا أمر يوجب الاستفسار ، اذا المكان بعيد من موقع المعركة .

٥ ـ المساجد السبعة : مجموعة محاريب متقاربة تقع بسفح جبل سلع الغربي الى الجنوب ، وسألت بعض أهل العلم عنها فلم يعرفوا سبب التسمية ، وسألت الاستاذ عبد القدوس الأنصاري عنها فنفى علمه بها ، ثم رأيت لها اشارة في كتابه « آثار المدينة المنورة » [٢] .

وأشير الى احداها ونشرت له صورة في كتاب « الدرة الثمينة » الملحق بـ « شفاء الغرام » [٣] .

---

(١) آثار المدينة المنورة ص ١٢٨ .

(٢) نفس المصدر مخطط بعد ص ٢٧٢ .

(٣) « شفاء الغرام » ص ٤٢٧ .

ويقول البعض : ان هذه المساجد كانت محاريب مشهد أهل المدينة ، فكلما صلى إمام عَلِمٌ محرابه ، وان الخلفاء ومن جاء بعدهم في عصرهم كان لكل منهم محراب خاص . وقد رأيت زوارها يأخذونها بالتتابع واحداً بعد الآخر ولكل منها اسم .

٦ ـ مسجد السبق : ويقع قرب ثنية الوداع ، شمال المستشفى بقرب الباب الشامي ، وقد رمم وأصلح ، ويقال : إن الرسول كان يجلس هناك للمتسابقين على الخيل ، فاتخذ مسجداً .

٧ ـ مسجد الغمامة : من أشهر مساجد المدينة بعد المسجد النبوي ، يقع في وسط المدينة ، يواجه الداخل من مكة بعد باب العنبرية ، وهو غرب مسجد الرسول ، ﷺ ، ومنه تسمع آذان المسجد النبوي .

وهو مسجد جميل سقفه مجموعة قباب متشابكة ، وبناؤه بالحجر الأسود مكحل بالبياض ، ومنظره أجمل المساجد ، وكان مصلى رسول الله ﷺ ، في العيد ، فسمّي مسجد المصلى ، وقد أطال الأنصاري في وصفه وأجاد ، انظره هناك [١] .

٨ ـ مسجد الفتح : يقع في الجنوب الغربي من جبل سلع ، كان معروفاً في عهد رسول الله ﷺ [٢] .

٩ ـ مسجد قباء : أول مسجد أسس على التقوى ، وأول مسجد بني في المدينة المنورة ، بناه رسول الله ﷺ ، حال وصوله الى المدينة المنورة ، ويبعد قرابة (٤) أكيال جنوب المسجد النبوي .

---

(١) « آثار المدينة » ص ١٢٢ .

(٢) انظر « أثار المدينة » ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وقد جدد تجديدات كثيرة ووسع ، وهو اليوم في شكل جميل بديع من الداخل والخارج .

١٠ ــ مسجد القبلتين : من المساجد المشهورة في المدينة ، وهو من مساجد رسول الله ، ﷺ ، وفيه أُمر بالتحويل من الصلاة الى بيت المقدس الشريف الى جهة الكعبة المعظمة ، ولذا سمي بمسجد القبلتين .

ويروى : أن النبي . ﷺ كان يصلي الى المقدس حين نزل الوحي باستقبال الكعبة ، فتحول أثناء الصلاة فتحول المسلمون معه ، ولا أعلم كيف صيغة ذلك .

هذه بعض مساجد المدينة وهناك عشرات المساجد منها المسجد النبوي الأعظم ومساجد تنسب الى الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ، وهناك ما يعرف بالمساجد السبعة،كما قدمناها، ومسجد عروة بن الزبير، ومسجد المستراح ، وغيرها وغيرها ، وقد أتى الاستاذ عبد القدوس الأنصاري على عدد منها وأجاد في تحديدها ووصفها [1] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨١ وما بعدها .

سكان المدينة وحالتهم الاجتماعية

سكان المدينة اليوم من أجناس شتى ، تجمعهم الملة المحمدية السمحة ، والنسبة الغالبة الأرومة العربية ، ذلك أنه على مر الزمن كان يجاور بها من يجاور من المسلمين غير العرب ثم يتركون ذريات فتكون بيوتاً يعرفون بها ، مثلهم في ذلك مثل أهل مكة ، واللطيف في الأمر أن بعض هؤلاء الأعجام ينحدرون من أصول عربية كانت هاجرت أثناء الفتوح أو عندما كانت دولة الاسلام واحدة ، ثم عادوا الى بلادهم بلاد العرب وقد تعجّموا ، ثم تعربوا في هذه الأرض المقدسة •

ومن العرب السكان قبيلة حرب التي تحيط بالمدينة من جهاتها الأربع ، ثم أخذت تنصهر بواسطة التوطن في البلد ، وتزيد نسبتهم في المدينة على (٥٠٪) وتعتبر المدينة قاعدتهم الرئيسية ، فاذا قيل : حربي، فأول ما يتبادر الى الذهن أنه من المدينة أو ضواحيها •

وهذه القبيلة هاجرت جماعياً بعد الحرب العالمية الثانية وأثناءها فاستوطنت المدينة ومكة وغيرها من المدن ، وفي المدينة أحياء من جهينة وبني رشيد وغيرها ، وفيها بيوت عريقة عراقة المدينة من بقايا الأنصار وقريش وغيرهما، وكانت العرب على مر الزمن تتحضر فرادى،فاذا تحضر أحدهم ـ وهو لايتحضر الا لسبب كالفقر أو الدم ـ انقطع عن قبيلته ونسب الى الصنعة التي يمتهنها ، وبمرور الزمن ينسى أحفاده نسبهم فيظن البعض أنهم من غير العرب •

أبواب المدينــة

في زمن تقدم كان لكل مدينة سور يحيط بها ، فاذا جن الليل أغلق على هذه المدينة فلا يدخله الا من يؤمن جانبه ، ولم تشذ المدينة عن هذه القاعدة فقد كان لها سور ، تشير المصادر التي بين أيدينا الى أنه أسس سنة ٢٣٦ هـ بناه محمد الجعدي ، ثم توالت تجديداته ، وله من الأبواب المشهــورة :

١ ــ الباب الشامي : ومنه يخرج الى الشام ، وموقعه شرق جبــل سلع عن قرب ، ولا زال معروفاً بهــذا الاسم ، وهو مــن أشهر أبواب المدينــة •

٢ ــ باب العنبرية : وهو الباب الذي يخرج منه الى مكة المكرمة، ولما جاءت سكة حديد الحجاز جعلت لها محطة تسمى محطة باب العنبرية بهذا الباب ، ومسجد بنفس الاسم ، ولا أعلم سبباً لهذه التسمية ، غير أن لبنائه لوناً مميزاً هو أنه من مربعات مختلفة اللون وغالبهــا السواد الذي هو حجر الحرة ، والبياض الذي هو الجص •

وهناك نوع من القماش ذو مربعات صغيرة تشبه هذا البناء يسمى (العنبرية) ولا شك عندي أن أحدهما سمي بالآخر ، لتطابــق اللــون والشكل الهندسي ، ولكن أيهما أقدم ؟ • هذا مالا أعلمه •

٣ ــ باب العوالي ، وهو الباب الذي يسلك الى نخيل العوالي ، شرق المدينة •

٤ ــ باب قباء : وهو باب يخرج شمالاً الى قباء •

٥ ــ باب الكومة : يقع شمال جبل سلع ، وغرب شارع العينية ، كانت عليه قلعة تعرف بقلعة باب الكومة ، كانت للجيش ثم هدمت •

٦ ــ باب المجيدي : وهو يلي الباب الشامي من الشرق •

وزاد الأنصاري [١] :

١ ــ الباب المصري : وهو ــ في اعتقادي بــاب العنبرية ، لأن معظم المنشآت المنسوبة الى الحكومة المصرية تقع هناك •

٢ ــ باب بصرى أو بصري : بالقصر أو بالياء :

٣ ــ باب الجمعــة •

٤ ــ باب الحمام •

٥ ــ الباب الجديد •

٦ ــ الباب الصغير •

ولم يذكر الأنصاري كل مــن : باب العوالي ، وباب العنبريــة ، وباب الكومة •

ولعل هذه الأبواب الأخيرة كانت تحمل اسماء مزدوجة ، كما أن الأنصاري لم يحدد مواقع الأبواب لنستدل على هذا الازدواج ، وهو ولا شك أعرف مني بالمدينة وأبوابها •

وقد هدم السور اليوم ولم يبق له أثر •

احيــاء المدينة

للمدينة أحياء عديدة ، منها :

١ ــ حي باب العوالي : ويقع على نفس الباب المتقدم •

---

(١) « آثار المدينة » ص ١٧٣ .

٢ ــ حي سلع : ويقع على جنبات جبل سلع ، غرب المسجدالنبوي الشريف •

٣ ــ حي باب الكومة : وهو قسم من المناخة الشمالية •

٤ ــ حي مغيسلة : ويقع الى الغرب من مسجد الغمامة •

٥ ــ حي الشهداء من باب الشامي الى مشهد سيّد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه •

٦ ــ حي المناخة : وينقسم الى قسمين : مناخة الحطب ، من مسجد الغمامة الى جهة القبلة ، ومناخة الديرة ، وهي الشق الشمالي بالنسبة الى شارع العينية •

٧ ــ حي العنبرية : حول باب العنبرية •

٨ ــ حي باب قباء : في الجهة الشمالية من المدينة ، كان فيه باب قباء المتقدم •

٩ ــ حي الباب الشامي : ومنه يمر الطريق الى الشام •

١٠ ــ حي باب المجيدي ، بين الباب الشامي وحرة واقم •

وهناك أحياء أخرى عديدة ، بالرغم من أن المدينة لم تتسع كاتساع بقية مدن الحجاز •

الحالة الزراعية في المدينة

نظراً لوقوع المدينة في متسع تحف به الحرار والجبال ، وتصب فيه أودية فحول ، فقد كانت من زمن موغل في القدم واحة زراعية ذات انتاج غزير ، وبتمرها يضرب المثل ، وقيل : ان فيها سبعين نوعاً منه ، وفي صدر الاسلام نشطت عملية استحداث العيون فكثرت عيونها

وتقدمت زراعتها ، وكان أكثرها عيوناً المكان المسمى بالعيون الواقع غرب مشهد حمزة ، ثم مر زمن ليس فيه تجديد أو زيادة ، وظل الأحفاد يتوارثون ما أخر الأجداد ، بل ربما تناول التخريب بعضها ، وبمرور الزمن ضعفت العيون وانقطع بعضها ، ثم جاء عهد الآلة فاستخدمت آلات الضخ ، وساعد على ذلك قيام سد العاقول حيث انتشرت البساتين على الآبار بين السد والشهداء في خضرة ونضارة توحي بالرواء ووفرة المياه .

غير أن زراعة المدينة أمامها مراحل حتى تبلغ ما يرضي ، وسألت بعض المزارعين عن دور مندوبية الزراعة هنا والبنك فذكر لي انهما مشجعان ولكن دون المطلوب ، وما يطلبه الناس كثير ورضاهم غاية لا تدرك غير أن المشاهد ينبىء عن طلب المزيد .



اليوم الخامس للرحلـة

٢ صفر ١٣٩٣ هـ

كنت قد وصلت البارحة الى المدينة كما تقدم ، فبحثت عن منزل القاضي الشيخ أبي عبد الحميد محمد بن ابراهيم بن سلامة الحازمي ، فعثرت عليه بسهولة ، فأديت صلاة المغرب فيه ، وبعد قليل حضر الشيخ الذي أدى الصلاة في المسجد النبوي ، فرحب بي أجمل ترحيب ، الشيخ محمد والد زوجتي التي لم أدخل بها أنذاك .

ودارت الأحاديث حول الأهل والأصدقاء بمكة ، وعمل الشيخ هنا، وعلمت منه أنه سينقل الى جهة لا يعلمها بعد ، وقد عين فيما بعد قاضياً لمحكمة نجران المستعجلة ، وهو الآن فيها أثناء تبييض هـذه الرحلـة سنة ١٣٩٨ هـ .

استيقظنا صباحاً فأدّينا صلاة الصبح في المسجد النبـوي ، على ساكنه أفضل الصلاة والتسليم ، ثم عدنا الى المنزل حيث ذهبت بالسيارة الى مصينة هناك فتم تغسيلها وتشحيمها ، ومررت بشارع العينية والمناخة، لقضاء بعض الأغراض والاطلاع على نشاط البلد .

وعلى الغداء دعا الشيخ محمد نفراً من الجيران ، فيهم الشيخ صالح القين من أهل المدينة والساكن بنفس الحوش، وأحضر معه كُتَيِّباً أخذ يقرأ فيه آداب الولد لوالديه ، والمسافر ، وطرق التعزية وغيرها .

الغـابة

وبعد صلاة العصر أخذنا عموم العائلة للنزهة،فسرنا من باب الكومة ـ حيث يسكن الشيخ ـ فسرنا في الشارع العام ومررنا بمسجد السبق

ثم ثنية الوداع ، وبعد كيلين من ثنية الوداع دخلنا أول الغابة ، وتسمى اليوم : العيون ، لكثرة العيون فيها ، فظهر الطريق مغبراً طينياً ، وأخذ النقع يدخل إلينا من كل جانب مما اضطرنا إلى العودة .

سد العاقول

ومن الباب الشامي اتجهنا شمالاً على تعقب الحرة الشرقية عندما تعرض من شمال المدينة ، ثم عبرنا فوق جسر على وادي قناة الذي يسمى اليوم وادي العاقول ، وفيه الحدائق النضرة المسيجة بالأثل ذوات المزروعات المتنوعة ، وفيها من غروس النخل ما يدل على أن هذه المزارع ليست قديمة ، ذلك أن كثيراً من المزارع هنا استحدثت بعد سد الوادي الآتي الحديث عنه .

وبعد تجاوز الجسر عدل الطريق الى الشرق فسار بين جبل أحد يساراً ووادي قناة يميناً ، وبعد أحد عشر كيلاً افترق طريق القصيم عن طريق الشام وتبوك ، فسار طريق القصيم شرقاً ، وطريق تبوك شمالاً ، فسلكنا طريق القصيم ،فبرزت أمامنا لوحة كتب عليها : الصويدرة (٥٣) كم وعلى (١٤) كيلاً من الباب الشامي فرق طريق سد العاقول يميناً ، وعلى كيلين اثنين من هذا المفرق أي على (١٦) كيلاً من الباب الشامي وصلنا الى سد العاقول ، فإذا هو مقام في مضيق من الوادي بين جامين جنوبية وشمالية ، يمتد ماؤها شرقاً قرابة (١٣٠٠) متراً ، بعرض كيل تقريباً ، مكوناً بحيرة من الماء الأبيض ، لأن السيل قد جاء هنا قبل شهر ، وهذه البحيرة هي سر حياة بساتين وادي العاقول .

جلسنا على ضفة تلك البحيرة الشمالية نحتسي الشاي بينما أخذ الأولاد يقفزون حول الماء هنا وهناك ، وكان المنظر جميلاً رائعاً ، غير أن الطقس كان بارداً ، فالمدينة منطقة مرتفعة ولذا يكون فصل الربيع فيها بارداً .

أدينا صلاة المغرب جماعة على طرف الماء ثم تحركنا عائدين الى المدينـــة .

الرشوة وبــاء قديم

تمكنت بعد العشاء من القراءة في كتاب (أخبار القضاة) لمؤلفــه محمد بن خلف بن موسى بن حيّان ، والذي يحتفظ به الشيخ في مكتبه، فقرأت فيه : حدثني أحمد بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفــرات الكاتب ، قال : حدثني أبو زيد ان عبد الملك بن مروان كتب اليــه في قاضٍ ارتشى ، فكتب اليه عبد الملك :

اذا رشــوة حلت ببيت تــولّجت لتدخل فيــه والأمــانةُ فيه
سعت هرباً منهــا وولّت كأنهــا تولّي حليم عن جــواب سفيــه

قول فيه عظة وعبرة وتذكرة ، فهل من مدكر ؟

وما بال قوم لايتورعون عن أكل الرشوة ؟ بل لايخجلون من طلبها والحديث عنها ، وكأنها حق لهم فيما يؤدونه للناس من خدمة هي واجبهم ومن أجلها تولوا هذه الأعمال ، وكم أضاعوا بالرشوة حقاً ، وأثبتوا بها باطلاً ، وكم أعطوا بها ظالماً ، وسدوا الطريق في وجــه مظلوم يجــأر بالشكوى ، وكم أحلوا بها حراماً وحرموا حلالاً ، يأكلونه سحتاً يدخل البيوت العامرة فيدمرها ، وبيوت الغناة فيفقرهــا ، وقد عم بلاؤهــا واستشرى خطرها حتى ألفها الناس فما عادوا يرونها رذيلة ، ولا يرون التعامل بها مخجلاً .

وقد روي عنه ﷺ : « لعن الله الراشي والمرتشي والساعي بينهما» .

اليوم السادس للرحلة

الخميس ٣ صفر

رحلة الى الجفر

الجفر وادٍ يمر غرب المدينة على ثلاثة وستين كيلاً عن طريق مفرّحات (ذات الجيش قديماً) خصب التربة كثير المياه والمزارع ، فيه أزيد من ثلاثين بئراً زراعية ، تسيل معظم روافده من جبل الفقارة ، فيتجه شمالاً شرقياً حتى يجتمع بوادي ملل ثم يدفعان معاً في إضم غرب المدينة بعد وادي مخيط من الغرب .

وفي صباح هذا اليوم الخميس تجهزت للقيام برحلة الى هناك ، وكان الطريق على ذي الحليفة جنوباً غربياً .

ذات الجيش

وبعد (٢٤) كيلاً صعدت ريعة ذات الجيش وتسمى اليوم مُفَرِّحات ، وهي ريعة تسيل منها تلعة كبيرة تسمى الشلبية ، وهي التي كانت تعرف بذات الجيش الى مطلع الشمس فتصب في العقيق عند قرية الوسطة على يسار طريقنا هذه .

ومن هذه الريعة يسيل وادي تُربان الى الجنوب الغربي فيجتمع بملل .

وفي مفرحات مقاه ونزل قليل. توقّفت عنه احدى المقاهي فوجدت صاحب المقهى رجلاً من قبيلة الرحلة سكان هذه الديار ، فسألته عن بعض الأماكن ، وكان ملماً بها بل كان ذا معرفة جيدة .

الأسفع

تحركت من ذلك المقهى فانحدر الطريق في وادي تربان الذي تبدأ سيوله من هذا المكان ، وكان يميني جبل الأسفيع يرى غرباً على ضفة ملل الشرقية ، يقابله من الغرب جبل صفر ، وكان ينزل صفر الكريم الجواد أبو عبيدة عبد الله بن [illegible]

قال عمرو بن عائذ الهذلي

أريعي صحبي [illegible] شباب رأس [illegible] العواقر

وشابت قنتا بالعجوزين لم يكن يشيب [illegible] العرفط المتجاور

والعجوزان يعرفان اليوم بالعود والعجوز جبلان غرب ملل ، وهما وضاحك والعواقر وصفر وعبّود من جبال فرش ملل التي تكتنفه [illegible]

وادي ملل

وبعد أحد عشر كيلاً من مفرخات مر الطريق فوق جسر وادي ملل، فكانت العبابيد يميناً غرباً وأمامي وادي الفُرَيش وهو الوادي الذي يكون مع ملل وتربان فرش ملل ، هذا الفريش يكون عند مجتمع الثلاثة الأودية شمال عبود وليس كما توهم البعض بأن فرش ملل هو الفريش ، فالفريش اسم معروف عندما كان اسم الفرش معروفاً [illegible]

ومنبع وادي ملل [illegible] يأتي من سلسلة جبال قدس من أطرافها الشمالية، فيسير شمالاً حتى يصب في الفرش شمال عبود ، ثم يسمى فرش ملل باجتماعه بتربان والفريش كما تقدم ، ثم تأتيه ضيعة من الشرق ، ثم

(١) انظر الرحلة الرابعة بهذا الكتاب

يأتيه الجفر من الغرب ، وقبل ذلك يكون قد صب فيه غميس الحمام وحزره بعد اجتماعهما في مربين بعد عبود ، ثم يسمى ملل حتى يصب في إضم غرب وادي مخيط .

طريق الجَفـر

جزع الطريق ملل فجعل كل من عَبّود وعبيبيد يمينه ، وعلى(٤١) كيلاً من المدينة فرق طريق الجفر يميناً غرباً ، وهو طريق ترابي أحدثته السيارات ، فسرت عليه قاطعاً وادي الضنيكة فافترق الى شعبتين ، يمنى الى الجفر ، ويسر الى حزرة وسويقة ابن الحسن .

والضنيكة : مضيق وادي الفريش قبيل جبل عبّود .

أخذت طريق الجفر ، وبعد ستة أكيـال من الاسفلت هبطت وادي الرّمث ، وهو وادٍ واسع تكثر فيه البروث التي تتخلل فسيحـاً مـن الأرض ، ويكسو أرضه نبـات الرّمث : نـوع من الحمض ، سمـي به الوادي .

السيارة تصاب بسكتة قلبية

تجاوزت وادي الرمث ، وعلى ثلاثة أكيال توقفت السيارة فجـأة وتذكرت ! لقد انشغل ذهني عن تعبئة خزان السيارة بالوقود. لقد أسقط في يدي لأن هذا الطريق قليل مرور السيارات ، ثم إن هذا الوقت بالذات ليس وقت حركة بين القرى والمدينة ، فالساعة كانت العاشرة صباحاً ، فبقيت في هذا المكان أنتظر من يمر حتى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، فاذا بسيارات ونيت تبزغ عليَّ من وراء مرتفع ، فتوقفت أمام سيارتي ونزل منها عدد من الشبان الذين ابتدروني : سلامات، سلامات.

فأخبرتهم الخبر ، وأبدى السائق استعداده لمساعدتي ، ولكن ليس معي ولا معه لي لشفط الوقود من سيارته ، كنت أيضـاً نسيت اللي في

المدينة • تبادلنا الرأي ، وكان آخر ما عرضت على السائق أن يأخذني الى الفريش ، فيدع الركاب هناك يشربون الشاي ونعود نحن بوقود ولي ، وأدفع له الأجرة ، فوافق الجميع •

وعلى بعد (١٥) كيلاً من هذا المكان وصلنا الى بلدة الفريش ، وأخذنا من صاحب مقهى هناك صفيحة وقود بخمسة ريالات ، ثم عدنا أنا والسائق وأحد مدرسي مدرسة الجفر ، وهـو من قبيلة الوفيـان ، يسكن الخرماء في وادي الصفراء ، وكان الجميع في طريقهم الى وادي الصفراء • أعطيت السائق خمسة وعشرين ريالاً أجـراً ، ثم حـركت سيارتي عائداً الى المدينة ، لأن أبا عبد الحميد قال انهم لن يتغدوا حتى أعود مهما تأخرت ، فوصلت الى هناك في الساعة الثالثة والنصف •

الفُرَيْش

الفريش : وادٍ يسيل من الطرف الشرقي لجبل ورقان ، وله روافد من الأطراف الشمالية الغربية من جبال قُدْس ، ثم يتجـه شمالاً حتى يجتمع بوادي ملل شمال جبل عَبْثُود في المكان المسمى بفرش ملل ، وقد توهم بعضهم أنه هو الفرش ، وليس كذلك •

ثم قامت فيه محطة على (٤٨) كيلاً من المدينة ، و (٢٥) كيلاً من الروحاء أصبحت بلدة فيها مقاهٍ ومسجدان ونزل ، ومدرسة ابتدائية وأهلها الرحلة من بني سالم من حرب •

وهذه المحطة قامت في الأساس على بئر تسمى بئر درويش وسيأتي الحديث عنها ، وفي اصلاح الطريق الأخير جنّب عنها فأخذت في التقهقر وبدت لي بعض مقاهيها مهجورة ، وقد أغلق أحد المسجدين لقلة المصلين ، والفريش عند هذه المحطة سيح واسع يبلغ طوله (١٦) كيلاً تقريباً ، بعرض يزيد على الثلاثة أكيال •

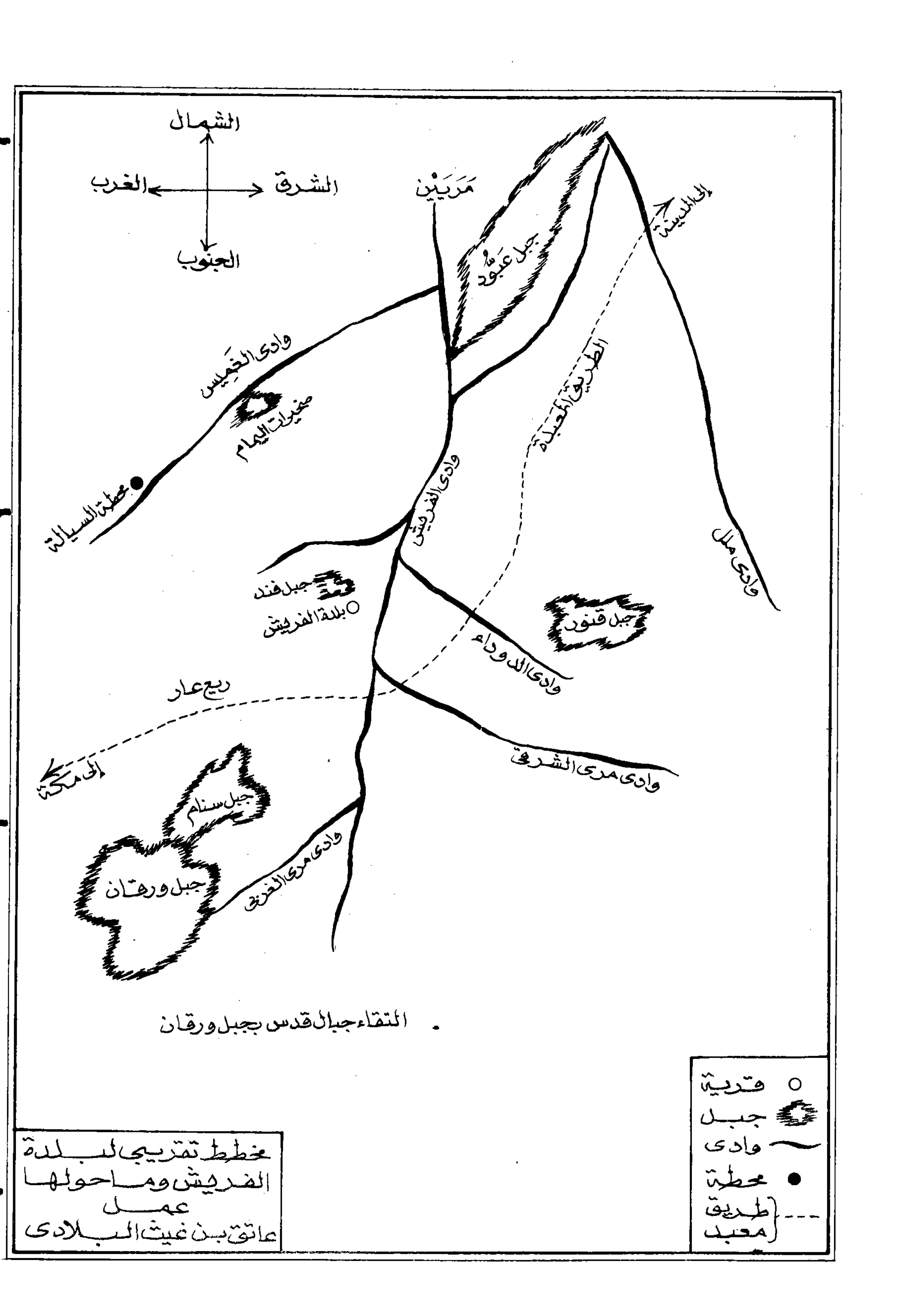
ويرى منها جبل عَبُّود شمالاً عند نهاية هذا السيح ، ويشرف عليها يظللها العشي جبل فِنْد : أكمة مردومة غير عالية .

وصف الأرض من الفريش

في الجنوب ترى جبل سنام مع ميل الى الغرب ، وهو من الجبال المتصلة بجسم جبل ورقان الذي يقع الى الجنوب منه ، يليه من الشرق وادي مرا : شعب يصب في الفريش ، ثم فجوة بين الجبال هي قيم وادي الفريش في أعلاه ، دون ذلك الطريق المعبدة الذي جنّب عن الفريش بشكل قوس ، ومن الشرق وادي مرا الشرقي ثم جبل قَنْور : أسود : شرقاً عدلاً من الفريش ، دونه الطريق المعبدة أيضاً .

ومن الغرب جبل فِنْد يشرف على البلدة مباشرة ولا يدع للنظر مجالاً ، يليه من الشمال وادٍ يأتي من الغرب يسمى وادي السيالة ، يقاسم وادي السيالة الذي توجد فيه المحطة الشهيرة الماء ، ويسمى وادي السيالة الشرقية .

أما من الشمال فيمتد الوادي فسيحاً الى جبل عَبُّود .


الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
مَرَيْن
جبل عبود
الى المدينة
وادي الخميس
صخيرات اليمام
محطة السيالة
وادي الفريش
الطريق المعبدة
وادي ملل
جبل فند
بلدة الفريش
جبل قنور
وادي الدوداء
ريع عار
وادي مرى الشرقي
الى مكة
جبل سنام
جبل ورقان
وادي مرى الغربي
التقاء جبال قدس بجبل ورقان
قرية
جبل
وادي
محطة
طريق معبد
مخطط تقريبي لبلدة الفريش وما حولها
عمل
عاتق بن غيث البلادي

اليوم السابع للرحلة

الجمعة ٤ صفر ١٣٩٣ هـ

نزهة في العقيق : رغب الشيخ محمد أن نقوم بنزهة الى العقيق ، وهو ما نسميه (قَيْلة) ، وبعد صلاة الفجر استغللت هجعة أبي عبد الحميد فانسللت الى السوق فاحضرت بعض الأغراض التي تلزمنا للقيلة ، ذلك أنه ــ حفظه الله ــ يرفض رفضاً باتاً أن اشتري شيئاً مهما كان صغيراً ، رغم ان الضيافة قد طالت •

وفي الساعة التاسعة والنصف خرجنا فكان طريقنا على بئر عروة ابن الزبير ، وهي لا تزال تزغر بالجم ، ولا زال قصره ماثلاً للعيان ، وبعذوبة ماء بئر عروة يضرب المثل •

وقد قال فيها السَّرِيّ بن عبد الرحمن الأنصاري :

كفّنوني إن مت ، في درع أروى ··· واجعلوا لي من بئر عروة مائي

سخنة في الشتاء باردة الصـ ··· ـيف سراج في الليلة الظلماء

والى الشرق من البئر نزل يسير بأبنية متواضعة ، والى جانبها الغربي يقوم سد العقيق يعبر الطريق فوقه ، ثم الى يسار الطريق مقاهٍ تعرف بعروة ، وكل المنطقة المحيطة بالبئر أصبحت تسمى عروة ، ومقاهيها ذات شهرة في المدينة كمنتزه لأهل المدينة ، ويشرف على المنطقة من الغرب حمراء بسمار ، هي جماء تصارع ، ويسمى طرفها الجنوبي الغرابة ، لأنها صارت ــ لشدة حمرتها ــ سوداء وتبعد بئر عروة ثلاثة أكيال من المسجد النبوي ، وبنيان المدينة اليوم تناوشها •

ولم نلبث أن اجتزنا بلدة بئار علي (ذي الحُلَيفة) ـ وقد تقدم وصفها في اليوم الرابع للرحلة ـ ، فهبط الطريق الى داخل البلدة التي تقوم على شفير الوادي ، وادي العقيق ، فسرنا في طريق ترابيــة كانت المزارع على جانبيها تميز فيها النعنع الحساوي،غير أنها يبدو عليها الظمأ، وأكثر الآبار متوقف قد نضب ماؤه ، فالديار كلها في سنة سنهاء ودهراً أدهر ولم يسل وادي العقيق من سنة ونيف •

وبعد ما يقرب من كيل أو يزيد من بئار علي وصلنا الى :

الوُسَطَة

قرية صغيرة عامرة على ضفة العقيق الشرقية بسفح جبل عَيْر من الغرب ، يمر الطريق بينها وبين الجبل ، سكانها عوف من مسروح مــن حرب ، وجل زراعتهم الخضر •

حاجة العقيق الى السدود

استمرت الطريق بنا شمالاً ، وهذا هو الطريق الذي أتيت عليه من وادي الفرع ، ويسمى طريق الفُرُع ، كانت المزروعات والآبــار كثيرة مما يدل على خصوبة الوادي وكثرة مياهه ، الا أنه الآن يقترب من فترة جفاف محزن ، وليس بالوادي سدود ، وكان يمكن أن يسد أعلاه ، وهو وادي النقيع عند بئار الماشي ، ويمكن ســد العقيق عند حمراء الأسد ، ولو حدث هذا لأصبح الوادي ريان مرجعا •

صحيح ان المضايق تكاد تكون معدومة ، ولكن هــذا في نظري وحسب خبرتي لايمنع من أقامة سد أو سدين في هذا الوادي الزراعي التأريخي الجميل ، الذي طالما تغنى الشعراء بجماله الطبيعي ، وقد قيل

ان العقيق حظي من الشعر بما لم يحظ به مكان غيره ، ومما قيل فيه قديماً قول أحدهم :

إني مررت على العقيق ، وأهلـه يشكون من مطر الربيـع نزورا
ماضركم إن كان جعفر جـاركم أن لايكون عقيقكم ممطـورا[1]

ولقد وجدت أهله يشكون المحل لا النزور .

وقال سعيد بن سليمان المساحقي وهو ببغداد :

أرى زاهراً لمـا رأني مسهّـدا وأن ليس لي من أهل بغداد زائر[2]
أقام يعاطيني الحديث ، وانـنا لمختلفـان يـوم تبلى السـرائر
يحدثني ممـا يجمـع عقلـه أحاديث منهـا مستقيم وحـائر
وماكنت أخشى أن أراني راضيـاً يعللني بعـد الأحبـة زاهـر
وبعد المصلى والعقيـق وأهلـه وبعد البلاط حيث يحلو التزاور
اذا أعشبت قريانـه وتزّينـت عِراض بها نبت أنيـق وزاهـر
وغنّى بها الذّبّان تغزو نباتهـا كما واقعت أيدي القيان المزاهر[3]

وزوجت أعرابية من أهل العقيق وحملت الى نجد ، فقالت :

اذا الريح من نحو العقيق تنسّمت تجدد لي شوق يضاعف من وجدي
اذا رحلـوا بي نحـو نجـد وأهلـه فحسبي من الدنيا رجوعي الى نجـد[4]

العِلاَوة

وبعد ثلاثة أكيال من ذي الحليفة وصلنا الى أول العِلاَوة ، وهي

---

(١) « معجم البلدان » ، « العقيق » .

(٢) ازهر : غلام الشاعر .

(٣ و ٤) « معجم البلدان » ، « العقيق » .

جزء من الوادي بها نزل ومزارع أنضر وأكثر من ذي قبل ، وقد انعرج الوادي الى الشرق فلابط سفح جبل عير من الجنوب ، والوادي يسمى هنا ــ كما تقدم ــ عقيق الحسا .

وهنا اخترنا مكاناً من طرف الوادي من الجنوب بعيداً عن النزل نوعا ما ، وبه حططنا رحالنا فانهمك معظم الأسرة في اعداد الشاي والقهوة وما يلحق .

بينما تنحيت أنا جانباً وبدأت أدوّن مشاهدات رحلة أمس من دفتر الملاحظات ، الذي أكتبه دائماً باختزال أثناء سير السيارة .

وصف العقيق من العلاوة

يأخذ العقيق في التعرج منذ أن يكون بين بثار الماشي وحمراء الأسد وكان قبل ذلك يسمى وادي النقيع ، ومن هذا المكان أرى جبل عير أسمر ممتداً من الشرق الى الغرب شمال مكاننا تماماً عن قرب ، له نعوف كثيرة ، يتصل في الشمال والشرق بالحرار ، أما جنوبه وغربه فيحف به سيل وادي العقيق ، وقد تكرر معنا الحديث عنه .

وفي الشمال حمراء الأسد بينها وبين الوادي سيوح وصحاصيح تعطي الوادي اتساعاً ، وان كانت غير محسوبة منه ، لأن الوادي يجري في أخدود عميق تحيط به الجرفة ، بينما هذه السيوح مرتفعة لا يصل اليها سيل الوادي ، ويلابط حمراء الأسد من الغرب جبل يسمى الأسمر .

أما في الغرب فأرى حمراء نمل : حمراء بارزة لا يتصل بها شيء من الأعلام، يمر طريق مكة غربيها ، وبسفحها من الشمال يمر وادي أبي كبير الذي يصب على قرية الوسطة من الغرب .

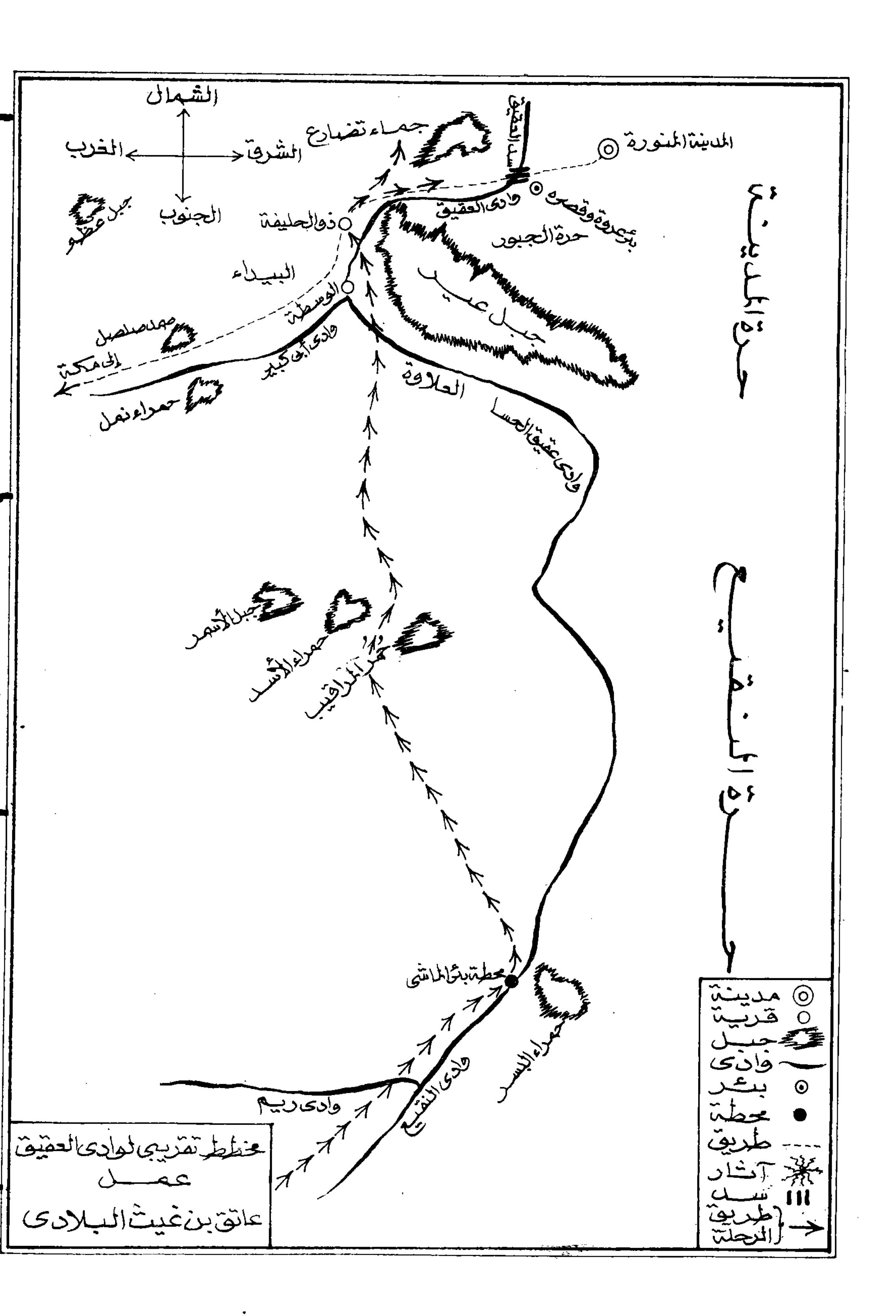
وأرى غرباً عن بعد جبل عَظْم : جبل أسود بارز ، وراء البيداء ،

ووراء طريق مكة وفي الشمال الغربي أرى حمراء الغرابة مـن وراء ذي الحليفة ، لا يبدو الا رأسها ، وهي كما تقدم جزء من جماء تضارع •

وفي الجنوب الشرقي تظهر حمراء البسر على قرابة (١٨) كيلاً من هنا ، تشرف على بئار الماشي من الشرق ، وعندها ينعطف الـوادي مرة أخرى الى الشمال الشرقي ، دون ذلك حُمُر المراقيب : ثلاث حمراوات صغار كأثافي القدر تظللها حمراء الأسد من الغرب ، وقد تقدم الحديث عنها في اليوم الرابع للرحلة •

أما في الشرق فأرى حرة المدينة . ولعلها تسمى هنـا حرة النقيع ، ذلك أن هذه الحرة تأتي مأتى وادي النقيع تسايره حتى تصل الى المدينة ثم تفترق عنها فتكون منها الحرة الشرقية والحرة الغربية ، وهما لابتا المدينة، وهذه الحرة صلة غير منقطعة لحرة الحجاز العظيمة التي تستمر مجنبة الى أن تقترب من مكة في الشمال ، ومن الطائف حيث حرة بس المشرفة على عُشَيرة من الشمال •

وتسيل منها أودية في العقيق من الشرق سبق التحدث عنها ، مثل بجرة وخاخ ، وغيرهما ، وهي تسمى عند كل وادٍ باسمه ، فعند خاخ حرة خاخ ، وعند بجرة حرة بجرة ، ومنها حرة مَيْطـان ، في الجانب الآخر من جهة العقيق الشرقي •


الشمال
الشرق
الغرب
الجنوب
جماء تضارع
المدينة المنورة
وادى العقيق
حرة الجبور
ذو الحليفة
البيداء
الوسطة
جبل عير
إلى مكة
وادى أبى كبير
حمراء نمل
العلاوة
وادى عقيق الحسا
حرة النقيع
حمراء الأسد
محطة بئر الماشى
وادى النقيع
وادى ريم
مخطط تقريبي لوادى العقيق
عمل
عاتق بن غيث البلادى
مدينة
قرية
جبل
وادى
بئر
محطة
طريق
آثار
سد
طريق الرحلة

اليوم الثامن للرحلة

رحلة الى العوالي

العوالي منطقة زراعية تقع شرق المدينة بين لابتيها ، يتخللها وادي بطحان الذي أصبح يسمى بثلاثة أسماء : أعلاه أم عشرة ، ثم قُرْبان في الوسط ، ثم أبا جِيْدة اذا دخل المدينة ، وهو الوادي الثالث الرئيسي في المدينة ، وقدمنا الحديث عنه في أودية المدينة .

ومنطقة العوالي خصبة التربة غزيرة المياه كثيرة المزارع ، ملاكها خليط من الأشراف وحرب والنخاولة .

خرجت من باب العوالي شرقاً وسط حي العوالي الذي أقيم حول الباب المعروف بهذا الاسم ، فكان الطريق معبداً مزدوجاً ، وكنت أرى النخل يتخلل العمران ، وبعد كيل واحد بدأ العمران يقل والنخل يكثر ، ثم تكاثف على جانبي الطريق حتى حجب الرؤيا ، وبعد كيلين انتهى ازدواج الطريق وانتهى التعبيد فصار ترابياً متعرجاً بين جدر من اللبن ، وكان صوت آلات الضخ يختلط بعضه في بعض ، فهذه تطوطي، وأخرى تفوقي ، حسب حجم الآلة وقوة دفعها للماء .

وبعد ثلاثة أكيال من باب العوالي واجهتني حرة تغشاها بعض البنيان ، فافترق الطريق وافترقت حدائق النخل الى شعبتين : يمنى الى الجنوب ، ويسرى الى الشمال ، فسلكت اليمنى ، فصارت الحوائط من جهة النخل حائطاً واحداً متصلاً ، تتخلله أبواب ، وهو مبني بالحجر والطين ، فكان النخل يميني والحرة يساري عليها بعض بيوت قليلة تعتبر في مجموعها قُرَيَّة .

وبعد مسير أربعة أكيال من باب العوالي ظهر سويق صغـير يمين الدرب ، وهنا قصّر النخل وظهرت الحرة على يساري متصلة ، فافترق الطريق الى شعبتين : احداهما أخذت جنوباً بين النخل والحرة ، وكأنها تطيف بالنخل ، والأخرى صعدت الحرة باتجاه مطلع الشمس ، فصعدت الحرة من هذا الطريق ، وعندما علوت الحرة رأيت النخيل التي تركتها جنوباً تمتد من جنوب الحرة الى الجنوب الشرقي في شريط مستطيل بين الحرتين ، بينما توقفت في الشمال عند حرة واقم .

وهذه الحرة الأخيرة تسمى واقماً قديماً وتسمى الحرة الشرقية ، وهي المعنية بيوم الحرة ، و (يوم الحرة) هي الوقعة التي أباح فيها مسرف ابن عقبة مدينة رسول الله ﷺ ، في عهد ينقص (يزيد بن معاوية) [1].

وكان الهدف من هذه الرحلة هو تحديد وادي بطحان الذي تقدم ذكره ، ذلك أن الاسم لم يعد معروفاً لدى الأهالي ، ومن هـذا المكان عرفت أن وادي بطحان هو الذي تمتد فيه حدائق النخيل في هذا الشريط الذي يمر جنوب الحرة التي أنا فوقها الآن ، داخلاً بينها وبين حرة قباء التي تتصل بجبل عير من الشمال .

وصف الأرض من حرة العوالي

في الشمال : تمتد الحرة فيها تجويف الى الشرق تدخل فيه حدائق النخيل، ويظهر للعين بعض العمران ومئذنتان بعيدتان، من وراء ذلك يظهر جبل أُحُد شامخاً ممتداً من الشرق الى الغرب، يليه من الشرق فج ثم جبل وَعِيرة الشامخ أيضاً ثم فضاء فيه مطار المدينة وسد العاقول ، ويمر فيه

---

(١) انظر تفاصيل هذه الموقعة في « معجم معالم الحجاز » .

طريق القصيم ، والى غرب جبل أُحُد تظهر أجبل سمر قليلة الارتفاع ، أعلاها جبل الشظفاء المشرف على الجرف من الغرب •

وفي الجنوب : شريط نخيل يلب هذه الحرة ممتداً شرقاً تتوسطه قرية هي مني الآن الى الجنوب الغربي هذه قرية قُرْبان ، الى غربيها خزان مياه قباء ، ومن وراء ذلك امتداد حرة المدينة الغربية (حرة الوبرة) عندما تصبح في الجنوب من المدينة ، وراء ذلك في الجنوب جبل عير ، وفي غربيه جبل عَظْم من وراء طريق مكة •

وفي الغرب : تظهر جَمَّاء تضارع ، وحمراء الغُرَابة ، والى الشمال منهما سلع على رأسه مبان عسكرية ، دونه المدينة تظهر منائرها ورؤوس قصورها •

أما في الشرق : فامتداد الحرة ترى حرة بني قُرَيظة ، ويطلق اسم قريظة على أكمة بارزة فوق الحرة ، وبعيداً جداً رؤوس جبال كأنها غرست في وسق الحرة ، وهي وراءها •

الخضرة والماء في العوالي

هبطت من الحرة فقادني الطريق الى بئر عليها آلة ضخ ضخمة (بلاكستون)[1] تدفع بطلمبة سعة أربع بوصات ، كانت انبوبتها ملآنة لدرجة أنها كانت تقذف الماء بعيداً ، عليها بركة متوسطة حولها استراحة (دكة) وغرف قديمة حجرية ، وأخرى بالاسمنت المسلح ، وقريب كانت بقرات ربوض ، ودفع الطلمبة يدل على غزارة الماء •

---

(١) كلمة انجليزية معناها : الحجر الأسود : يسمى بها هذا النوع من الآلات .

وخرجت من عند البئر ـ تحاشياً لي ـ نسوة يرتدين الملابس السوداء ، وهو لباس قديم لنساء هذه الديار أخذ يتقلص أمام غزو الأقمشة المزركشة ، ولكنه في العوالي لايزال ترتديه نساء طائفة النَّخْلية أو النخاولة كما يسميهم أهل المدينة .

ورأيت الخضرة حول البئر يدل منظرها على الرواء ، وكذلك النخل الذي تتبلّخ عواهنه في رواء ظاهر ، والتربة طينية من أجود أنواع التربة الزراعية .

قُباء ومسجدها الجميل

أخذت في طريق تشق النخل الى الجنوب الغربي ضيقاً لاتتخالف فيه سياتان ، ثم أخذ يشرّق ويغرّب حتى قادني الى مسجد قباء جنوب المسجد النبوي على أربعة أكيال ، وهو مسجد جميل مبني بناء حسناًمن الحجر ، وأعلاه من الخارج مجصص بينما ترك أسفله في شكل متناسق بديع من الأحجار المربعة ، وتظهر المؤنة كخطوط متوازنة في منظر رائع يزيده روعة تأريخه المجيد[1] والمسجد يتوسط حياً جميلاً هو قرية قباء، وحول المسجد مقاه نظيفة جلست في احداها لتناول الشاي .

والعمران منه الى المدينة متصل لاينقطع ، وفي الجنوب غير بعيد حرة قباء .

ويصله بالمدينة شارع واسع معبد على جانبيه البساتين النضرة ، وللمسجد ساحة واسعة تتخللها الحدائق الصغيرة المزينة بالورود من أشجار الدفلي وغيرها ، وصيران الدوم الخارجي ، والريحان .

---

(١) انظره في فصل المساجد .

المساجد السبعة وجبل فتُو

جلست في مقهى هناك فتناولت فيه الشاي ، ومنه خرجت عائداً الى المدينة،كانت الفلل الجميلة عن يميني والنخيل ثم الحرة عن يساري، وبعد أربعة أكيال وصلت الى المناخة ، فواصلت سيري حتى خرجت من ثنية الوداع متجهاً غرباً على طريق سلطانة ، ثم تركته يساراً فأخذت طريقاً ترابياً يهبط وادي العقيق من أسفله ، ذلك انني أحاول معرفة الطريق الى جبل الأجرد لأقوم برحلة الى هناك .

وبينما أنا سائر مررت بحي للبادية المتوطنين ، فوجدت رجلاً جهيناً سألته عن طريق الأجرد فوصفه لي كأني أنظر اليه . (وعند جهينة الخبر اليقين) ، فالرجل من جهينة أهل الأجرد ، ومعرفته له كمعرفة أهل مكة لشعابها .

وفي طريق عودتي مررت بما يسمى المساجد السبعة ، سبعة مساجد بسفح جبل سلع من الغرب صغار لايكاد بعضها يسع صفين ، متقاربة تكلم من بعضها من في البعض الآخر .

وسألت الشيخ محمد بن ابراهيم عنها فسأل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي المدرس بالجامعة الاسلامية ، ومن لديهم معرفة في أثار المدينة، فلم يعلم أحد خبرها،وقال الشنقيطي:انها أحدثت في عهد الدولة العثمانية.

وسألت الاستاذ عبد القدوس الأنصاري فلم يعرفها ورأيت في خارطة للمدينة صادرة من مكتب تخطيط المدن ، ذكر فيها الطريق الى المساجد السبعة ، وهي منشورة في كتاب أثار المدينة .

الروايـة عند الباديـة

بعد صلاة عصر هـذا اليوم السبت (٥/٢/١٣٩٣ هـ) : ذهبت والشيخ محمد بن ابراهيم الحازمي الى الشيخ مرزوق بن حامد وأبيه الصاعديين ، وهما من سكان جبل سلع حالياً ، وكانت باديتهما بين المدينة والفرع ، ولهما معرفة جيدة بهذه الديار وقبائل حرب وفروعها [1] .

فتحدثنا عن أماكن كثيرة واستفدت منهما ، ثم عدنا مع صلاة المغرب .

* * *

---

(١) انظر عنها كتابي « نسب حرب » ، مطبوع .

اليوم التاسع للرحلة
(٦ / ٢ / ١٣٩٣ هـ)

رحلة الى الأجرد

تحركت من منزل الشيخ محمد في الساعة الثامنة صباحاً ، فخرجت من ثنية الوداع ــ بين سلع والباب الشامي ــ متجهاً غرباً ، فعبر الطريق فوق جسر على وادي العقيق ، ثم خرج في جلد من الأرض أرى منه الجامعة الاسلامية يساري ، وهي مقامة بجوار قصر سعيد بن العاص ، الذي يقول فيه أبو قُطَيفة :

القصر فالنخل فالجماء بينهما ... أشهى الى القلب من أبواب جَيْرون

ثم أخذ الطريق بين جبل حَبَشي ــ بالفتح ــ يساره ، وجبل النظفاء يمينه ، والى اليمين عن قرب أشعب تسمى غُرَّب : احدها غُرَاب ، وهي المذكورة مع ما بعدها في غزاة بني لحيان •

ثم اجتمع الطريقان : سكة حديد الحجاز والطريق المعبدة فصعدا ثنية فانحدرا الى وادي مَخِيط ، ومنذ وصلت جبل حَبَشي على (٧) أكيال من المناخة كان الطريق تحت التمهيد ، وكان متعباً ، وكانت سكة الحديد قد نقضت تواً ، وهذه عوارضها مرصصة على قارعة الطريق كأكوام من الحطب ، ثم أخذت بعض السحب الداكنة تظهر بعيداً جهة الغرب على شعوف جبل الأشعر •

مَخِيط والبَتْراء

وعلى (١٥) كيلاً هبطت وادي مخيط ــ بالميم والخاء المعجمة ، والمثناة تحت ، والطاء المهملة ــ وكل ما سواها غلط •

حدر الطريق ذلك الوادي ، فكانت الحرار تحف بجانبيه ، ومن أبرزها حرة البتراء المذكورة في غزاة بني لحيان .

كانت السيارة تسير بسرعة (٦٠كم) في الساعة مع طريق كثيرة المطبات والبطانيج ، وعلى بعد رأيت ذرى الهضبة أمامي ، وهي أبرز ما في هذه النواحي بعد الأشعر والأجرد ، ولعلي أعثر على اسم قديم لها ، فلابد أنها كانت معروفة بغير هذا الاسم ، مثل آرة الذي أصبح يعرف بهضبة أم العيال ، والأشعر الذي أصبح يعرف بجبل الفقرة ، وفعرى الذي أصبح يعرف بهضبة غيقة . وغيرها كثير .

وادي الحَمْض

وادٍ فحل سبق وصفه في أودية المدينة ، وعلى (٢٦) كيلاً من المدينة هبطت وادي الحمض الذي كان الى يميني منذ أن تجاوزت غُرّب ، وأول ما واجهني جسرضخم أقيم للطريق التيستعبد وقد عبدت أجزاء منها ، وآخر غير بعيد يساراً لسكة حديد الحجاز مبني بالحجر ، بينما الأول مبني بالاسمنت المسلح .

جزعته فاتجهت محاذياً له الى الغرب ، فبدت عن بعد سراة الفقرة أوضح ما تكون على بعدها ، عليها العسام ، وتتكاثف حولها ودونها مزن ذات رباب ينذر بالمطر ، وهنا رأيت الى اليسار فهوة واسعة هي فم وادي ملل حين يصب في وادي إضم بعد أن يجتمع به وادي الجفر ، وقد سبق الحديث عنهما ، واستمر الطريق معبداً فعدل بعدول الوادي الى الشمال .

خُشُب

وعلى (٣٥) كيلاً وجدت أثار قرية على الضفة اليمنى من الوادي فيها بقايا أنقاض من أهمها، قلعتان: احداهما بالآجور الأحمر ذات بوابة

عالية لازالت ماثلة ، والأخرى حجرية مهدمة ، مما يـدل على أن القلعة الحجرية تهدمت لطول المدى ثم أقامت الدولة العثمانية أخرى بالآجر ، وهو أمر يدل على عراقة هذه المحطة ؛ هذه في اعتقادي هي بلدة خشب التي ذكر الجغرافيون والرحالون أنها على مرحلة من المدينة بينها وبين ذي المروة ، ذلك أن المرحلة على نظام القوافل القديم تتراوح مسافتها بين ٢٥ ــ ٦٠ كيلاً ، حسب وجود المناهل والقرى .

المـَلـْيليح

قرية عامرة بطرف وادي الحمض من الغرب ، في منطقة زراعية تمتد قرابة عشرين كيلاً ، من وادي بواط ــ مصبه ــ جنوباً الى حرة مُدرَّجة شمالاً بعرض يقرب من خمسة أكيال ، أرضها طينية صفراء يكسوها نبات الرمث : نوع من الحمض .

وفي المنطقة مزارع قال لي أحدهم : انها تزيد على مائة بئر زراعية ومياهها غزيرة صالحة للزراعة ، وهي ليست مستصلحة كلية فالمساحة الصالحة للزراعة تتسع لأضعاف الموجود الآن .

وفي البلدة مدرسة ابتدائية للبنين ، وامارة تابعة للمدينة ، ومستوصف صحي ، وجامع تصلى فيه الجمعة .

العـُصـَيـْليب

وتجاور المليليح من الجنوب قرية العصيليب : قرية صغيرة فيها حركة بناء ومزارع حديثة .

ويزرع في المنطقة : العنب والرمان والخضروات والليمون ، الى جانب النخل الذي هو الزراعة الرئيسية .

شمالاً : جبال اللَّقّ ، جبال تظهر بعيدة حوالي ٢٥ كيلاً ، دونها حرة مدرّجة ، تمتد من الشرق الى الغرب تحرف وادي الحمض (إضم) الى الغرب ، دونها هذه المنطقة الزراعية من الوادي ، ويسمىهذا الجزع من وادي إضم (المندسة) .

وفي الجنوب : جبال بواط من الغرب الى الشرق ، وفي رأسه ثنية بواط التي سلكها رسول الله ، ﷺ ، في غزاة ذات العُشَيرة في ينبع ، وتظهر بعيداً شعوف جبال شخانيب بينها فجوات عميقة ، وهي أطراف جبل الأشعر حيث تسيل الحورتان (حورة وحويرة) .

أما في الشرق : فترى الهضبة البيضاء ، وهي أبرز علم هنا بعد الأجرد ، شمالها جبل شَوْفان : جبل أسمر ، ثم وادي أَلْتَمَة في آخر الشمال الشرقي ، تمردون ذلك الطريق التي أتيت عليها ، ثم تعدل هذه الطريق فتأخذ ألتمة الى اللحن ثم الصلصلة ، وقد صار هو طريق الشام الآن (أثناء تبييض الكتاب) .

وفي الغرب : تظهر نعوف جبل الأجرد من جهته الجنوبية الشرقية عندما يتصل ببواط من أعلاه ، دونه سلاسل جبلية غير منفصلة عنه ، تصل سفوحها الى قرية المليليح .

والمسافة من المليليح الى المدينة (٦٨) كيلاً ، وسكانه جهينة ، وتسكن الضفة اليمنى من وادي الحمض قبيلة ولد محمد من بني سالم من حرب ، ولهم الهضبة ووادي ألتمة المار ذكرهما ، وتمتد ديارهم على الضفة اليمنى للوادي الى شجوى قرب مصب الجزل ، وفي المليليح محطة لسكة حديد الحجاز المعطلة .

عشاءان

خرجنا بعد العصر في نزهة بكامل الأسرة الى الجرف ، غرب المدينة بستة أكيال ، وكان جبل الشظفاء يشرف علينا من الغرب ، ثم عدنا الى المدينة عند الغروب ، وبعد العشاء جلسنا لتناول طعام العَشاء ، وبعد أن أكلنا شطراً منه فاذا بالباب يقرع قرع المستعجل ، فقام اليه الشيخ محمد ، فاذا هو الشيخ صالح القين صاحب العمارة والساكن فيها أيضاً ، فقال : ان عندي صديقاً عزيزاً أحببنا أن تشاركوه العشاء فهيا أسرعوا فقد غرفنا ! وكان الشيخ عزيزاً علينا ، وهو من أهل الصلاح والوقار ، وكان قد كسب ودنا واحترامنا من لقاءاته بنا حول العمارة ، فلبسنا على عجل وصعدنا اليه في الطابق العلوي ، وكان عشاء شهياً •

القراءة بالبركة

قدم لنا الشيخ صالح ضيفه وكان شيخاً طاعناً في السن ، وقال : انه شيخ القراء في الباكستان • وبعد العشاء أحضروا مسجلاً وطلبوا من الشيخ أن يسجل ــ بالبركة ــ بعض آيات من القرآن الكريم •فقرأ الشيخ سورة (ق) ثم سورة (عمّ) فكان يجيد مخارج الحروف أكثر من مجيدي العرب ، ويجوّد تجويداً كان موضع اعجاب الحاضرين ، وهو رجل أعجمي •

وعدت بذاكرتي الى ما أسمع من بعض العرب ، فقد قرأ بنا أحدهم ذات مرة في الصلاة (والتفت الساغ بالساغ) ويقرأ بعضهم في الفاتحة (المغظوب عليهم ولا الظالين) •



اليوم العاشر للرحلة

(٦ صفر ١٣٩٣ هـ)

رحلة الى جبل ثور

ثور جبيل أحيمر لاطىء في الأرض شمال أحد ، جاء ذكره في بعض كتب المتقدمين على أنه حد حرم المدينة من الشمال .

وفي هذا اليوم أردت أن أشاهده وأحدده ، فخرجت من المدينة من الباب الشامي الساعة الثامنة صباحاً ، وعلى بعد ثمانية أكيال فرق طريق مُعبَّد الى اليسار غرباً داخلاً بين جبلي أحد الى اليسار ووَعِيرة الى اليمين في فج يسمى (المفهِق) ، فانحدر الطريق في مسيل يسيل من هذا الفج الواسع ، وبعد قرابة أربعة أكيال خرجت في طريق ترابي يتجه شمالاً ، فهبط وادي النَّقَمي ، وكان جبل أحد ورائي ووعيرة يميني يسيل منها بعض روافد وادي النقمي ، وعن بعد ظهرت الهضبة البيضاء شامخة في الشمال الغربي .

قادني الطريق الى بستان كبير في وادي النقمي ، عرفت فيما بعد أنه لوكيل امارة المدينة . لم أجد من أسأله عن جبل ثور ، فالعمال في المزارع هنا كلهم أجانب ، وكنت أنظر الى ما حولي من آكام بحثا عن جبل ينطبق عليه وصف ثور فلم أره .

وأخيراً وصلت الى مزرعة مستطيلة باستطالة الوادي في طرفه الشمالي ، يبلغ طولها قرابة كيلين بعرض أكثر من (٣٠٠) متر تقريباً محاطة بسور من الطوب الأحمر ، فسألت عنها فقيل : اسمها الزبير ، فإذا هي مزرعة الزبير بن العوام التي اشتراها في الغابة بمائة وسبعين ألفاً ، وبيعت في تركته بألف ألف وستمائة ألف درهم .

ويبدو أن هذا طرف الغابة من الشمال ، وأن طرفها الجنوبي هو ما يعرف اليوم باسم العيون ، وبينهما مسافة قد تزيد عن ثلاثة أكيال .

تجاوزت هذه المزرعة الى الطرف الشرقي لوادي الحمض فوجدت أراض استعمرت حديثاً ، مخططة تخطيطاً حسناً ، فوجدت شخصاً من قبيلة حرب فسألته عن جبل ثور فأشار الى ضليع حائز عما حوله كنت مررت قريباً منه ، وقال هذا هو جبل ثور المعروف في هذه الناحية .

توجهت الى تلك الأكمة فصعدتها فوجدت بقايا حجيرة مهدمة ، وسطها صخرة تمثل أعلى نقطة في الجبل ، فجلست عليها لأقدم وصفاً لما حوله .

وصف الأرض من قمة جبل ثور

في الشمال : أرى جبل الجُنْدُبية : جبل أسمر يصطدم به وادي إضم فينحرف عنه غرباً ، ووادي إضم يسمى بين العيون والجندبية وادي الخُلَيل ، فهو لم يسمى وادي الحمض بعد ، تتصل بالجندبية جبال من نوعه ، دون ذلك وادي الخُلَيل تنتشر فيه المزارع ، وقريب مني في الشمال أيضاً درب سيل وادي النُّقَمي آتياً من اليمين الى اليسار، يصب في الخليل على مرآى من هنا غرباً .

ووادي النقمي يأتي من بعيد حيث يقطع صدره الطريق الى تبوك[1] .

وفي الجنوب : بعيداً ، طرف جبل عير الغربي مما يلي ذا الحُلَيفة، دونه جماء تضارع ، والى الغرب من ذلك تظهر الجماء الغربية (جماء عاقل) ثم جبل حَبَشي غرب الجميع ، وهو في الجنوب الغربي من هنا ، وتظهر الى يمين القبلة مباني الجامعة الاسلامية بيضاء ناصعة ، دونها

(١) انظر كتابي « رحلات في بلاد العرب » .

يمتد الوادي أو قل رحبة التقاء أودية المدينة الثلاثة ، وهي رحبة واسعة تتخللها المزارع تضيق بين الجرف وأحد فتسمى الخُلَيل الى وادي مَخِيط ، وقد تقدم ، ومن هنا ترى نخيل العيون مدلهمة كالليل الداجي، دون كل ما تقدم — عن قرب — جبل أحد تسمع المنادي منه ، ويحجب عنك المدينة وحرارها وسلعاً فلا ترى شيئاً سواه ، وبيني وبين أحد تمر طريق معبدة تلب أحد من الغرب فتقطع الوادي عند الجرف فتدخل بين الجماوات فتأخذ فَيْفاء الخَبَار فتلائم طريق مكة على البيداء ، فهي لاتمر المدينة بل تطيف بها ، قيل لي هنا : انها عملت من أجل الأجانب الذين لا يراد مرورهم بالمدينة : وتحت جبل ثور من الجنوب أقيمت منشآت حديثة •

وفي الحديث : ان حد المدينة من الشمال هو ثور ، ولكن ذلك الطريق استثناه فمر في الحرم ، وليس هناك نص حسب علمي يحرم على الأجانب دخول المدينة ، بل ان كثيراً من غير المسلمين كانوا في المدينة زمن عمر ، الا أن حرم رسول الله ﷺ تجب رعايته وتنزيهه ممن لا يكنون له الاحترام ولا يعترفون بنبوءته خاتمة النبوءات •

وكان أبرز الظواهر في الشرق : جبل وَعِيرة — بفتح الواو وكسر العين — ترى الذي يشف من فوق رأسه ، ويحجب كل ما وراءه ، ثم قريباً ترى جبالاً ضعاضع جباجب سمر ، دونها سيح صغير ، وتحيط السيوح بثور من جيمع جهاته فلا يتصل به شيء من الحَثَر •

أما في الغرب : فأقصى جنوبه جبل الشَّظْفاء : جبل أسمر بارز تراه وأنت في المدينة غرباً الى الشمال ، يقابل حبشياً بينهما سكة حديد الحجاز ، والجادة المعبدة ، ويشرف شرقاً على الجرف ، ومنه تسيل شعاب غُرَّب •

تنصل بالشظفاء الى الغرب سلاسل جبلية أقل ارتفاعاً منه ، بينها كنانة معها طريق يسلك . دون ذلك وادي الخـُليل فيه غابات من النخيل بينها فجاج واسعـة .

شهرة جبـل ثور

سمي جبلاً وهو في الواقع أكمة صغيرة علوتها بدون عناء ، وتأتي شهرته من ناحيتين :

أولاهما : الحديث الذي تناقله أهل المدينة وأخذه الجغرافيون بأن حرم المدينة من ثـَوْر الى عَيْر ، وهو واضح نصاً ومعقول معنى ، إذ أن كل من ثور وعير لا يبعد ــ تسامتياً عن المدينة بأزيد من عشرة أكيال أو أكثر بقليل ، ولم يطعن أحد في صحة هذا الحديث .

ثانيهما : ذلك الخوض العجيب الذي وقع فيه الجغرافيون في ثور وعير ، فمنهم من قال : ثور مكة وعير المدينة ، ومنهم من قال : مثل مابين ثور وعير في مكة ، ومنهم من قال : لا يعرف عير ولا ثور في المدينة[1] .

والواقع أن الذي في مكة ثور والعيرة ــ مؤنث ــ وأن الذي في المدينة ثور وعير ــ مذكر .

ولما أن أ ُحـُداً وثـَوراً متجاوران ، وأحدهم أشهر وأكبر فقد اعتبر ــ فيما أعتقد ــ عند شق ذلك الطريق ، حداً للمدينة ، وخاصة أن الطريق لو شقت من وراء ثور فستلاقي صعوبات لمرورها على طـول وادي النقمي .

---

(١) انظر ذلك في « معجم معالم الحجاز » ، مادتي ثور وعير .

سيد الشهداء وجبل الرماة

نزلت من على هذه الأكمة فعارضت طريق الأجانب كما يسميه أهل المدينة ، والذي يسير بسفح جبل أحد ، فمشيت فيه قليلا فافترق منه درب يساراً بلحف أُحد ، بينما استمرت الطريق الرئيسية الى الجنوب الغربي كما سبق وصفها •

فقادني دربي هذا الى مشهد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ابن هاشم ، عم رسول الله ﷺ ، الذي استشهد يوم أُحُد في السنة الثالثة للهجرة ، يقع المشهد بسفح جبل أحد مما يلي المدينة ، وحوله بناء له باب عليه حارس ، والناس كثيرون هنا لزيارته ، وحوله حي يمتد منه باتجاه المدينة يسمى حي الشهداء ، وغرب المشهد مدرسة متوسطة تسمى متوسطة حمزة بن عبد المطلب •

ومن هذا المكان ترى جبل الرماة أو جبل عَيْنين بينك وبين المدينة : أكمة صغيرة كالبرث صخرية حائزة في السهل ، يفصل بينها وبين المشهد سيل وادي قناة ، هي جنوبه والمشهد شماله ، ويمكن أن تكالم من أحدهما مَن على الآخر •

وكان قد كساه العمران قديماً حتى لم يبق منه مكان ، ثم هجر فاصبح الآن خرائب مهدمة لاساكن فيها •

ولا أعلم ولم أجد من يعلم سبب هجر هذه المساكن غير أن الجبل يزار أيضاً بالمشاهدة •

ومن مشهد حمزة خرج شارع معبد واسع الى المدينة ، فسلكته، وعلى طريقي هذا مررت على مسجدي : المستراح ، والسبق ، وهما من المساجد المشهورة بالمدينة •

اليوم الحادي عشر للرحلـة

الاستعداد لمغادرة طيبة الطيبة : لقد قضيت العشرة الأيام الماضية في تنقل مستمر بين الجبال والوديان ، حتى أنني أحياناً اضطر الى اعتباط دروباً لم يسبق عبورها ، وقد لحقني من جراء ذلك تعباً شديداً ونصباً كنت أتجاهله دائماً ، وعندما أزمعت على الرحيل وجدتني في حاجة الى الراحة ولو ليوم واحد فقط ، فقمت في هذا الصباح بتغيير زيت السيارة، ثم ذهبت الى سلطانة الضاحية الجميلة،التي فيها تقع الجامعة الاسلامية، عدت بعد ذلك في التاسعــة والنصف فاخلدت الى الراحــة على أمــل الرحيل غــداً .

ولكن الشيخ محمد بعد عودته من الدوام اقترح عليّ أن نقوم بزيارة لوالده في (الواسطة) القرية التي كانت تعرف بالصفراء قديماً ، فلم أجد ما يعذرني منه ، بل رأيت هذه الرحلة مفيدة جداً فوالده مــن أعرف الناس بهذه النواحي .



اليوم الثاني عشر للرحلة

رحلة الى الواسطة :

قرية كبيرة تتكون من ثلاث عيون متجاورة ، وهي : الصّارة ، عين جارية قوية الدفق، والجديدة ،وهي ضعيفة، والسفلى، وهي مندثرة.

تبعد الواسطة (١٢٨) كيلاً عن المدينة ، في وسط وادي الصفراء.

بعد ظهر هذا اليوم في الساعة (٤ر٣٠) تحركنا من المدينة ، والطريق كما هي اليوم تأخذ على باب العنبرية ، ثم حرة الوبرة ، فبئر عروة بيسار، ثم تجزع وادي العقيق ، ثم على سفح جماء تضارع ، فجاعل الغرابة ثم الدعيثة بيمين ، فعلى ذي الحُلَيفة ، فالبَيْـداء ، فصمد صُلْصُل ، فمفرّحات .. الخ .

وعلى (٤٨) كيلاً جعلنا الفريش على يميننا حيث جنب الطريق عنها على مرأى ، وهنا جاءنا من اليسار سيل الدوداء ، مقابلاً للفريش من مطلع الشمس ، وعلى (٥٢) كيلاً ــ كل المسافات من المدينة ــ صعدنا ريعاً فانحدرنا في وادي (عار) فسار الطريق فيه عشرة أكيال فجاءنا من اليمين وادي الرَّحْبة ، وفي رأس الرحبة العُوَيقل : ريع يطلعك الى سويقة الهاشميين في حرزة .

فاذا اجتمع عار بالرحبة سمي الوادي السدارة الى المسيجيد ، وبعد (٦٨) كيلاً مررنا بعرق الظبية : نعف أشهب يمين الطريق يكنع في درب السيل ، يسمى اليوم طرف ظبية ، وكان على يسارنا جبل ورقاق ذو الرؤوس الشخانيب المغر ، تسيل منها شعاب كثيرة في وادي السدارة منها : سفا شرق عرق الظبية يرى منه ، وهبْت ، بعد العرق بقليل .

الرَّوْحاء

وعلى (٧٤) من المدينة وصلنا الى بلدة الرَّوْحاء : مقهيان أو ثلاثة وبيوتات يعدها الناظر ، ومنها ترى شَنُوكة : تلعة كبيرة تسيل من الشمال من الفقارة أو مما يتصل بها ثم تدفع على بئر الروحاء من الشمال . وهي التي يقول فيها كُثَيِّر :

كذبن صفاء الود يوم شنوكة وأدركني من عهدهنّ وهون[1]

ويقول أيضاً :

فانّ شفائي نظرة إن نظرتها الى ثافل يوماً وخلفى شنائك
وإن بدت الخيمات من بطن أرثد لنا وفيافي المرختين الدكادك[2]

وكانت الروحاء محطة قديمة على درب الأنبياء ، نزلها رسول الله ، ﷺ ، فيها بئر كانت تسمى سجسج ، لاتزال تورد ، ويسمونها اليوم بئر الراحة ، وهو اسم الروحاء عندهم . فيها مسجد ، ونزلها على فم شنوكة ، وقد جنب الخط عنها بسفح جبل الجَرْف ـ بفتح الجيم ـ فانتقلت المقاهي الى الطريق ، وهي المرحلة الثانية من المدينة على نظام القوافل القديم ، وكانت المرحلة الأولى السيالة ثم صارت الفريش ـ متوازيتان ـ ثم تحولت المحطة الى المسيجيد ، فكادت الروحاء تندثر ، الى أن قام طريق السيارات فصار بعض الحجاج المغاربة يزورون الروحاء فانتعشت قليلاً .

---

(١) ديوان كثير ص ١٧٣ نشر دار الثقافة .

(٢) ص ٣٤٨ المرجع السابق .

وصف الأرض من الرَّوْحاء

في الشمال : وادي شَنُوكة : تراه فجاً بين الجبال يدفع عند الروحاء ، تتصل به من الشرق جبال مغر منها عرق الظبية ، وتتصل به من الغرب جبال منها الطرف الأحمر ، متسلسلة الى الفقرة (الجبل الأشعر) .

وفي الجنوب : يشرف عليها مباشرة جبل الجَرْف ـ بفتح الجيم ـ : جبل ضخم تمر الطريق المعبدة بسفحه من الشمال ، ويمر بطرفه الشرقي وادي هبت ، بينهما ضاضع أجبل تضرب الى الحمرة ، وهَبْت يفصل بين الجَرْف وورقان ، ومنه ثنية هبت تذهب جنوباً فتهبط على وادي الجي .

من الشرق : جبل ورقان : جبل أشقر شامخ ذو شناخيب محددة الرؤوس ، وتقرب من هنا متون منه ، يسيل منه وادي سفا (ربما هو سفوان) ترى فوهته من الروحاء مستقبلاً مغيب الشمس ، ثم وادي السّدارة نفسه ، فعرق الظبية ـ بين الشرق والشمال ـ أمغر منقاد يكنع في وادي السدارة من الشمال ، دون ذلك الطريق المعبدة .

ومن الغرب : يضيق الوادي قبل وصوله الى المسيجيد ، حتى تصطك الجبال ، الطرف الأحمر من الشمال ، وجبال الجرف من الجنوب ، ووراء ذلك بلدة المسيجيد على سبعة أكيال .

المُسَيْجيد

وبعد مسيرة سبعة أكيال من الروحاء وصلنا الى المسيجيد ، التي تبعد (٨١) كيلاً من المدينة ، والمسيجيد بلدة عامرة فيها امارة تابعة لامارة بدر ، ومسجد تقام فيه الجمعة ، ومدرسة متوسطة وأخرى ابتدائية ، ومدرسة للبنات ، وسوق ومقاهٍ ونزل كثير .

وكانت تعرف بالمنصرف . والمسيجيد ــ والمفروض أن يقال المسيجد ــ تصغير مسجد ، وهو مسجد ينسب الى رسول الله ﷺ ، توجد آثاره في شعب يأتي البلدة من الشمال ، من الثّمامي (جبل) .

وهي المرحلة الثانية على نظام القوافل لمن أتى من المدينة ، والعاشرة لمن أتى من مكة عن طريق مستورة ، يخترقها طريق الاسفلت ، وبُعَيدها مما يلي مكة يفترق الطريق الى شعبتين :

واحدة تستمر غرباً على طول وادي الصفراء ، فتأخذ على النازية ثم ريع المستعجلة فعلى سَيَر ، ثم على الخيف والحمراء الى الواسطة (الصفراء) الى بدر .

والأخرى تأخذ جنوباً على وتر ، ثم على أسفل الجي ، ثم محطة الرويثة ، ثم البنانية في الجي وتسمى بئر الغنم ، ثم الشُّفَيَّة (شرف الأثاثية)ثم العرج الى السقيا [1] .

وهذا هو طريق رسول الله ﷺ ، وهو درب الأنبياء .

وصف الأرض من المسيجيد

في الشمال : جبال خشيرمة ، والثمامي ، تشرف على البلدة ، وهي جسم جبل ضخم ذو رؤوس وفجوات ، يلي ذلك من الغرب وادي رحقان الذي يأتي من بعيد من جبل الأشعر،وهو من أكبر روافد وادي الصفراء، فيه قرى ومزارع معظمها بعل ، وأهله الأحامدة .

---

(١) انظر وصف هذا الطريق وصفاً دقيقاً في الرحلة الثالثة ، في هذا الكتاب .

و في الجنوب : جزء من سهل النازية ، يليه من الشرق جبال أعلاها جبل الحوراء : جبلة تراها بارزة بين الجباب ، لونها مشوب بحمرة ، دونها متون ونعوف •

وفي الشرق : جبل الخضراء ، بعض بيوت البلد في سفحه ، يليه من الشمال وادي السدارة بينه وبين جبل الشامي الذي يقابله من الشمال •

ومن الغرب : سهل النازية ، ومن ورائه جبال خُرُص ، تراها من هنا يليها من الجنوب ريع المستعجلة ، فيه محطة محروقات ومقاه ، وفي الجنوب الغربي ترى جبل خَلْص تراه بارزاً أسمر شامخاً ، يلتقي بسفحه مما يلي النازية ، وادي الجي بمضيق الصفراء ، وسمعت هنا أنه قد قرر سد الوادي في ذلك المضيق ، وهذا لمشهور في كتب الجغرافية بمضيق الصفراء ، وقد بدأ عمل السد فعلاً سنة ١٣٩٨ هـ •

بين المسيجيد والخيف

خرجنا من المسيجيد في سهل واسع نسبياً يسمى سهل النازية ، تلتقي فيه وحوله أربعة أودية ، هي : وادي السدارة الذي أتينا معه ، ووادي رحقان من الشمال كما تقدم ، ووادي الجي : وادٍ فحل يأخذ مياهه من جبال قدس وورقان ، فيسمى هناك الحلقة ، أي حلق الوادي ، وتأنيث مثل هذا عندهم مسموع ، ثم يدفع فوق مضيق الصفراء بقليل ، ووادي خرص : يأتي من الشمال يوازي رحقان من الغرب ، ولكنه أصغر منه ، فيصب فوق ريع المستعجلة عند بئر عباس •

ثم مررنا ببئر عباس فصعدنا ريع المستعجلة ، ثم هبطنا منه فكان (سَيَر) يسارنا بجانب المضيق ، فكنا نرى رملته الصغيرة من على الطريق ، وهو المكان الذي قسم عنده رسول الله ﷺ غنائم بدر كما جاء ذلك في السير •

وعلى بعد (٢٥) كيلاً من المسيجيد وصلنا الخيف (خيف الحزامي، وخيف البرعي ، وخيف بني سالم) كلها أسماء لقرية واحدة ، وهي قرية ظلت عامرة تسقيها عين ثم انقطعت •

وبعد الخيف بقرب مررنا بعين أم ذَيَّان : عين جارية عليها زراعة ، وبها سوق يسين الطريق •

وبعدها بقليل جاءنا من اليمين وادي طاشا أو ألاب ، ذلك أنهما يجتمعان فيصبان في وادي الصفراء معاً ، يأخذان ماؤهما من الفقرة (الأشعر) ثم جاءنا من اليمين أيضاً وادي رحاب ، وعند الكيل (١٦) من الخيف وصلنا الى الحمراء

الخيف

بقايا قرية تقدم وصفها ، فيها خرائب تدل على أنها كانت من أعمر قرى هذا الوادي ، فلما انقطعت عينها هجرها أهلها ، الا قليلاً منها ، وفيها مسجد ومدرسة ابتدائية وسوق كبير يوم الجمعة ، تبعد عن المدينة (١٠٥) أكيال وعن المنصرف (٢٥) كيلاً ، وعن الحمراء (١٦) كيلاً •

وصف الأرض من الخيف

تقع في مضيق من الوادي تشرف عليها الجبال الشاهقة ، حتى لاتكاد ترى من بعض جهاتها سوى بضع مئات من الأمتار ، يركبها من الجنوب جبل شَيْبان : جبل ضخم شاهق ، أسمر يصل سفحه الى بعد ٥٠ متراً من البلدة ، ثم مجرى السيل يحف المدرسة الابتدائية من الجنوب •

من الشرق : جبل (فقه) نعف من جبل شيبان أسود •

من الغرب : السَّيف : عرف أسود منقاد من الجنوب الغربي الى الشمال ، حتى يكنع عند شريعة أم ذَيَّان .

ومن الشمال : يشرف عليها نعف جبل صغير أسود طيني التربة ، تتغشاه مبان حجرية خربة متراصة لاتدع بينها غير مسالك للمشاة ، تدل كثافتها على عمران هذه البلدة الغابر ، وانها كانت كثيفة السكان ، أما اليوم فسكانها لا يزيدون عن مائتي نسمة ، وبطرف الطريق مما يلي الوادي قلعة مجصصة مهدمة بقي جدارها الغربي ، فيه فتحات للرمي بالبنادق ، هذه القلعة بناها الشريف عبد المطلب بن غالب سنة ١٢٦٨ هـ عندما غزا ديار حرب فقتل وسبا منهم كثيراً [١] .

ويظهر من وراء ذلك الجبل الصغير الوَرِّيق : عالياً أسود ، والوادي ينعطف قبلهما من الشمال الى الجنوب ، واذا تجاوزها انعطف إلى الشمال ، فهي في مكان يكّون الوادي عليه قوساً ، وهي في ظهرة بين ذلك . سكانها بنو سالم من حرب .

الحَمْراء

بلدة كانت عامرة كثيرة الزرع والنزل ، وكانت لها عين جارية الى سنة (١٣٧٠ هـ) فانقطع ماؤها وتفرق أهلها فاصبحت خرائب ليس بها ساكن ، ثم قامت فيها زراعة على الآبار فظهر ماؤها غزيراً ، الا أن أهلها لم يعودوا اليها ، ولن تعود كما كانت ، فقد توطن أهلها في مكة وجدة ، وأصبحت لهم منازل فخمة وتجارة عريضة ، وكان سكانها قبيلة الحوازم . وهي المرحلة التاسعة من مكة لمن جاء على طريق مستورة فغيقة ، وتبعد عن الواسطة (٢٦) كيلاً . في الشمال الشرقي ، وتبعد عن المدينة (١٢١) كيلاً .

---

(١) « نسب حرب » ص ١٤٢ .

وصف الأرض من الحمراء

في الشمال : المطاوسية : جبل أسود ذو رأس أزلج مما يلي الغرب، يليه من الشرق حَمَّة الهاشمي ، دون ذلك الهويشمي : عين مندثرة في لصق المطاوسية من الجنوب .

و في الجنوب : ترى تلعتي العقدة وأم حرابش ، ثم ينعطف الطريق مكوّناً قوساً من جنوبها يفصل بينهما درب السيل .

أما غرباً : فجبل الحمراء ، مستطيل استطالة أرض العين ، عليه بعض الخرائب التي كانت منازل أهل الحمراء ، ومنه ريع يطلعك غرباً على الصفيراء حيث توجد مقبرة مشهورة ، فيها قبر يقال له : قبر أبي عبيدة ، يزعمون أنه أبو عبيدة عامر بن الجراح ، رضي الله عنه ، وهذا من أوهام العامة الذين يأخذون دائماً بتطابق الاسماء ، والثابت أن أبا عبيدة توفي في عمواس بفلسطين ، بمرض الطاعون [1] .

شرقاً : جبل العَمَّاريّة ، ممتداً محاذياً لأرض العين ، تسيل منه تلعة العمارية ، دونه الطريق على استطالته ، ثم الوادي يحف بأرض العين ، تنياه عنها ضفائر وضعت لصده .

وبسفح هذا الجبل مما يلي العين كان سوق الحمراء والمحطة الرئيسية ، وبه كانت القلعة التي بناها الشريف عبد المطلب بن غالب لاخضاع أهل الحمراء ، وذلك سنة ١٢٦٨ هـ ، وقد اندثرت القلعة ، وانمحى أثر السوق .

وبعد الحمراء جاءنا من اليمين وادي الصفيراء ، وفيه وادي العُش،

---

(١) انظر « معجم معالم الحجاز » ، مادة الصفيراء .

يأتيه من الغرب ، ومن هذا المكان يفترق الطريق الى : طريق ينبع ، يأخذ أسفل الصفيراء ، ثم ريع ذفران (قلعة حرب) فواسط فبئر سعيد .

وهذا هو الطريق الذي أخذ رسول الله ﷺ في غزاة بدر ، حين قرر عدم الدخول بين جبلي الصفراء اللذين أمامنا بقليل ، الا أنه لما هبط من ذفران عدل يساراً على الجبال الصفر ــ معروفة غرب الواسطة ــ ثم على الدَّبَّة ثم بدر .

وواسط هذا هو الذي يقول فيه كُثَيِّر :

أجدّوا فأمّا آل عزّة غدوة فبانوا وأما واسط فمقيم

الواسطة

وعند الكيل (١٢٨) من المدينة المنورة دخلنا قرية الواسطة ، مقر الشيخ ابراهيم بن سلامة والد القاضي محمد بن ابراهيم صهرنا ومرافقنا، وكنا قبيل دخولنا اياها مررنا بقرب قرية الخرماء يسارنا على حذفة .

والواسطة قرية عامرة ، تتكون من ثلاث عيون ، فيها مركز امارة تابعة لامارة بدر ، ومستوصف صحي، ومركز شرطة ، ومدرسة متوسطة وأخرى ابتدائية ، ومسجد جامع ، ولها سوق كبير تقام يوم السبت ، أي بعد سوق الخيف بيوم،تباع في هذا السوق جميع الحاجيات حتى الابل، فإذا انتهى يوم السبت كاد ذلك السوق يقفر .

وسكانها قبائل من بني سالم من حرب ، مثل : الحوازم ، والعمور والحنيطات ، وغيرهم .

وأكثر عمرانها اليوم خرائب ، لأن كثيراً من أهلها هجروها الى مكة والمدينة وغيرهما من المدن ، حيث فرص العمل ، والرفاهية ، وكانت تسمى الصفراء وبها سمي وادي الصفراء ، والعيون التي تتكون منها هي : الجديدة ، الصارّة ، والسفلى .

وصف الأرض من الصفراء

يخترق الوادي القرية بين الصارّة والجَديد ، والسوق بطرفه من جهة الجديد .

ومن الشمال : جبل يتفرع الجديد ، تحته بنيان كثير من اللبن يخالطه قليل من الحديث بالطوب الاسمنتي .

وفي الجنوب : يشرف على الصارّة جبل أسمر بينهما الطريق العامة ، والمباني على سفح الجبل مما يلي الطريق ، وهذه جل مساكن أهل الواسطة (الصفراء) ومعظمها خرائب من اللبن متراصة مما يدل على ازدهار عمراني قديم ، وكثافة سكانية كانت فبادت[1] .

ويظهر في الجنوب الشرقي جبل شيبان من وراء جبل أقل منه ارتفاعاً .

أما في الشرق : فترى جبل سمنة ، جبل كبير يضرب الى الحمرة ، يظلل الصباح عين الخرماء ، والوادي يمر دونه .

ومن الغرب: يشرف على القرية جبل ذَيْران، دونه شعب السرّاج وذيران وسمنة هما جبلا الصفراء اللذين تجنّب ﷺ ، المرور بينهما ، ذلك في غزاة بدر عندما سأل عن اسميهما فقيل له : هذا اسمه مخرىء وذلك مسلح .

---

(١) كان أهل هذه الديار أهل جمل ، وكان جل نقل الحاج بين مكة والمدينة والى عرفة عليهم ، فأثروا وعمروا القرى ، ثم جاءت السيارة فحلت محل الجمال وحل بحلولها فقر أهل هذه الديار فهجروها جماعات ووحدانا . انظر « نسب حرب » .

فعدل طريقه الى ذفران فالأصافر فالدَّبَّة فبدر ، ونستدل من هذا على أمــرين •

أحدهما : أن الرسول ﷺ ، كان شديد الرغبة بمعرفة الديار ، وقد فعل ذلك أيضاً في غزوة خيبر •

والثاني : كراهيته للاسماء القبيحة •

كنا قد صلينا المغرب في الحمراء قصراً وجمعاً ، ووصلنا في الساعة السابعة والنصف ، فنزلنا على الشيخ ابراهيم بن سلامة أمير أولاد أبــا الحياء من الحوازم ، وهــو والد الشيخ محمد صهرنا ومرافقنــا ، كان منزله رحباً ذا جدر مــن اللبن عاليــة ، وبعد العشاء تحدثنــا عن بعض الأماكن هنا ، والشيخ هو دليلي في كثير من أماكن الصفراء ، وقد أكد لي أن ذيران وسمنة جبلا الصفراء المار ذكرهما •

كنت متعباً فنمت مبكراً ، استعداداً لرحلة الغد •



اليوم الثالث عشر للرحلة

(الخميس ١٣٩٣/١٢/١٠ هـ)

من الواسطة الى غَيْقَة

كان الجو جميلاً ، وأخذت السحب تتكاثف مع نسمات رقيقة رخية وشيء من الرطوبة .

تحركنا في الساعة السابعة والنصف ، أنا والشيخ إبراهيم والد الشيخ محمد والطالب علي ، والطالب عبد الحميد بن محمد بن إبراهيم .

خرجنا من الواسطة على الطريق المعبدة مسافة ثلاثة أكيال بتجاه بدر فمررنا بقريتي : دغبج ، والحسنية ، ثم فرق بنا طريق غَيْقة يساراً جنوباً عدلاً ، على طول وادي الخائع الشامي قابلاً ، بين جبال سمر لانبات فيها ، والوادي شعب جرجوب لازرع فيه ولا نبات الا الحرمل وشجر السمر ، وبعد عشرة أكيال وصلنا الى بئر رائق بن عوادة المحمادي ــ وديار المحاميد تبدأ من هذا المكان فتشّرق الى الجي ــ وبعد ثلاثة أكيال من تلك البئر صعدنا ريع الخائع ، ثم انحدرنا في الخائع اليماني .

الخائع

شعبتان : أحدهما : تسمى الخائع الشامي ، والأخرى : تسمى الخائع اليماني ، تتقاسمان الماء من ثنية ريع الخائع ، والأولى تصب في وادي الصفراء (يليل قديماً) .

والثانية تصب في غيقة من الشمال .

وبهذا الوصف أوردهما ياقوت في « معجمه » .

وقال كثيِّر عزّة :

عرفت الـدار كالحلل البوالي بفيف الخائعين الى بعــال

وبعد سبعة عشر كيلاً وصلنـا الى بئر البتراء ، وكانت هضبـة غَيْقة على يسارنا من أشمخ الجبـال ، وكانت تعرف باسم (فِعْرى) وترى في الشمال منها جبل صُبْح (ثافل الأكبر) ووادي الملف ــ ملف غيقة ــ بينهما • وهنا أخذ وادي الخائع في الاتساع ، ونباته غابات من شجر السمر ، ولا زراعة فيه ، ثم سرنا بمسير الوادي جنوباً غربياً حتى صار جبل فعرى خلفنا بيسار ، فتركنـا الوادي ينحدر يميناً واعتـدل الطريق جنوباً عدلاً ، فصار فعرى خلفنا وثافل أمامنا •

بئار ابن حصاني

وعلى (٢٦) كيلاً من الواسطة (الصفراء) وصلنا الى بئار ابن حصاني قاعدة غَيْقة ، التي كانت يوماً عامرة ، فوجدناها خرباً يباباً •

طفنا حول بئار ابن حصاني فتعديناها ، وعلى مسافة كيل واحد وجدنا بئراً زراعية عليها زراعة ضعيفة وماؤها قليل ، ليس في تلك الجهة زراعة غيرها ، وكان صاحب هذه المزرعة يدعى سعيد الصقير من بني صبح أهل هذه الديار ، فدعانا الى الشاي ، وعليه تحدثنا عن الأماكن المحيطة [1] ، وكان ذا معرفة تامة ببلاده •

وبئـار ابن حصاني هذه كانت محطـة عامرة على احـدى طرق الحج الى سنة (١٣٦٠ هـ) وهو العام الذي انقطع عنها فيه سير القوافل بحلول السيارة محل الجمل ، فقضي عليها ، فوجدناهـا ذات

---

(١) انظر بحثنا عن غيقة في الرحلة الثالثة من هذا الكتاب .

حوانيت عديدة مهدم بعضها ، وبعضها لازال صالحاً للاستعمال ، وبنيانها كله بالحجر تتخللها أزقة ضيقة تفتح اليها أبواب تلك الحوانيت، وفيها قصر مجصص مكون من ثلاثة أجنحة لازال قوياً صامداً ، وقد نزعت أبوابه ونوافذه ، قالوا هنا : أنه كان من أملاك الدولة كان يقيم فيه حاكم البلدة ومفرزة من الجند •

وبجانب البلدة ثلاث أبار الى جهة الغرب ، وواحدة الى الشرق ، وهي في وسط وادي غَيْقة يفترق عنها تحميها أكيمات سود تقع منها الى الشرق ، وتبعد عن المدينة (١٥٤) كيلاً ، وهي منسوبة الى ابن حصاني ، وهو لقب شيوخ بني صبح من بني سالم من حرب ، وكان أحدهم حفر هذه الآبار فصارت محطة يقال لها غيقة ، الا أن الغالب نسبتها الى ابن حصاني •

ومنها يفترق الطريق الآتي من مستورة الى شعبتين : شعبة تقبل وادي غيقة فتأخذ في ملف غيقة ثم وادي النظيم (العرج قديماً) ثم تأخذ الشُفيّة ، الى المسيجيد ، وأخرى تأخذ الخائع شمالاً ، الى الواسطة فالحمراء فالخيف فالمسيجيد •

وهي المرحلة الثامنة من مكة ، وكنا ذكرنا ــ في مستورة ــ إن الطريق يفترق هنالك الى ثلاث شعب ، فهذه احداها •

وصف الأرض من بئار ابن حصاني

في الشمال : ترى ــ عن بعد ــ سلسلة الأجيبل ، يمر دونها وادي القُصَيبة ، وهو أسفل الخائع اليماني : وادٍ متسع يصب في غيقة بعد بئار ابن حصاني • دون ذلك كله ــ عن قرب ــ بروث صغيرة يفصل بينها وبين البلدة مشليق من الوادي •

في الجنوب : جبل ثافل الأكبر : جبل شامخ يضرب الى الحمرة ،

وهذا أوله هنـــا ثم يمتد في سلسلة مجنبا الى الأبواء ، ويسمى اليوم جبل صبح ، ومن أبرز القمم جبل المنصير : جبل شاهق ذو شخانيب أمغر ، وهو أحد رؤوس ثافل ، يجاوره من الغرب مشعر ، وهو غير مشعر حزرة ، وفي الجنوب الغربي يبدو جبل الغَصّاص : جبل حائز الى جهة الساحل يمر دونه وادي بَيْنة من الشرق الى الغرب ، دون ذلك بريثات سود تحد النظر تسمع منها المنادي ، ثم قيم الوادي ودلبوح سيلة •

في الغرب : ترى جبل كراش الى الشمـــال الغربي ، دونه وادي القُصَيبة المتقدم ، وأخر الغرب من جهة الجنوب ترى جبل ظَبْية ، يمر سيل غَيْقة بينها وبين جبل الغَصَّاص بعد أن يصب فيـــه وادي بينه ، ثم يسمى الوادي المعرج •

وفي الشرق : يعترض جبل صبح ، وترى المنصير من هنا مقنّيفاً ، ثم فجوة بينه وبين جبل فعرى (هضبة غيقة) هـــذه الفجوة هي امتداد لوادي غَيْقة ، وتسمى هناك وادي الملف ، وهـــو اسم قـــديم يعرف بملف غيقة •

من تأريخنا العائم

عدنا الى الواسطة فوجدنا الغداء جاهزاً ، وظهر أن الشيخ ابراهيم قد أوصى من يذبح ذبيحة فيعدها أثناء غيابنا ، فحضر بعض المدعوين من أهل البلد ، فتذاكرنا أسماء هـــذه الديار وتأريخها ، وقضـــايا المحاكم والنزاع في الأراضي ، وهو أمر اشتد في السنين الأخيرة لاقبال الناس على أحياء القفر •

ومما جاء ذكره : ان سيلاً اجتـــاح هـــذا الوادي سنة ١٣٣٠ هـ يسمونه (أبو نفوس) لكثرة ما أغرق من الناس •

وقيل : ان ارتفاعه وصل طيرة القمرية[1] ، وقد أصبح بعض الناس مقثيا في رؤوس النخل • وهو سيل يعرف في ديارنا ـ جهات خُلَيص ـ بسيل (أبو طبحة) لأنه كان يبطح الجبال ! وقد أراني والدي ـ يرحمه الله ـ متناً عالياً من أحد الجبال فقال : ان البقر أصبح يتضابح هناك ، فدلي بالحبال الى السهل •

ومن طرائف هذا السيل : ان رجلاً بالحمراء كان يعد نقوداً ذهبية ، فداهمة السيل فوضعها في ذيله ليسرع بها قاطعاً الوادي فأدركه السيل فقذف به في رأس نعف من نعوف الجبال فأصبح هناك في شبه غيبوبة وهو ممسكاً تلك النقود ضاماً ثوبه عليها !

ومنها : ان جارية ـ أمة ـ اجترفها السيل من قرب ملل غرب المدينة فتمسكت في فرع شجرة فظلت سابحة حتى رماها قرب مدينة الوجه فالتقطها من باعها على رجل من أهل المدينة ، فلما عرفها سيدها قاضى مالكها الأخير ، فشهدت لسيدها السابق ، وذكرت قصتها •

* * *

(١) اي : اعلى مدى تطيره في السماء .

اليوم الرابع عشر للرحلـة
(١١ صفر ١٣٩٣ هـ)

العودة الى المدينة

عدنا الى المدينة على الطريق التي أتينا عليها ، فوصلنا اليهـا في الساعة العاشرة صباحاً ، وأدينا صلاة الجمعة في المسجد النبوي الشريف، وكان مزدحماً ازدحاماً شديداً ، فصلّت صفوف كثيرة خـارج أبواب المسجد .

وقد يقتل الانسان بعض التطبب

كان طبيب منطقة مكة العسكرية قد كوّن لي صيدلية اسعاف فيها كثير من الأقراص العلاجيـة ، عن كل مـا يمكن أن يحدث للمسافر ، كالصداع ، والمغص ، وللوقاية ضد الملاريا .

وفي هذا اليوم بلعت حبتين دفعة واحدة من أقراص ضد الملاريا ، وأخريين من أقراص الفحم ، وقرص من فيتامين (ب١) ، وبعد قليـل شعرت بصداع أليم ، فابتلعت على أثره قرص نوفالجين ، وبعد المغرب قرصاً آخر ، ولم أذهب الى المسجد لصلاتي العصر والمغرب .

* * *

اليوم الخامس عشر للرحلة

(السبت ١٢ صفر ١٣٩٣ هـ)

مواصلة الرحلة في طريق العودة الى مكة

في الساعة السابعة والنصف صباحاً ودعت الأهل هنا ، وأوصلت بعض أبناء العائلة الى المدارس ، ثم خرجت من المدينة على طريق مكة .

سويقة والسيالة وصُخَيرات اليَمَام

سرت (٤١) كيلاً على الطريق المعبدة فصرت بين ملل والفريش ، ففر يميناً طريق الجفر الذي سبق ذكره ، فأخذته هابطاً وادي الضنيكة (مضيق الفريش عند عَبّود) ، وبعد أقل من كيل واحد فرق طريق حزرة يساراً فسلكته متجهاً غرباً عدلاً ، ومن هنا بدت لي شعوف جبال الفقارة من وراء سلاسل أقل منها ارتفاعاً ، ثم سارت الطريق في صحاصيح وسيوح ، وبعد خمسة أكيال هبطت أعلى وادي الرمث فقبله الطريق منحرفاً جنوباً ، وفيه بئر سقي على ٨ أكيال من الاسفلت ، ثم عاد غرباً فهبط وادي حزرة فأخذه قابلاً قليلاً فظهرت لي ربوة ليست بالعالية ، فيها بئر واسعة الفوهة ليس فيها مـاء ، ويظهر أن تلك الربوة مزرعة لتلك البئر ، وتبعد عشرة أكيال عن الطريق المعبـدة ، تكتنفهـا الجبال السود ، وتجاورها من الشمال أضلع حمر ، وتعرف ببئر الرتيعي، رجل من الرتعة من حرب .

قبل الطريق وادي حرزة ، وفيه أثار تدل على أنـه كان زراعيـاً مسكوناً ، أما الآن فلا يشرب منه الظمآن ، ثم بـدأ الوادي يتسع حتى صار رحبة بين هضاب مغر ، وهنا وجدت امرأة ترعى غنماً وتهش عليها من أشجار السمر ، فسألتها عن سويقة ، فقالت عند البئر التي أسفل الوادي أو دونها بقليل ، وأردفت قائلة :(أنت يوم انك تنشد عن سويقة تبي تظهرها ؟) فقلت لها : تظهر اذا أراد الله • فقالت (جزاك الله خير) •

وهذا الحديث مع هذه المرأة يدل على أن أهل هذه الديار يعلمون أن سويقة كانت عيناً جارية بدليل قولها :(تبي تظهرها) والظهورعندهم للعيون فقط •

عدت حادراً الوادي ، وقبل البئر السابق ذكرها رأيت الى يميني آثار في نفحة من الأرض لايشك من رأها أنها كانت تسقى بعين ، هذا اذا كان ذا خبرة في هذه الديار ، فجنبت اليها فاذا أنا أمام بركة كبيرة واسعة اندفن معظمها • فنزلت فعاينتها فاذا هي بقايا ذلك المجد المؤثّل وذلك الماضي المشرق ولا غير •

سُوَيْقة اليوم

الأرض التي كانت تزرع على جانب وادي حرزة الأيمن ، وتبلغ قرابة (٧٠٠) متراً طولاً ، وعرضاً يتراوح بين مائة متر الى ما يزيد عن مائتين ، ويشمل اسم سويقة اليوم هذا الجزء من الوادي ، ويطلق عليها بعض أهل الديار سويقة الأشراف •

ولهذه الأرض بركة كبيرة يبلغ ضلعها (١٩٫٥٠) متراً أر قرابـة العشرين متراً ، والباقي من ارتفاعها أقصاه (١٤٠) سم ، ثم آثار مجاري

مياه تتخلل الأرض لم تبق منها الا علائم باهتة ، وهناك آثار تظهر على شكل رجوم ، يبدو أنها كانت منازل وقصوراً ، لم يبق منها الا أكوام حجارة ، وبعض خطوط حجرية داخل الأرض الزراعية تدل على تقاطيع بالضفائر ، أي : حوائط .

ولا تزال أرضها صالحة للزراعة .

وصف الأرض من سويقة

يأتيها وادي حزرة من الغرب ، ضيقاً فينعرج عند شريعة العين ، ثم يتسع حيث الأرض الزراعية ، ثم يتجاوزها الى مطلع الشمس ، ثم يعرج شمالاً شرقياً فشمالاً عدلاً ، كل ذلك على مرأى من العين ، وتكتنفها ثلاثة أجبـــل :

أحدها : من الغرب الى الجنوب ، والأرض الزراعية بلصقه ، وفيه بعض الآثار من بقايا القصور المهدمة ، والثاني : من الشمال العدل بينه وبين البركة والأرض الزراعية مجرى السيل ، وفيه من الشرق آثار قصور كثيرة يظهر أنها كانت القرية الرئيسية ، والثالث : من الشرق ، ممتداً من الجنوب الى الشمال ، وبلصقه حجيرة كبيرة تزبن أنهيـــال التربة عن الزراعة ، وتأتيها من الجنوب تلعة صغيرة فيها ريع بين الجبلين الأول والثالث يأخذه طريق الى وادي الرمث ، ثم الى السيالة يسمى (درب الخَوَيّ) ، والخوى مكان يقرن مع هذه المعالم قديماً .

وجبال سويقة تضرب الى الخضرة ، حولها شجر طلح كبار مما يدل على رواء الأرض ، وهي تبعد عن المدينة بـ (٥٢) كيلاً ، منها (٤١) كيلاً معبّداً ، والباقي ترابي ، والفريش عنها في الجنوب مـــع ميل الى الشرق على (١٢) كيلاً ، والسيالة جنوباً من سويقة على ستة أكيال .

خرجت من عند البركة فتوجهت الى تلك الآثار الواقعة في الشمال الشرقي ، فصعدت سفح الجبل المشرف على سويقة من الشمال ، فوجدت عدة أكوام من الحجر تدل على بقايا قصور ، وكان أضخمها قصر أقيم على برث من الجبل بحيث يكشف كل الوادي حول المزرعة .

ومن هذا المكان ظهر لي رأس ورقان جنوباً عدلاً عليه العسام .

سويقة في التأريخ

كانت سويقة قرية عامرة لبني الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وكان أهلها قد خرجوا على الخلافة العباسية فقوتلوا وعضد نخلها وغورت عينها مراراً ، وقد اشتهرت في كتب التأريخ بأنها بلدة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

كانت الدعوة في عهد بني أمية لآل البيت عامة دون تخصيص ، ثم اجتمع بنو هاشم فانتخبوا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي فيما بعد ، فلما نجحت ثورة بني العباس واستولى أبو العباس الهاشمي على الخلافة بايع بنو علي الا محمد بن عبد الله وأخاه ابراهيم ، ولما تولى أبو جعفر المنصور لم يبايعاه ، فجد في طلبهما وصار يعزل كل وال للمدينة لا يستطيع القبض عليهما ، ثم حبس أباهما عبد الله بن الحسن ، رضي الله عنه ، ثم ولي على المدينة رياح بن عثمان المُرّي ــ وبنو مرة لهم سوابق سوء في المدينة ــ فشدد على آل علي وضيق عليهم .

وفي سنة ١٤٥ للهجرة ظهر محمد بن الحسن في المدينة وأطلق السجناء وخطب أهلها فمالوا إليه وبايعوه ، وجرت بينه وبين المنصور مكاتبات ورسائل .

ثم ندب اليه المنصور عيسى بن موسى ، وكان أبو العباس جعله ولي عهد بعد المنصور ، فسار بالجيش الى فيد — قرب حائل — فلما سمع أهل المدينة الخبر تفرق بعضهم عن محمد وسارع بعضهم الى عيسى ، فخندق محمد حول المدينة ، ولكن الجيش داهمه فقاتل قتلا شديداً حتى قتل في الرابع عشر من رمضان من السنة المذكورة ، وكانت مدته سبعة عشر يوما [1] . ثم تقدم الجيش الى سويقة معقل بني الحسن فدمرها تدميرا .

قال البكري في « معجمه »[2] : باسناد عن اسماعيل ، قال : لقيني موسى بن عبد الله ، فقال : هلمّ حتى أريك ما صُنع بنا بسويقة ، فانطلقت معه ، فاذا بنخلها قد عضد من آخره ، ومصانعها [3] قد خرّبت ، فخنقتني العبرة . فقال : إليك ، فنحن والله كما قال دريد بن الصِّمَّة :

تقول ألا تبكي أخاك وقد أرى ... مكان البكا لكن جبلت على الصبر

وقال سعيد بن عقبة (الجهني) :

نزلت ببطحاء سويقة، فاستوحشت لخرابها، الى أن خرجت ضَبُع من دار عبد الله بن الحسن ، فقلت :

انيّ مررت على دار فاحزنني ... لما مررت عليها منظر الدار
وحشاً خراباً كأن لم تغن عامرة ... بخير أهل لمعتّر وزُوّار
من للأرامل والأيتام يجمعهم ... شتى الموارد من جلس وأغوار[4]

---

(١) راجع « تأريخ الدولة العباسية » ص ٦٠ وما بعدها .
(٢) مادة سويقة .
(٣) المصانع : القصور والقلاع .
(٤) في « بلاد ينبع » ص ١٩٠ «وأكوار» فاخترت هذا اللفظ لأن الغور ضد الجلس ، فهو يقول : من أهل الجلس وأهل الغور ، ولا وجه للأكوار هنا .

مأوى الغريب وساري الليل معتسفاً وعصمة الضيف والمسكين والجار
بها مساكن كـان الضيف يألفها عند التّسنّم مـن نكباء مهمار
فيها مرابـط أفراس ، ومعتلج وحامل أخريات الليل مـن مار
فيهـا معالم الا انهـا درسـت مـن واردين ، ونزّال وصدّار
فيهـا معان وآيـات ومختلف في سالف الدهر، من باد وحضّار
ثم انجلت، وهي قد بادت معالمها ألقى المراسـي فيها وابل سـار
وخاويات كساها الدهـر أغشية مـن البِلَى بعد سكـان وعمّار
جـار الزمان عليها فهـي خاشعة طورين، من رائحٍ يسري، وأمطار
فغاضت العين لمـا عيل مجرعهـا فيض القَري جفت عنه يد القارى
ودارت الأرض بي حتى اعتصمت بها واستكّ سمعي بعرفـان وانكار
حتى اذا طـال يـوم مايفارقني ماأوجع القلب من حزن وتذكار
وحان مني انصرف القلب وانكشفت عمياء قلب شـراه النوم مهجار
لايبعـد الله قوماً كـان يجمعهم منـدى سويقة أخياراً لأخيـار
الباذلـين إذا ماالثقـل أعدمهـم جادت أكفّهم بالجـود مـدرار
والرافعين لساري الليل نارهـم حتى يؤم عـلى ضوء من النـار
والدافعين عـن المحتـاج خلّته حتى يحوز الغنى من بعد اقتـار
والقائلـين لـه أهـلاً بمرحبـة لج في انفساح ورحب أيّها الساري
والضامنين القِرى في كل راكدة فيها سديف شظايا تامك وارى[1]
والمدركين حلومـاً غـير عازبـة والناهضين بجـد غـير معثـار
والعاطفين على المولى حلومهـم حتـى يفيء بحلم بعـد إدبـار
والعائديـن إذا ضنت بدرتهـا أمّ الفصيل فـلم تعطف بادبـار

---

(١) التامك : السنام العظيم المكتنز بالشحم .

والناشرين إذا ماشتوة ، جمدت   فلم يحسّ بنار قدر أيسار
والمانعين غداة الروع جارهم   بكل أجرد،أو جرداء مخطار
والرافعين صدور العيس لاعبة   تبغي الإله بحجّاج وعمّار
على حراجيج أظلاع معوّدة   ترمي الفجاج بركبان وأكوار
فليتني قبل ماأمسي لحزنكم   وكل شيء بميقات ومقدار
لُفّت عليّ شفاه القبر في حدث   عرى المنون، فرادي تحت أحجار
ولم أر العيش في الدنيا ولم يرني   ولم يجئني بأنياب وأظفار
ولم أفض عبرات من مواكِلة   على كريم،بسفح الواكف الجاري[1]

ويقول البكري : هي على مقربة من المدينة ، وبها كانت منازل بني حسن بن حسن بني علي رضي الله عنهم • وحدث يموت بن المزرّع ، عن ابن الملاّح ، عن أبيه ، عن اسماعيل بن جعفر بن ابراهيم ، عن موسى بن عبد الله بن الحسن ، قال : خرجت من منازلنا بسويقة جنح ليل ، وذلك قبل خروج محمد أخي ، فاذا بنسوة توهمت أنّهن خرجن من دارنا ، فأدركتني الغيرة ، فأتبعتهن لأنظر حيث يردن ، حتى اذا كنّ بطرف الجمير ، التفتت احداهنّ وهي تقول :

سويقة بعد ساكنها يباب   لقد أمست أجد بها الخراب

فقلت لهنّ : أمن الانس أنتنّ فلم يراجعنني • فخرج محمد بعد هذا ، فقتل وخربت ديارنا •

وقال ياقوت : موضع قرب المدينة يسكنه آل علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وكان محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، قد خرج (فيها) على

---

(١) « معجم ما استعجم » (سويقة) ، و (بلاد ينبع) ص ١٩٠ وما بعدها .

المتوكل ـ من ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ ـ فأنفذ إليه أبي الساج في جيش ضخم فظفر به وبجماعة من أهل بيته فأخذهم وقتل بعضهم وأخرب سويقة ، وعقر بها نخلاً كثيراً وخرّب منازلهم وحمل محمد بن صالح الى سامراء .

ثم يقول ياقوت : هي من جملة صدقات علي .

وهذا وهم حدث من تطابق الاسماء ، فسويقة علي ـ كرم الله وجهه ـ في ينبع ، لازالت معروفة .

وقال نُصَيب :

وقد كان في أيامنا بسويقة وليلاتنا بالجزع ذي الطلح مذهب
إذ العيش لم يمرر علينا ولم يحل بنا بعد حين ورده المتقلب

ومما تقدم تعرف أن سويقة استعادت مجدها بعد محمد بن عبد الله حيث دمّرت سنة ١٤٥هـ ، ثم دمرت في عهد المتوكل في القرن الثالث .

السَّيَالة

خرجت من سويقة عائداً على طريقي التي أتيت عليها ، فافترق الى اليمين طريق الخَوَيّ ، فسرت عليه فهبط وادي الشرفة (شرف السيالة) فقبلته فاذا أنا أمام آثار سوق فيه بئران كبيران دائرياً الفهوتين .

وكنت سألت كثيراً عن السيالة فلم أجد من يعرفها ، فلما سألت شخصاً هناك ، قال : السيالة ، هذه التلعة أما المحطة فهي بئر مرزوق .

فسألته عن مرزوق ، فقال : رجل من حرب .

فعرفت أن السيالة قد حرفت الى هذا الاسم .

والسيالة احدى محطات رسول الله ، ﷺ ، وظلت تمر بها قوافل الحجاج ردحاً كبيراً من الزمن ،حتى سيطرت قبيلة حرب على هذه الديار ،

وسيطرت بالتالي على وسائل النقل على هذا الطريق ، فصارت الطرق تفترق حسب رغبة شيوخ القبائل ، فافترق الطريق من المدينة الى الروحاء الى شعبتين : احداهما الطريق السلطاني القديم ، تأخذ من تربان على فرش ملل ثم خشم عبود فوادي الغميس فصُخيرات اليَمام ، فالى السيالة ثم عرق الظبية ، والأخرى تأخذ يساراً الى بئر درويش في وادي الفريش ، وهي المحطة التي سميت فيما بعد بالفريش ، ثم من الفريش على ريع عار فوادي عار ، فتجتمع مع الطريق السابقة عند التقاء وادي عار بوادي رَغِيبة . ورغم افتراقهما فان المسافة بينهما لاتزيد على ستة أكيال .

ولعل للبحث عن الماء وشدة الازدحام دوراً في افتراق الطريقين .

وعندما جاء عهد السيارات شقت الطريق المارة بالفريش ، فهجرت السيالة هجراً تاماً ، فلم يعد أحد يذكرها ، وكانت قد سميت بئار الصفاء لأن حفرها في صخر جله ، ثم سميت بئر مرزوق كما تقدم . وتبعد السيالة عن المدينة (٤٧) كيلاً تقريباً في الجنوب الغربي على الطريق السلطاني القديم ، وهو المسمى (درب الأنبياء) .

وصف الأرض من السيالة

تأتيها من الشرق تلعة تسمى السيالة الغربية ، وقد يقال لها الشامية، ذلك أن ثلاث تلاع تأخذ الماء من جبل واحد تسمى كل منها سيالة : تسيل الأولى الى الفريش شرقاً ، فتسمى الشرقية ، والثانية تسيل في وادي عار ، فتسمى رغيبة ، والثالثة التي فيها محطة السيالة تصب في غميس الحمام . ويأتي البلدة من الجنوب مفرح (ثنية) تراه منها جنوباً ينقسم ماؤها الى البلدة في الشمال ، والى رغيبة في الجنوب ، وهذا كان يسمى شرف السيالة ، ويسمى اليوم الشرفة .

ومنها ترى صخيرات اليمام على بعد ثلاثة أكيال شرقاً الى الشمال، يصلهما ببعض الطريق السلطاني . ويظلّلها من الغرب حيد ليس عالياً ، منقاد من الشمال الى الجنوب ، والبلدة بلصقه الشرقي .

فيها بئران كبيران دائريا المحيط فيهما الماء،وتتصل بهما من الجنوب آثار سوق تمتد على ضفتي الوادي ما يقرب من مسافة كيل ، أخرها من الجنوب بقايا قصر مجصص ، قال لي شيخ هناك : انه للدولة . والجادة المارة بها وبصخيرات اليمام لازالت واضحة كل الوضوح .

والى جنوبها الغربي مكان يسمى الشهداء ، وهو مقبرة في وادي رغيبة ، لعلها ذات علاقة بما جرى في سويقة التي تبعد من هنا ستة أكيال [1] .

البحث عن صخيرات اليمام

كان لعثوري على السيالة فرحة كبيرة ملأت نفسي غبطة وسروراً وانستني الكثير من المتاعب السابقة ، وبهذه الفرحة دخل الى نفسي أمل العثور على صخيرات اليمام .

خرجت من السيالة فانحدر الطريق في وادي رغيبة متجهاً جنوباً ، فوجدت شيخاً يضع على عينه نظارة طبية ، فسألته ، ومنه حصلت على معظم ما قدمت عن السيالة ، وبعد قليل عارضت الطريق المعبدة فعدت عليها باتجاه المدينة ، فصعدت ريع عار فوجدت مقهى فجلست فيه وشربت الشاي ، وهناك تقدم الي رجل فرحب بي متوهماً انني أحدهم ، وعرفت من يعني فاذا هو من أصدقائي ، ورغم أني لست بغيته فقد دفع عني ثمن الشاي ، وأرشدني الى صخيرات اليمام .

---

(١) انظر مخططاً في الرحلة الرابعة .

تحركت من المقهى في الساعة الحادية عشر والنصف صباحاً ، فسرت على الطريق المعبدة أمتاراً مشرقاً ففرق درب ترابي الى اليسار متجهاً شمالاً عدلاً ، جاعلاً بلدة الفريش يميني .

وبعد كيل هبطت وادي السيالة الشرقية : تلعة كبيرة تقدم الحديث عنها آنفاً .

وبعد ثلاثة أكيال من ربع عار وصلت الى سفح ضلع يسمى (التُّيَيْس) تصغير تيس ، جبل أسمر ذو رأسين أحدهما أطول من الآخر وأكبر ، يقع غرب بلدة الفريش بينهما جبل فِنْد الذي يظلل الفريش عشيا .

ومنه رأيت جبل عَبُّود شمالاً شرقياً ، ونظرت السيارات المارة في وادي الفريش على الطريق العامة ، ثم صعدت ريعاً يدع التتيس على يساره ، ولم أجد طريقاً مطروقاً للسيارات ، فاعتبطت طريقاً كان وعراً . فكانت الحذانيف تبرز حتى ظننت عجلات السيارة تتمزق[1] .

وبعد ثمانية أكيال وصلت الى ضليع صغير أسود ضننته الصخيرات على الوصف ، يمر الطريق السلطاني تحته من الجنوب ، فوجدت ثلاث بنات يرعين غنماً ، قد تغشت ذلك الضليع ، فتوقفت لأسألهن ، وما أن رأينني أترجل عن السيارة حتى فررن كالغزلان فتشعبطن تلك الصخور السود التي تشكل قمة الجبل[2] .

---

(١) الحذانيف : جمع حذنوف ، وهي الحجارة الحادة الأطراف .

(٢) تشعبط ، وتفرشي ، وتفربش : صعد صعوداً حاداً بسرعة . ولم أر من ذكرها من أهل المعاجم التي بين يدي ، ولكنها ـ لاشك ـ فصيحة ، ليست للعامية ولا للعجمة فيها صبغة ، وقد نبهت مراراً أن لغتنا ليست كلها مدونة في المعاجم .

كان هذا أمراً سيئاً بالنسبة لي ، فالأرض خلاء يباب الا ًّ منهن ، وها هن قد تحرزن بهذا الضلع ، ولو تابعتهن كان تصرفي أسوأ تنيجة •

حينئذ اتكأت على مقدمة السيارة وبدأت أخمس وأسدس ، وكن هن على أعلى صوت للمنادي يراقبنني مراقبة الحذر المرتاب! وأخيراً ناديت عليهن بأعلى صوت واعلمتهن بأنه لاقصد لي سوى معرفة مكان الصخيرات فقالت احداهن : (الصخيرات أرعها ، يعلمك عنها الرجال هذاك) •

واشارت الى الصخيرات التي هن عليها • فقلت : أين الرجل ؟ قالت : (انظريه في هذاك الشير) •

الصخيرات

ضليع أسود رأسه صخور سـود مناصيب بشكل عمودي ، يمر طريق الحاج القديم بلصقه من الجنوب تبعد عن السيالة ثلاثة أكيال شرقاً شمالاً ، وعن محطة الفريش سبعة أكيال •

وصف الأرض من الصخيرات

تعرف اليوم باسم الصخيرات مطلقاً •

ترى منها السيارات السائرة على الطريق العامة بين الفريش وملل ، مطلع شمس ، دون ذلك وادي الفريش غابة من شجر السمر ممتدة من أقصى اليمين الى أقصى الشمال ، وفي الجنوب : ترى جبل التييس — تصغير تيس — بينك وبينه وادي أبي النفوس ، وترى من الغرب مـن ذلك أول وادي السيالة الغربية ، ويسمى وادي الشرفة ، لريع في رأسه يسمى الشرفة ، كان يعرف بشرف السيالة ، فاصل بين الغور والجلس ، ذلك أن كل ما سال من شرف السيالة وريع عار وما والاهما ينقسم سيله الى : شمالاً في واد يملل ثم الى إضم ، وهذا جلس ، وجنوباً الى وادي

السدارة فالصفراء ، وهذا غور • واذا مددت نظرك وراء السيالة رأيت ذات الجياء من أشمخ جبال تلك الناحية ، بها ريع العويقل ، وتتصل غرباً بجبال الفقارة ثم الأشعر ، وتعرف ذات الجياء اليوم بالشّرثاء •

وفي العويقل يقول ابن أُذَينة :

ليت العويقل سدّته بجمّتها ذات الجياء عليه ردم ماجوج
فيستريح ذوو الحاجات من غلظٍ ويسلكوا السهل ممشى كل منتوج

فأجابه الخارجي ، وكان قومه سكان هذه الناحية :

خلوا الطريق إليه إن زائره والساكنين به الشّمّ الأباليج
مازال منذ أزال الله موطئة ومنذ أُذّن أن البيت محجوج
يهدي له الوفد وفد الله مطربة كأنها شطب بالقد منسوج
وكيف يوثقه سدّاً وهم لهم لبيّك لبيّك تكبير وتثجيج

ومن هذا المكان ــ الصخيرات ــ ترى جبل عَبّود شمالاً شرقياً حيث تجتمع أودية : الفريش وتربان بملل . ثم يتكون فرش ملل . المشهور بمعالمه التأريخية •

وتبعد صخيرات اليمام عن المدينة قرابة (٤٤) كيلاً على الجادة القديمة ، وبينها وبين السيالة ثلاثة أكيال كما قدمنا ، هذه جهة المدينة ، والسيالة جهة الروحاء •

السيالة والصخيرات في التأريخ

قال ياقوت : السيالة بتخفيف ثانية ، أرض يطؤها طريق الحاج ، قيل هي أول مرحلة لأهل المدينة اذا أرادوا مكة ، قال ابن الكلبي : مر تُبَّع بها بعد رجوعه من قتال أهل المدينة وواديها يسيل فسماها السيالة•

وقال البكري : قرية جامعة ، بينها وبين المدينة تسعة وعشرون

ميلاً ، وهي على الطريق منها الى مكة ، وبين السيالة الى ملل سبعة أميال ، وملل أدنى الى المدينة ، وقبل أن تصل الى السيالة بميلين مسجد لرسول الله ، ﷺ .

وروى سالم بن الغيب مولى ابن مطيع ، قال : كنت مع أبي هريرة فلما أشرف على السيالة قال : والذي نفسي بيده انها لمنازل أهل الأردن .

والسيالة لولد الحسن بن علي (رضي الله عنهما) ومنها الى الروحاء اثنا عشر ميلاً ، وحدث الحسين بن علي بن داوود الجعدي ، قال : كنت مع عمي الحسين بن داوود بن أبي الكرام بالسيالة ، وكان شديداً بربع الحجارة [1] ، فربعنا حجراً ، فاذا فيه :

يالك دهراً خلا بنا عجبه حوّل رأساً من حمقه ذنبه

واذا تحته : وكتب أبو خردلة الجني لسنة تسع .

صخيرات اليمام : قال ياقوت : تصغير جمع صخرة ، وهي صخيرات الثمام ، بالثاء المثلثة المضمومة ، والثمام نبت ضعيف له خوص أو شبه بالخوص ، وربما حشيت به الوسائد : وهو منزل لرسول الله ، ﷺ ، الى بدر ، وهو بين السيالة وفرش ملل .

وقال ابن اسحاق ، في غزاة ذات العشيرة : فسلك على نقب بني دينار ، ثم على فيفا الخبار ، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر ، يقال لها : ذات الساق ، فصلى عندها ، فثم مسجده ، وصنع له عندها طعام ، فأكل منه ، وأكل الناس معه ، فموضع أثافي البرمة معلوم هناك ، واستقي من ماء به ، يقال له المشترب ، ثم ارتحل فترك الخلائق بيسار ، وسلك شعبة يقال لها : شعبة بني عبد الله ، وذلك اسمها الى اليوم ، ثم

---

(١) ربع الحجارة : تمثيلها للبناء . وهذه المسافات التي ذكرها البكري مضبوطة تماماً .

صب الى اليسار حتى هبط يليل [1] ، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة، واستقى من بئر الضبوعة ، ثم سلك الفرش : فرش ملل، حتى لقي الطريق بصخيرات اليمامة [2] .

وفي غزاة بدر ، قال ابن إسحاق : فسلك طريقه من المدينة الى مكة، على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذي الحليفة [3] ، ثم على أولات الجيش . قال ابن هشام : ذات الجيش .

ثم مر على تربان ، ثم على ملل ، ثم غميس الحمام من مريين ، ثم على صخيرات اليمام ، ثم على السيالة ، ثم على فج الروحاء [4] .

قال صاحب الرحلة : والصواب عندي ما قال ابن اسحاق : (صخيرات اليمام) لأن ابن اسحاق أعرف بالمدينة ، ولأن أرضها لاتنبت الثمام ، ولاكنها مغان للقمري ، واليمام والقمري نوعان من الحمام ، وواديها يدعى غميس الحمام .

الفريش مرة اخرى

بعد أن هبطت من صخيرات اليمام أخذت شرقاً في وادي غميس الحمام بين طلح دوح كبار ، فعطفت الى الجنوب فوجدت رجلاً من الرحلة سكان هذه الأرض ، فشرح لي كل ما أريد ، ولفت نظري قوله : (أم الريين) فلما حددها لي عرفت أنه يقصد تلك البلدة التي ظلت عامرة، وجاء اسمها بصيغ كثيرة . انظرها فيما يتبع [5] .

---

(١) الصواب : ملل .
(٢) سيرة ابن هشام ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ .
(٣) وهي الطريق المطروقة اليوم .
(٤) سيرة ابن هشام ص ٦١٣ .
(٥) انظرها في الرحلة الرابعة .

عدت الى الفريش وكانت الساعة الواحدة ، ولم يؤذن أحـد في الفريش رغم وجود مسجدين ، فتوجهت الى أحـد المسجدين فوجدته مغلقاً ، ثم الى الآخر فوجدت شيخاً يصلي منفرداً ، فصليت وخرجت الى مقهى عرفت من صاحبه أن الناس قـد تفرقوا عن البلد ، وأن المسجد الحكومي هنا مغلق ، ذلك أن الطريق جنّب عن البلدة ـ كما أسلفنا ـ فظهرت المقاهي والحوانيت مهجورة •

بئر درويش

وفي الفريش بئر درويش ، تقدمت الاشارة اليها ، وكانت هـذه المحطة تسمى بها الى عهد الثورة العربية الكبرى ، حيث كانت احدى قواعدها ، ثم أخذت اسمها من الوادي ، وهي بئر واسعة الفوهة ، مطلّعة عن السيل ، دائرية المحيط ، غزيرة الجم ، تقع في بحر الوادي على طرف البنيان من مطلع الشمس •

الروحاء مرة ثانية

خرجت من الفريش على طريق الاسفلت باتجاه وادي الصفراء ، فنزلت الروخاء على بعد ٢٥ كيلاً من الفريش ، وهنا كان الاعياء قد بلغ مني مبلغاً لم أعرفه قبلاً ، فيدي لم تعد قادرة على مسك القلم ورجلي أخذت تعجز عن الدعس على موقد المحرك ، وبدا على كتابتي الاختصار ، وبدأت أفكر جدياً في انهاء الرحلة ، ارتميت على سرير في المقهى ، وما أسرع ما أخذني نوم عميق قطعة علي المقهوي ينبهني الى الشاي الذي كان أبغض طعام عندي في هذه الآونة ، فأخرجت الصيدلية من درج السيارة وتناولت قرصاً من النوفالجين ، وتمددت مرة أخرى •

وبعد قليل شعرت بشيء من الانتعاش ، فشرعت أدون ملاحظات اليوم ، وتحدثت الى شيخ عن الأماكن المحيطة بالروحاء •

الى المنصرف والصفراء

في الساعة الخامسة تحركت من الروحاء الى المسيجيد (المنصرف قديماً) على سبعة أكيال من هنـــا ، فوجدت نفراً من قبيلة الأحامدة ، فأرشدوني الى موضع المسيجيد ، وهو المسجد المنسوب الى رسول الله ﷺ ، في هذه الناحية فاذا هو في شعب يأتي البلد من الشمال من جبل الشامي ، والمسيجيد للحجلة من بني سالم ، وتسكنه قبيلة الأحامـــدة لقرب ديارهم •

ثم واصلت سيري على الطريق التي سبق وصفها في اليوم الثاني عشر للرحلة ، فوصلت الى الخيف قبيل غروب الشمس ، وفيها وجدت مجموعة من الرجال يتفيئون مبنى مستوصف الخيف ، وفيهم شيخ من أهل القرية ، حصلت منه على معلومات عن القرية وما حولها •

ثم واصلت سيري فمررت بالواسطة ، ثم صليت المغرب في العالية : قرية على عين بعد الواسطة مما يلي بدراً •

بـــدر

بلدة عامرة ، ذات تأريـــخ اسلامي مشرق ، اقترن بالنصر المبين الذي أكرم الله به نبيه ﷺ ، وهو أول نصر في الاسلام ، حين التقت فئة المسلمين المؤمنة القليلة بفئة المشركين الكافرة الكثيرة، فنصر الله الفئة المؤمنة ، ودحر الكافرة وجعل كيدها في تضليل •

وكانت غزوة بدر المشهورة في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة •

وكان عدد المسلمين ثلاثمائة ، وعدد المشركين ألف رجل ، وفي ذلك خلاف[1] •

وهي اليوم من أعمر القرى بين مكة والمدينة ، تبعد عن المدينـة (١٥٥) كيلاً ، وعن مكة (٣٠١) كيل ، وعن جـدة (٢٧١) كيلاً ، و (١١٦) عن رابغ ، و (٩٠) كيلاً عن ينبع البحر •

فيها امارة تضم الأرض الواقعة بين الروحاء ـ ٧٤ عن المدينة ـ الى الرايس على البحر ، قرابة (٤٥) كيلاً من بدر غرباً ، وتتبعها امارة القاحة • فيها مكتب زراعي، ومحكمة شرعية ، ومكتب مواصلات سلكية ولاسلكية ، وفيها مدارس للبنين والبنات ، ومحطات لبيـع الوقود ، وسكانها بنو صُبْح من بني سالم من حرب ، وتصل ديارهم الى العالية المتقدم ذكرها مما يلي الواسطة ، والى البحر عند الرايس ، وتمتد جنوباً شرقياً فتضم غَيْقة وكل جبل ثافل الأكبر •

وفي بدر عين جارية ، عليها زراعة حسنة •

ومن السكان : حي من الاشراف كانت لهم أمرة البلد قبل العهد السعودي ، وحي من السادة ، يقال : ان الجميع حلفـاء لبني صبح •
يشرف عليها من الغرب الجبل الأصفر ، في سفحه الشرقي قبور الشهداء ، ويشرف غرباً على الساحل ، فليس بين بدر وساحل البحر غير هذا الجبل •

ويشرف عليها من الشرق جبل (أبو مغطّاة) • ومن الشمال جبل الدف ، وفي سفحه (قوز علي) وهو ما كان يعرف بالحنّان ، والعزّاف، وهو ماحول مقبرة الشهداء من رمال ، تحاك حولها خرافة قرع الطبول•

---

(١) راجع « معجم معالم الحجاز » مادة بدر ، « وسيرة ابن هشام » ص ٦١٣ وما بعدها .

يلي الحنان من الغرب الى الجنوب العدوة الدنيا ، حيث كان المسلمون يوم بدر •

أما من الشمال فمجرى الوادي ، يأتيها من الشمال الشرقي ضيقاً ثم يتسع ، فاذا تجاوزها ضاق ضيقاً شديداً ، فيسمى الحلق الى أن يصل مفرق ينبع ، وهذا الجزع من وادي الصفراء كان يسمى يليل •

واذا حاذى الوادي بلدة بدر كانت العدوة القصيا على يساره ومن ورائها جنوباً شرقياً ترى وادي أدمان عليه بعض أهل بدر ، وهو الذي يقول كُثيِّر فيه وفي أبرق الحنان :

لمن الديار بأبرق الحنّان   فالبرق فالهضبات من أدمان
أقوت منازلها وغيّر رسمها   بعد الأنيس تعاقب الأزمان
فوقفت فيها صاحبيّ وما بها   ياعَزّ من نعم ولا إنسان

البزواء

خرجت من بدر ، فسار الطريق غرباً في مضيق يليل المعروف بالحلق، وبعد خمسة أكيال وصلت الى مقاه ومحطات وقود تسمى المفرق : مفرق ينبع •وهذه حدثت في عهد السيارات،حيث صار الذاهب الى ينبع يفرق عن الطريق العامة في هذا المكان ، وبعد هذا المكان ببضع من الأكيال ظهر الطريق في البزواء : وهي تلك الصحراء الساحلية الجرداء التي تسير فيها من هنا الى مستورة •

وكانت منازل بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كناة ، فهجاهم كثيِّر ، فقال :

ولا بأس بالبزواء أرضاً لو أنها   تطهر من أثارهم فتطيّب

وقـال أيضاً :

دوافـع بالروحاء طوراً وتـارة مخارم رضوى مرجهـا فرمالهـا
يقيّلن بالبـزواء والجيش واقف مزاد الروايـا يصطبن فضالهـا

ثم مررت بمستورة ، ورابغ ، وصعبر ، ثم خليص ، وكلها تقدم الحديث عنها ، وعند مقهى الدف نمت ــ وكانت الساعة الثانية عشر ــ الى الصباح ، ثم وصلت مكة صباح اليوم الثالث عشـر من شهر صفر ١٣٩٣ للهجرة الشريفة .

الختـام

قطعت في هذه الرحلة مسافة (٢١٦٢) كيلاً ، حسبما أشار العداد وقابلت عشرات من الأخوة الفضلاء ، رحبوا بي وأعانوني ، فجزاهم الله خير الجزاء ، واليهم أتقدم بالشكر الجزيل .



الرحلــة الثانيــة

بين بدر وينبع

في الخامس عشر من شهر صفر سنة ١٣٩٦ هـ ، كنت عائداً من رحلتي الى نجد [1] ، وما أن وصلت الى بدر حتى وجدت رغبة في زيارة ينبع .

تحركت من بدر بعد صلاة الظهر ، فوصلت الى المفرق على ستة أكيال ، ثم فرق طريق ينبع ذات اليمين وهو طريق معبد تعبيداً حسناً . فعبر على أسفل وادي الصفراء .

الغَرابات

وبعد سير خمسة أكيال في السهل الساحلي ، رأيت الغرابات على يسيني ، وهي : أضلع صغار سود تتـّزر بالرمل من سفوحها الغربيـة ، وهي صفة معظم جبال الساحل ، يفصل بينها وبين بدر الجبل الأصفر ، الغرابات غربية وبدر شرقية ، ولا غربها الا الساحل .

واسط والعُذَيبة

سرت في سهل ساحلي تتخلله الصمود ، وعلى ٢٠ كيلاً جاءني من اليمين وادي واسط : وادٍ يأخذ من الجبال الواقعة غرب الحمراء ثم يدفع في الساحل في طرف صحراء العذيبة من الجنوب ، وهو يفترق عند

---

(١) انظر كتابي « الرحلة النجدية » مطبوع .

نزوله الى الخبت فتكون منه شعب : السناوي ، وفيه مركز السُّلَيم يسار هذا الطريق ، ويأتي الحديث عنها في الرحلة الثالثة • ووادي أويسط : الفرقة اليمنى من واسط على ٢٨ كيلاً من المفرق •

وسبق لواسط ذكر عند الحديث عن الحمراء •

فاذا تجاوزت أويسط رأيت الى يمينك جبلاً من أشمخ جبال هذه الناحية ، ذلك هو (نِصْع) وتحته ضُلَيع أسود لاطيء ، هذا هو (نُعَيجة العُذَيبة) • وسكان هذه الناحية من بني سالم من حرب • وكل السهل بين نثال وادي الصفراء الى نثال وادي ينبع يسمى العُذَيبة، لازال بهذا الاسم •

وكل هذه المعالم لها ذكر في الأدب القديم ، ففي الغرابات يقول كُثيِّر عزّة :

فظلّت بأكناف الغرابات تبتغي ... مظنّتها واستمرأت كل مرتد [١]

وفي العذيبة يقول كثير أيضاً ، واسقط هاءها :

خليلي ان أم الحكيم تحمّلت ... وأخلت لخيمات العذيب ظلالها

فلا تسقيان من تهامة بعدها ... بِلالاً وان صوب الربيع أسالها

وكنتم تزينون البلاد[٢] ففارقت ... عشيّة بِنْتم زينها وجمالها [٣]

وفي نصع ــ المتقدم ــ يقول كثّير :

فقلت وأسررت الندامة : ليتني ... وكنت امرءاً أغتشّ كل عذول

سلكت سبيل الرائحات عشيّة ... مخارم نِصعٍ أوسلكن سبيلي[٤]

(١ و ٣) ديوان كثير ص ٧٥ ، ٤٣٣ .

(٢) في الديوان (البلاط) وهو تصحيف ، والتصحيح من « معجم البلدان » ، مادة العذيبة .

(٤) ديوان كثير ص ١١٣ .

ويقول مزرّد :

أتاني ، وأهلي في جهينة دارهم ... بنصع فرضوى من وراء المرابد

تأوّه شيــخ قاعــد وعجــوزه ... حزينين بالصلعاء ذات الأساود[1]

وقال أبو العباس اللّهبي :

أبــا لبزواء أم بجنوب نِصْــع ... أم احتلت روايـاهــا العنابــا[2]

وأهل الديار ينطقون نصعاً بفتح النون ، وقد ورد في المراجــع القديمة بكسرها وسكون الصاد .

شَطْب

وعلى (٥٧) كيلاً هبط الطريق وادي شَطْب ، وهو فرقة مــن وادي ينبع النخل ، فيه زراعة قليلة ، ويشرف عليه من الجنوب صمد فيه مركز للشرطة ، يسمى مركز مشرفة .

ومشرفة : اسم ذلك الصمد .

وفي شطب يقول كُثيِّر :

أفي رسم أطلال بشطبٍ فمرجم ... دوارس لمــا استنطقت لم تكلّم

ويقول أيضاً :

لعمــري لقد بانت وشط مزارها ... عزَيــرة لاتفقــد ولا تتبعّــد

اذا أصبحت في الجلس في أهل قرية ... وأصبح أهلي بــين شطب فبدبد

---

(١) « معجم البلدان » ، نصع .

(٢) « معجم البلدان » ، نصع .

الدَّهْنـاء

وقبل وصولي الى مدينة ينبع بخمسة وعشرون كيلاً أشار شيخ جهني رافقني من شطب،أشار الى جبل أحمر بارز يمين الخط غير قريب، فقال : هذاك يسمى (عرعور) •

يقع على الضفة الجنوبية لوادي ينبع ، وهومن هنا مطلع الشمس• وقال الشيخ : ان الدهناء تقع شرقه بمسافة تقدر بثمانية أكيال ، وتعرف اليوم بالسانية ، فيها أثار ظاهرة ، وهي واقعة في ديار حرب ، وحدودهم ليست بعيدة منها شمالاً ، ثم تبدأ ديار جهينة •

والدهناء بلدة كانت عامرة كثيرة النزل والزراعة الى أول القرن العاشر الهجري ، فدمرها السلطان الغوري ، فهي اليوم خرائب وآثار •

وقد كانت محطة رئيسية من محطات الحجاج السالكين هذا الطريق من مصريين ومغاربة،ويظهر أنه على أثر خرابها ازدهرت مدينة ينبع البحر فأصبحت محطة رئيسية ، فجنب الطريق عن كل عيون ينبع النخل[1] •

المُسَيحلي

وعلى (١٥) كيلاً قبل ينبع البحر مررنا بالمسيحلي ، كانت محطة لتوفر الماء فيها تقع على الفرقـة الوسطى من وادي ينبع اذا أسحـل ، فوادي ينبع يفترق هنا الى ثلاث فرق : الأولى شطب ، وقـد تقدم ، والوسطى الحِجْر ــ بكسر الحاء المهملة ــ وهي هذه، والثالثة تسمى المرخيّة ، تصب على مدينة ينبع البحر •

ويشرف على محطة المسيحلي من الجنوب غير بعيد صمد مشهور هناك يسمى صمد المجبّرية •

---

(١) راجع كتابي « معجم معالم الحجاز » •

يقال أن اسماعيل بن مبيريك أمير رابغ كان يدعي أن حدوده تصل الى هنـــا .

فكان يقول : ملكي من ريع الثنية ـ ثنية عسفان ـ الى صمد المجبرية.

وكان شرب مدينة ينبع من المسيحلي ، الى أن مدّ لها المـــاء من عيون ينبع النخل .

وبعد المسيحلي بكيل واحد أثار محطة تسمى (المنيزلة) بالتصغير، وهو دليل على أنهـــا كانت محيطة ضعيفة ، ثم هبطنـــا وادي الحِجْر المتقدم الحديث عنه آنفاً .

ينبـــع البحر

اذا ذكر ينبع في كتب المتقدمين فانما المقصود ذلك الوادي الفحل كثير العيون والنخل ، والذي سنتحدث عنه فيما بعد ، ولم يعرف ينبع البحر كميناء ولم يرد له ذكر أبداً حتى تضاءل أمر الجار ، ذلك الميـــناء الذي كان يشبه جدة في يومنا الحاضر ــ أنظره ــ وعلى أثر اضمحلال الجار بدأ يظهر ذكر ينبع ، ويورد الشيخ حمد الجاسر عن المقريزي : ان الأيوبيّين اشتروا هذا الميناء أو موضعه سنة ٦٢١ للهجرة ، فأنشأوا فيه منشآت وحصنوه وجعلوه الميناء الثاني في الحجاز ، وكانوا يرسلون السفن التي تحمل ما يحتاج اليه الحجاج وغير ذلك عن طريق ميناء ينبع.

ثم أراد الأشراف الحسنيون : أهل ينبع النخل استعادة هذا الميناء فاستولوا عليه،ولكنهم لم يصمدوا لقوة الأيوبيّين،فاسترجعه الأيوبيون ثم أخذ أمر ينبع يقوى ، حتى صار أميره يعين من الدولة ، مثله مثل مكة والمدينة ، وتنازع بعض الاشراف امرته ، وكانت قبيلتا حرب وجهينة تدخلان النزاع الى جانب هذا أو ذاك .

وذكره الجزيري في أول القرن العاشر بأنه أصبح بلدة عامرة .

وكان تأريخه مختلط ومرتبط بينبع النخل لأنهما متجاورتين •

ولما دمر السلطان الغوري الدهناء ، وكانت محطة رئيسية للحاج ، حلت ينبع البحر محلها ، فصار الحاج يأخذ على الساحل ولا يمر بينبع النخل •

وكانت أمرة بلاد ينبع أول القرن العاشر لذوي دَرّاج من الأشراف الحسنيين[1] ومنهم اليوم ذوو هجار ، أشراف ينبع النخل ، وهم بنو هجار بن دراج [2] •

ثم تطور ينبع ــ ولسنا بصدد تفصيل لتأريخه ــ ولما قامت الثورة العربية الكبرى كان قاعدة من قواعدها في الشمال •

ثم صار مقر قيادة عسكرية في العهد الهاشمي •

وقد أصبح اليوم مدينة متقدمة ، ذات تخطيط حسن وعمران حديث ، ولها امارة تضم ينبع النخل ، وشمالاً الى الحوراء ، ولا تبعد كثيراً في الجنوب ، حيث السُّلَيم ــ على ٦٣ كيلاً ــ تابعة لبدر •

ثم أقيم اليوم فيه مشروع صناعي ضخم ، وصار مقراً لفرع الهيئة الملكية للتصنيع ، وقد قدر أن يكون سكانه مليونين عندما يتم مشروع التصنيع •

جبل رَضْوَى

تجولنا في ينبع البحر ، واطلعنا على كثير من معالمه ، وكنا نرى جبل

---

(١) انظر «بدائع الزهور» الجزء الرابع، و «بلاد ينبع» لحمد الجاسر .

(٢) هذا قول الجاسر ، وفي « الدرة السنية في أنساب الحسنية والحسينية » : دراج بن معز بن هجار بن وبير بن نجار ، من الأشراف الحسنيين .

رضوى المنيف الى الشرق الشمالي مطل على الساحل ، وبنفس الوقت نرى البحر صافياً تنعكس عليه شمس العشي •

ثم خرجنا منه شمالاً على طريق معبدة ، فكان جبل رضوى الى يسيننا قريباً واضحاً حتى يخيل اليك أنك ترى بعض أشجاره ، وهو جبل أحمر شاهق ليس بينه وبين الساحل شيء ، ويشرف في الجنوب على ينبع النخل على طول امتداده ، ومسافته تزيد على (٦٠) كيلاً امتداداً في الأرض ، وهو لجهينة ، وفيه شعاب ومياه ، وكثير من أوديته يصب في ينبع النخل وبعضها في الساحل •

ومن الأودية التي تسيل منه في الساحل : ثَـمَـا : يصب على مدينة ينبع من الشمال الشرقي •

نسراء : تصب في شرم ينبع ، شمال البلدة بقليل •

وعويص : وادٍ يجتمع مع نسراء فيلوّنان ما يسمى بالجفينة ، ثم يصبان معاً في الشرم • وقد خططت الأراضي المحيطة بالشرم اليوم تخطيطاً هندسياً وبدأ فيها العمران فعدّت حياً من أحياء ينبع البحر •

وعلى عشرة أكيال مررنا عند رأس الشرم فعبرنا على جسر فوق الجفينة ، وعلى خمسة عشر كيلاً مررنا بشعيب يسمى حَجّ : بلفظ شعيرة الحج •

وعلى (٢٢) كيلاً مررنا بالفري : شعيب أيضاً •

ثم مررنا بالَطـْعان : حزم مرتفع على قارعة الطريق ، على ٢٣ كيلاً من ينبع •

ثم جزعنا وادي خـُمـَال : وادٍ يأتي من جبل رضوى ومن أبي الغـُرَير ــ جبال ــ ثم يصب في البحر •

وأبو الغرير : بالتصغير : سلسلة جبلية بارزة تمتد من رضوى شمالاً الى وادي الحمض ، وآخرها من الشمال يسمى (حَبْران) ، وهي تشبه رضوى في لونها ، ولكنها أقل منه ارتفاعاً •

ويقع غرب هذه السلسلة وعلى مرآى من وادي خُمَال جبال الطوال البيض : جبال مناصيب تلي أبا الغرير من جهة الساحل ، وهي ليست بالطوال البيض التي تذكر مع هرشي،وليست بيضا بالمعنى المفهوم، ولكنهم يسمون كل جبل يضرب الى البياض بالأبيض، وكذلك ما يضرب الى الحمرة أو السمرة • والى جوار الطوال البيض جبل بارز يسمى (مُشَيط) •

وعلى ٤٥ كيلاً من ينبع، وعلى مرأى من وادي خُمال حيث يقطعه الطريق ترى سلسلة جبلية بارزة ، وليست عالية ، تعترض الطريق حتى تكنع في الخبت من جهة الشرق ، وهذه تسمى (العَوْصاء) •

توقفنا في مقهى في وادي خمال ، ثم واصلنا السير شمالاً ، فمررنا فوق جسر مسلح على وادٍ يسمى الحنو ، ثم الواديين : اسم لوادٍ واحد يصب من الطوال البيض فيمر تحت الطريق الى البحر •

وعلى (٩٠) كيلاً جاءنا من اليمين وادي (نَبْط) : وادٍ له ذكر في رحلات بعض الحجاج يصب في البحر يسار الطريق ، عليه جسر مسلح•

ينبع النخل

عدنا الى ينبع البحر ، ونمنا في مقهى على أول طريق جدة ، لا يختلف عن جل مقاهي الحجاز اليوم ، فهو يقدم لرواده سرراً من الخشب محبوكة بطريقة تجعل الجلوس والنوم عليها مريحين ، وهو يقدم الطعام الى جانب القهوة والشاي •

وبكرنا مشرقين باتجاه مطلع الشمس ، فسرنا في خبت ساحلي أبيض

وكان جبل رضوى على يسارنا مشرفاً شامخاً ، وكأنه هو الآخر في رحلة الى مطلع الشمس ، وعلى ٣٠ كيلاً صعدنا أجبل ليست بالشوامخ شق فيها الطريق المعبد ، وهذه الأجبل وامتدادها شرقاً على طول الضفة اليمنى لوادي ينبع تسمى صمد العاصي ، وسألت شيخ وجدته عند البثنة عن سبب هذه التسمية ، فقال : خرافات بدو !

وعلى ٣٦ كيلاً هبطنا من هذه الأضلع الى أول عمران ينبع النخل ، فوصلنا الى قرية البركة ، وحولها أثار مهدمة ، يتوقع أن تكون هي (ذو العُشَيرة) التي غزاها رسول الله ﷺ ، غزوته الثالثة فوادع بها بني مُدْلج وبني ضمرة ثم مررنا بين القرى الملتف نخلها ، وعلى (٥١) كيلاً وصلنا الى السويق ـ تصغير سوق ـ وهو أعمر مكان في ينبع ، فيه منشآت حكومية ، وسوق عامرة ، وهو قاعدة ينبع النخل ، فيه امارة ، ومدارس ، وبلدية .

ويشرف عليه من الشمال جبل رضوى من وراء جبال أقل ارتفاعاً . ويكاد السويق يكون الحد بين قبيلتي جهينة وحرب ، وهو مشهور بتلك الوقعة التي وقعت بين القبيلتين [١] .

تجاوزنا السويق شرقاً فسار الطريق بين الجبل يساراً والعيون يميناً ، فكانت على يميننا عين سُوَيقة ، وهي عين تشترك مع السويق في الحوادث بين حرب وجهينة ، وهما سويقتان متجاورتان : احدهما لحرب ، والأخرى لجهينة .

وقد توهم الشيخ حمد الجاسر ـ في كتابه بلاد ينبع ـ أن سويقة هذه هي سويقة عبد الله بن الحسن ، التي تقدم الحديث عنها قرب المدينة ، فجعل تأريخ هذه القرية موصولاً بتأريخ تلك[٢] .

---

(١) انظر « نسب حرب » ، مطبوع .

(٢) « بلاد ينبع » ص ١٦ .

والصواب أن سويقة عبد الله وبنيه ليست في ينبع ، وانما هو تطابق أسماء ، والسويقات في بلاد العرب كثيرة [1] .

وبعد يسير من المسافة كانت على يميننا عين البَثْنة ، وكانت أيضاً لعبد الله بن حسن بن حسن بن علي ، رضي الله عنهم .

وربما كانت سويقة ينبع لهم أيضاً ، وانها مسماة على سويقة المدينة، كعادة العرب ، وهي أن يسمو على من يعجبون به ، وكذلك ما يعجبون به من المال .

ويأتي البثنة من الشمال وادٍ جرجوب لانبات فيه ولا زرع ، يأتي من رضوى ، ذلك هو (أَيْلَة) ويجمعونها مع أخرى لا زالت قدامنا فيسمّونها أيلات : أيلة الشامية ، وأيلة الجنوبية أو اليمانية .

وأيلة هذه التي يقول فيها كُثَيِّر :

رأيت وأصحابي بأيلة موهناً	وقد لاح نجم الفرقد المتصوب
لعزّةَ ناراً ما تبوخ كأنها	اذا مار مقناها من البعد كوكب

ومن نفس القصيدة يقول أيضاً :

ولو بذلت أم الوليد حديثها	لعصم برضوى أصبحت تتقرّب
تهبّطن من أكناف ضأس وأيلة	اليها ولو أُغْري بهنّ المكلّب [2]

وبعد أن تجاوزنا البثنة ، وعلى ٥٥ كيلاً من ينبع البحر توقف الطريق المعبدة عند قرية ذات زبائر تدل على قدمها .

فوجدنا شيخاً خرج بنا خارج القرية ليشرح لنا ما استفسرنا عنه من معالم ، فمما أراناه :

---

(١) انظر « معجم معالم الحجاز » .

(٢) « ديوان كثير » ص ١٥٨ ، ١٠ .

١ ـ من هذا المكان وأعلى من ينبع يسمى الفُرَعة ، وهو صدر وادي ينبع ، فيه مزارع أكثرها على الأبار .

٢ ـ ضأس : نعف من رضوى وشعب أيضاً متجاوران على الطرف الشرقي من رضوى ماؤهما في الفرعة ، يجاورهما مما يلينا أيلة الشامية ، وهذه المعالم شمالنا عدلاً من هذا المكان .

وتقدمت الاشارة الى ضأس آنفاً في شعر كثير .

وفيه يقول كثير أيضاً .

وحتى أجازت بطن ضاسٍ ودونها   رعان فهضبا ذي النَّجَيل فينبع

وسألنا الشيخ عن : رعان أو دعان ، وحفنين ، وصندد ، التي تتردد في شعر كثير .

فقال : انها لاتعرف في هذه الجهات .

٣ ـ وأشار الى جبل بارز يشرف على الفرعة من الشمال الشرقي وقال : هذا اسمه (وَعَر) بالتحريك .

٤ ـ وأشار الى جبل أسود يقع الى الشرق منا ، فقال : هذا أظلم .

وهو أسود فاحم ليس بالعالي . ومعظم جبال العرب السود ان لم يسمو أحدها غراباً سموه أظلم وهي كثيرة .

٥ ـ وسألناه عن عباثر . فأشار شمالاً شرقياً فقال : وادٍ يصب في الفرعة من الشرق .

وهو الذي يقول فيه كثير :

وأعرض ركب من عبـاثر دونهم   ومن حدّ رضوى المكفهرّ جبين[1]

---

(١) « ديوان كثير » ص ١٧٢ ، ولعل (ركب) تصحيف ركن .

ويقول أيضاً :

فمــرّ فأروى ينبعــاً فجنوبــه ... وقد جيد منه جَيْدة فعباثر[1]

٦ ــ ثم سألنا الشيخ عن بواط الغوري : فقال : هناك ــ وأشار بيده ــ أعلى وادٍ يصب في الفرعة ، وله ريــع يخرج الى بواط ثم الى وادي الحمض .

ولم يرض الشيخ أن يشرح لنا بعض المعالم الواقعة في ديار حرب ، مثل : البلدة ، والبقاع ، ونخلى ، وقال : (هذي ما تخصني) .

أي : لادخل لي بها . وهي قاعدة تكاد تكون عامة عند القبائل ، فالهذلي ــ مثلاً ــ لايخبرك عن شيء من ديار عتيبة ، وكذلك الثقفي ، وغــيره .

وتقع كل من نخلي ، والبقاع ، والبلدة ، والبليدة ، الى الجنوب من مكاننا مع ارتخاء الى الغرب ، وهي شمال السويق على الضفة اليسرى من وادي ينبع .



(١) نفس المصدر ص ٣٧٤ .

الرحلة الثالثة

من رابغ الى الجار فشرف الأثاية فالسقيا

تحركنا من رابغ في صباح اليوم السابع من ذي الحجة سنة ١٣٩٦هـ الموافق ٧ القوس ١٣٥٥ هجرية شمسية ، ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩٧٦ م أي في أواخر فصل الخريف .

وكانت الرحلة نصف رسمية ، ذلك أنني كنت أعمل قائداً لسلاح الحدود في بلدة رابغ،وكانت حدود ذلك القطاع تبدأ من البريكة (الجار قديماً) شمالاً الى ذهبان جنوباً ، ويسمى ــ اصطلاحاً ــ قطاع رابغ .

وتبلغ المسافة من البريكة الى ذهبان (٢٢٠) كيلاً تقريباً ، على طول الساحل .

وكان يرافقني الابن حسين الطالب بالمدرسة الثانوية .

خرجنا من رابغ في الساعة السابعة صباحاً على الطريق المتجهة الى المدينة ، وكان منظر الأرض حولنا كالآتي :

الى اليمين سلسلة جبلية صغيرة تمتد من الشمال الى الجنوب ، تتصل شمالاً بالأصافر ، وجنوباً تنتهي عند النقاء وادي النويبع بوادي مرّ (وادي رابغ) .

هذه السلسلة تسمى جبال (فِخْذَى) : أضلع غير مرتفعة ، يقع النويبع ــ الوادي المشهور بعذوبة مائه ومنه سقيا رابغ اليوم ــ على سفوحها الشرقية ، وتطل سفوحها الغربية على السهل الساحلي ، على مرأى من رابغ شرقاً الى الشمال ، وفيها تقول احدى شواعر البلادية :

يا ركب اللي سرت من بطن فِخْذَى تالي الليل
وأصبح مع الغائضة وهو يبي ينذر رموعي

قالت : بطن فخذى • ذلك أن تلعة كبيرة تتخلل هذه الأجبل تسمى فخذى أيضاً •

ومن وراء تلك السلسلة تظهر جبال تهامة الشوامخ ، وأكاد أميز منها بحران ، وآرة : الشامخ شمالاً شرقياً •

والى جنوبها حرار الجحفة ، يظنهـا الرائي حرة واحـدة ، وهي مجموعة حرار سود تكتنف الجحفة وغدير خمّ ، تراها من رابغ شرقاً الى الجنوب قليلاً •

وقد تقدم الحديث عن الجميع في الرحلة الاولى •

وتسمى تلك الحرار ــ في مجموعها ــ القِدَام : جمع قدمة ، ويقولون : انها كانت ذات مزارع ونخيل •

انظر ما تقدم عند الحديث عن غدير خُمّ •

الأصــافر

ويتصل بجبال فخذى آنفة الذكر من الشمال الأصافر التي يتردد ذكرها في كتب الجغرافيا ، وقد مرت معنا في الرحلة الاولى ، ويتصـل بالأصافر شمالاً حرة هَرْشي ، وسيأتي الحديث عنهـا في آخـر هذه الرحلـة •

وفي الأصافر يقول كُثيِّر عزّة :

عفا رابـغ من أهله فـالظواهر ... فأكناف هرشي قد عفت فالأصافر
مغانٍ يهيّجن الحليم الى الصّبا ... وهـنّ قديمات العهـود دواثر

الطوال البيض

واذا مددت بصرك شمالاً رأيت جبال الطوال البيض : جبال طوال

مناصيب ، تسمى اليوم طوال حمامة ، وحمامة تلعة كبيرة تمر بين الطوال البيض وهرشي ، وتأخذ مياه الطوال البيض الغربية والجنوبيـة ، وهي للبلادية وبني محمد من بني عمرو من حرب •

والى الشمال من هنا جبل ثافل الأصغر، كأبرز علم يشرف على بلدة مستورة من الشمال الشرقي ، ويتصل به من الشمال ثافل الأكبر ، واذا قربت النظر رأيت حرة منقادة تعترض الطريق يجدع أنفها في الساحل •

هذه الحرة تمتد شرقاً فتتصل بهرشي ، ثم حرة الشيباء شرق هرشي وتسمى قرب هرشي حرة (بيض) وعندما تصطدم بالطريق تسمى الخشم •

وكل هذه المعالم ذكرت في الرحلة الاولى في اليوم الثاني ، غير أن وصف الأرض من هنا أملى الاعادة •

الخَرّار

سرنا على هذا الطريق مشملين مسافة ٢٥ كيلاً ، مررنا بأشعب تسمى رحاباً ، ورحيّباً ، وكلهف ، ثم فرق طريق الخَرّار يساراً •

والخرار : مرسى صغير لصيادي الأسمـاك ، فيه مخفر لسـلاح الحدود ، ومهمتنا هنا التفتيش على المخفر ، وعلى قرابة عشرة أكيال من الطريق المعبد وصلنا الى الخرار [١] •

وادي النَّهْدي

خرجنا من الخرّار شمالاً مع ميـل الى الشرق ، فمررنا بمكـان يسمى اللعبوب: فرقة من سيل وادي النهدي•والنهدي: اسم يطلق على وادي الأبواء في الساحل ، وبعد قليل مررنا بفرقة تسمى (اليعملة) فيها نخل وأبار هامجة •

---

(١) هذا غير الخرار المذكور في طريق الهجرة .

ثم دخلنا وادي النهدي الرئيسي ، ثم مررنا بمخفر مستورة ، وهو مخفر لسلاح الحدود في مرسى مستورة • ومرسى مستورة : ميناء صغير ترسو فيه سفن الصيد ، وشاطيئه جميل ، وكان الجو صافياً رائقاً معتدلاً ، والمسافة بين المخفرين (٢٠) كيلاً •

السّطح

ومن مخفر مستورة توجهنا شمالاً على سيف البحر ، وكان أبرز ما يرى يميننا سلسلة جبال ثافل ، يظهر — غربها — وكأنه من سفوحها — قوز حَسْنى ، الذي يقول فيه كثير :

عفا ميث كُلْفى بعدنا فالأجاول فأثماد حَسْنَى فالبراق القوابل
كأن لم تكن سُعْدى باعناء غَيقةٍ ولم ترَ من سُعْدى بهن منازل
ولم تتربع بالسّرَير ولم يكن
لها الصيف خيمات العُذَيب الظلائل

وفي الشمال الشرقي يظهر علم بارز يقع غرب فوهة وادي غيقة ، ذلك هو جبل (كراش) الذي يقع بين بدر وغيقة ، ولا يكاد يغيب عن نظرك ما دمت على هذا الساحل ، حتى تتجاوز مفيض وادي الصفراء شمالاً ، أما السهل الساحلي الذي نسير فيه ، فلا ترى منه الا فضاء لا متناه ، والطريق ترابي يمر في سباخ خطرة ، كثيراً ما هوت فيها السيارات فلا تخرج الا بشق الأنفس ، وهو قليل النبات الا في وقت الربيع حيث تكثر الأعشاب ، وبين حين وآخر ترى زبر الملح البيضاء ، حيث يقوم بعض الساحليين بشق خلجان من البحر الى حفر يحفرونها لذلك ، فاذا امتلأت سدوا تلك الخلجان ، فينشف الماء بفعل حرارة الشمس ، تاركاً وراءه طبقة سميكة من الملح الأبيض ، فيأخذون في تزبيره على شكل حلال تشبه التلال ثم يعبئونه ويجلبونه الى جدة ومكة والمدينة •

وعلى (٢٧) كيلاً تقريباً وصلنا الى مخفر السطح ، والمكان المعروف بالسطح : قاع أملس أبيض كسطح البيت ، على شاطىء البحر، فيه مخفر لسلاح الحدود على مرسى صغير لصيادي الأسماك ، وعند الجنود القائمين عليه شربنا الشاي والقهوة،ثم واصلنا رحلتنا الى الشمال .

والسطح هذا أبعد النقاط على هذا الساحل عن العمران .

البُضَيع

شكرنا الأخوة ودعونا لهم بالمعونة ، وواصلنا سيرنا على هذا الساحل ، وقبيل أن نهبط وادي الشُرَير وجدنا صمداً أحمر بارزاً نوعاً ما ، على شط البحر ، يسمى (الصمد الأحمر) تطلع الشمس عليه من ثافل الأصغر ويعتبر من العلامات المميزة على هذا الساحل،وله شهرة في الاهتداء والنعت ، ولا أدري لِمَ توقفت عنده وتبادر الى ذهني أنه (البُضَيْع) الذي يذكره كثير كثيراً في هذه النواحي ، ومما قال كُثّير فيه :

عفت غَيْقة من أهلها فجنو بها ... فروضة حسنا قاعها فكثيبها
منازل من أسماء لم يعف رسمها ... رياح الثريا خلفة فضريبها
تلوح بأطراف البُضَيع كأنها ... كتاب زبور حط لدناً عسيبها(١)

وقوله :

يجتزن أودية البُضَيع جوازعاً ... أجواز عينونا فنعف قيال(١)

الشُرَير

ثم لم نلبث أن هبطنا شعيباً منخفضاً بين الحزوم يسمونه وادياً ،

---

(١) « ديوان كثير » ص ، ٢٦٩ ، ٢٨٦ ، ١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٢٧٥ ، ٣٩٧ .

وهو فرقة من سيل وادي الصفراء اذا ساحل،وسكانه النوافع من زُبَيد وفيه مزارع حبحب على المطر ، ولو أبحر سيل وادي غَيْقة ــ وقلما يبحر ــ لمر على هذا الشعيب أو بقربه ، هذا الشعيب هو (السُّرَير) الوارد في شعر كثّير عزّة ، حيث يقول من قصيدة طويلة :

وأورثنه نأياً فاضحى كأنه مخالطه يوم السُّرَير جنون[1]

ومن قصيدة أخرى يقول :

كأن قنا المرّان تحت خدورها ظباء الملا نيطت عليها الوشائح
تحمّل في نجر الظهيرة بعد ما توقد من صحن السُّرَير الصرادح[1]

ويقول :

ديار بأعناء السّرير كأنما عليهن في أكناف غَيْقة شيد
تمر السنون الخاليات ولا أرى بصحن الشبا أطلالهن تبيد

ويقول أيضاً :

كأن لم تكن سُعْدى باعناء غَيْقة ولم تَرَ من سعدى بهنّ منازل
ولم تتربع بالسُّرَير ولم يكن لها الصيف خيمات العُذَيب الظلائل

وقد أضاف السرير الى البضيع ، وهو ما يعزز توقعي أن ذلك الصمد هو البضيع ، حيث قال :

حيث ورّكن دوّة بيمين وسرير البضيع ذات الشمال

والبيت من لامية بدأها من الغميم وسار بها الى ما وراء المدينة .

---

(١) نجر الظهيرة : شدة حرارتها ، الصرداح : جمع صرادح : الأرض التي لانبات فيها ، جلد ألين من القاع ، وأصلب من الدمث ، ولعل صحن السرير هي السطح المتقدم .

وعلى قرابة ٢٢ كيلاً من السطح وصلنا الى مخفر لسلاح الحدود يسمى مخفر الرتيقة ، وهو مكان من الساحل يدفع عنده السرير المتقدم وهو من المراسي الكثير المنتشرة على طول هذا الساحل ، وفيه بناء ـ كجميع المخافر هنا ـ بالاسمنت المسلح ، وتموين أهله من الرايس وهو قدامنا على عشرة أكيال .

الرايس

ثم واصلنا سيرنا الى قرية الرايس : قرية على الساحل شمال رابغ على قرابة مائة كيل ، ذلك أن سيرنا ما كان قصداً ، وهي جنوب الجار على عشرة أكيال ، فيها مرسى عند نخيلات قد أهملت ، وفيها مركز امارة وبلدية ومركز شرطة ، وتتبع بدراً ادارياً ، وعلى هذا المرسى مخفر لسلاح الحدود ، نزلنا على أفراده وشربنا القهوة .

ويعتبر أفراده محظوظين لوجود هذه القرية ، فلهم فيها مساكن ، ويجدون حاجياتهم أو بعضها في دكيكينات ضعيفة هنا .

وخير ما في هذه القرية بناء أنيق بارز يضم الامارة والبلدية ، والى جواره مدرسة ابتدائية للبنين .

وسكان الرايس خليط من زُبَيد وبني صُبْح ، وكلاهما من حرب ، الا أن القرية في حدود بني صبح ، وتمتد ديارهم شرقاً حتى تكون لهم غيقة وكل ثافل الأكبر ، ولهم عيون وراء بدر مما يلي المدينة .

الجـــار

خرجنا من مخفر الرايس شمالاً فشققنا القرية مع النصف ، وقدرنا بيوتها بخمسين بيتاً .

وعلى عشرة أكيال كنا في (البُرَيكة) وهو الاسم الـذي يطلق اليوم على موضع مدينة الجار التأريخية ، ونزلنا على مخفر سلاح الحدود ، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فحاولوا جهدهم استبقاءنا للغداء معهم ، ولكننا اعتذرنا ، واكتفينا بشرب الشاي ، ومن عندهم خرجنا فطفنا حول خليج يفصل بين المخفر وآثار مدينة الجار ، وهو خليج يتصل بالميناء القديم لازال صالحاً لرسو السفن الصغيرة ، انظر المخطط المرفق •

أثار الجـار

وقفنا على زبر تشرف على ذلك الخليج من الشرق ، وهي تحجب تحتها معظم آثار الجار ، المدينة التأريخية ، فرأينا بقايا عين مندثرة ، وأطم مدفونة ، وحلق مثبت في مبان بالحجر ، كان مرابط السفن التي ترسو في الميناء •

الجار مدينة تأريخية

والجار مدينة تأريخية كانت تشبه جدة اليوم ، فكان البحر الأحمر ينسب شرقيه اليها ، فيقال : بحر الجار ، وظلت ميناء عامراً للمدينة المنورة حتى القرن السادس الهجري ، وورد ذكر لغارات الأعراب عليها، ثم تقلص أمرها حتى اندثرت •

ولا شك أن للتأخر الذي أصاب الحجاز منذ أواخر الدولة العباسية، وسوء الأمن وكثرة الحروب بين القبائل ، دور في اندثار هذه المدينة ثم بروز مدينة ينبع النخل تحت حماية الدولة الأيوبية ثم دول مصر المتعاقبة، ومن آثار الجار تنظر الى جزيرة صغيرة مغيب الشمس ، هذه الجزيرة هي التي كانت تسمى (قراف) فيما ذكر عَرّام •

الجار في التأريخ

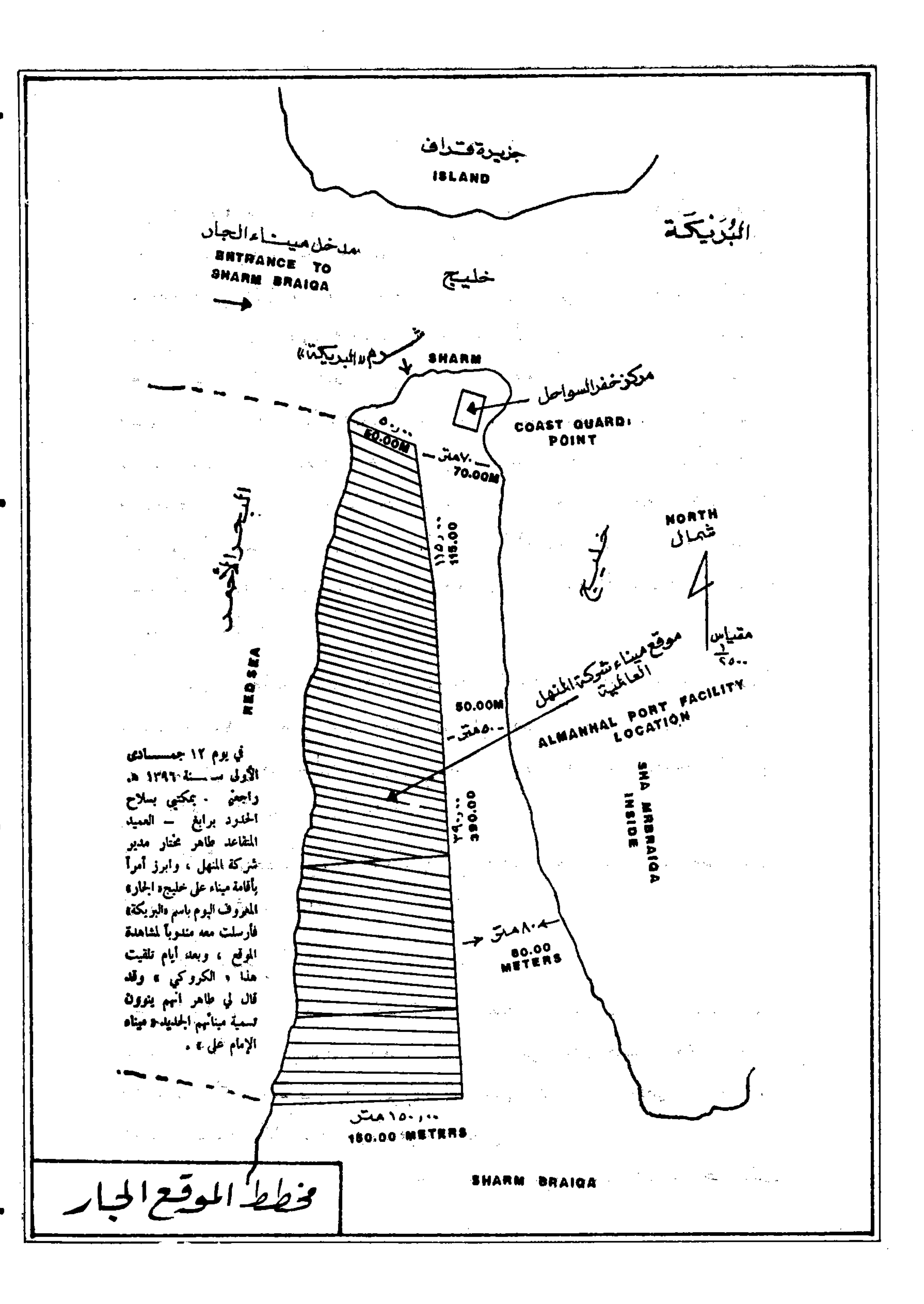
قال ياقوت : بتخفيف الراء : مدينة على ساحل بحر القُلْزم ، بينها وبين المدينة يوم وليلة ، وبينها وبين أيلة نحو عشر مراحل ، والى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل ، وهي في الأقليم الثاني • فرضة ترفأ اليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن وسائر بلاد الهند ، ولها منبر ، وهي آهلة ، وشرب أهلها من (البحيرة) ، وهي عين يليل ، وبالجار قصور كثيرة ، ونصف الجار في جزيرة في البحر تكون ميلاً في ميل ، لايعبر اليها الا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة ، يقال لها قراف ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار ، يؤتون بالماء من فرسخين ، ذكر ذلك كله أبو الأشعث الكندي عن عرّام بن الأصبغ السّلمي ، وقد سمي ذلك البحر كله الجار ، وهو من جدة الى قرب مدينة القلزم (مدينة السويس حالياً) •

قلت : وقوله : بينها وبين المدينة يوم وليلة ، وهم ، والصواب أن بينهما خمسة مراحل ، على نظام القوافل القديم : منها الى بدر مرحلة ، ثم الى الحمراء مرحلة ، ثم الى المنصرف أو الروحاء مرحلة ، ثم الى السيالة مرحلة ، ثم الى المدينة •

الا أن يقصد يوما وليلة للركاب ، وهي المطايا التي يستخفها الناس في السفر ، وفي ذلك نظر •

قال بعض الأعراب :

وليتنا بالجار ، والعيس بالفلا   معلقة أعضادها بالجنائب
سمعت كلاماً من ورا سجف محمل   كما طلّ مزن صيّب من سحائب
وقائلة لاح الصباح ونوره   عسى الركب أن يحظى بسير الرائب
عسى يدرك التعريف والموقف الذي
شغلنا به عن ذكر فقد الحبائب


جزيرة قدراف
ISLAND
البُرَيكة
مدخل ميناء الجار
ENTRANCE TO
SHARM BRAIGA
خليج
شرم «البريكة»
SHARM
مركز خفر السواحل
COAST GUARD
POINT
٥٠,٠٠
50.00M
٧٠ متر
70.00M
البحر الأحمر
RED SEA
١١٥,٠٠
115.00
خليج
NORTH
شمال
مقياس ١/٢٥٠٠
موقع ميناء شركة المنهل العالمية
ALMANHAL PORT FACILITY
LOCATION
50.00M
٥٠ متر
SHA MRBRAIGA
INSIDE
٣٩٠,٠٠
390.00
٨٠ متر
80.00
METERS
١٥٠,٠٠ متر
150.00 METERS
SHARM BRAIGA
في يوم ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٩٦ هـ. راجعني - بمكتبي بسلاح الحدود برابغ - العميد المتقاعد طاهر مختار مدير شركة المنهل ، وابرز أمراً بإقامة ميناء على خليج «الجار» المعروف اليوم باسم «البريكة» فأرسلت معه مندوباً لمشاهدة الموقع ، وبعد أيام تلقيت هذا «الكروكي» وقد قال لي طاهر انهم ينوون تسمية مينائهم الجديد «ميناء الإمام علي» .
مخطط الموقع الجار

ويورد ياقوت عدداً من أسماء المحدثين المنسوبين الى الجار .

وروى البكر خبراً طريفاً في سبب تسمية الجار ، فقال ، بعد أن أورد ما يتفق ورواية ياقوت ، وكلاهما ناقل عن عرّام : قال ابن الكلبي: لقي مُضَاض الجرهمي ، مَيّة بنت مهلهل بالساحل ، فقال لها :

أعيذك بالرحمن أن تجمعي هوىً   عليه وهجراناً وحبّك قاتله

فسمي الجار .

أي اعتبر قوله : أعيذك ، أي : استجير بالرحمن ، فهو جار له .

وابن الكلبي ــ رحمه الله ــ كثير تعليل اسماء البلدان ، ولكن إذا كان يقصد المهلهل بن ربيعة أخا كليب وخال امرىء القيس ، فليست هذه ديار قوم المهلهل كما أن زمن المهلهل ليس قريباً من زمن مضاض الجرهمي وبنت المهلهل المشهورة ، اسمها ليلى ، وليست مَيّة .

السليم

خرجنا من الجار شمالاً فوجدنا مخفراً لسلاح الحدود تابعاً لقطاع ينبع في مكان يسمى (السّلّجة) ، وهو أول قطاع ينبع من الجنوب ، كما أن البريكة آخر قطاع رابغ من الشمال .

وتقع السّلّجة على ثمانية أكيال من الجار ، ومنها عدلنا يميناً ، متجهين شمالاً شرقياً ، فسرنا في (نثلة) وادي الصفراء ، حيث ينفرش هنا وتتفرق مشاليقه كأصابع اليد ، فتكثر هنا الغابات من المرخ والسمر والعبش ، والعبش في لغة البادية : مادق وزحف من الأشجار ، مثل الثمام، والعراد والرمث ، ونحو ذلك .

وتكثر هنا المزارع العثرية في حيجان يعملونها بعقوم كالسدود من

التراب فتروّض الماء حتى تروى الأرض ، ثم يحرثونها ويزرعونها فتوتي أكلها عثرياً ، وهذه صفة معظم أراضي تهامة الى اليمن .

الا أن هذه الأرض مقفرة لم نر بها عربياً طيلة سيرنـا ، على كثرة ما بها من تلك الحيجان ، ويبدو أنهم لا يأتون اليها الا وقت شربها .

ثم مررنا بحزم بارز في هذا الساحل يتوسط تلك المزارع ، هذا الحزم يسمى مَبَرَّة ، وهو الذي يقول فيه كثّير :

لعينيك منهـا يوم حـزم مبَرَّة شريجان من دمع : نزيع وسافح[1]

وقـوله :

أقوى الغياطيل من حراج مبَرَّة فخبوت سهوة قد عفت فرمالها [1]

وشمال مبّرة مررنا بمزارع أو قل أراض للزراعة العثرية ، تسمى (مَخْشوش) وهي غير مخشوش ينبع ، ولعلها سميت لأنها خاشّة بين الحراج .

وتشتهر منطقة مخشوش بجودة الحبحب ولكثيرين من أهل بدر مزارع فيهـا .

ومن هنا بدا لنا بناء يتيم في هذا الخبت يلوح بيننا وبين الغرابات التي ظهرت من هنا بعيدة ، وتوقفنا فصلينا الظهر والعصر قصراً وجمعاً ، ثم يممنا ذلك البناء .

وصلنا اليه في مكان يبعد ثلاثين كيلاً غرب بدر فاذا هـو مخفر السُّلَيم ، تلك المحطة التي اصبحت مهجورة .

---

(١) « ديوان كثير » : ١٨١ ، ٣٥٤ ، تحقيق احسان عباس .

ماذا في السُّلَيم

وفي السليم مركز امارة كان أميره غائباً وأمامه سيارتان واقفتان ومقهيان مهجوران، ومخفر شرطة مهجور أيضاً، وكان بعض الأخوياء[1] اتخذوا منه مسكناً ، ذلك أننا عندما اقتربنا منه رأينا به روغ نساء ، فجنّبنا عنه •

وقابلنا أحد الأخوياء فدعانا الى مركز الامارة ، فشكرناه وواصلنا سيرنا •

وسبب هجر هذه المحطة أو المنهل القديم ، هو أن الطريق لما عُبِّد بين المفرق وينبع مربها فقامت بها مقاهٍ وجعل فيها مخفر مرور ، ولما جدّد الطريق جنب عنها مطلع الشمس فهجرها أهلها •

ولا أدري ما سبب بقاء هذا المركز في أرض لاعريب فيها ولامجيب والسُّليم واقعة في ديار بني يحيى من بني سالم من حرب ؛ وبقربها الحدود بينهم وبين بني صبح •

السُّلَيم قديماً

قال البكري أثناء الحديث عن الجار : وذات السُّليم : ماء لبني صخر بن ضمرة قرب الجار •

ثم ذكر ذات السُّلَيم في بابها وأورد شاهداً لايعنيها •

ولم يذكرها كثير ـ فيما اطلعت عليه من شعره ـ وهو الذي خلد جاراتها : مبّرة ، والبضيع ، والسرير ، وغيرها •

ويعرف اليوم فرع من الأحامدة بالصخارنة (بنو صخر) ولا أعلم هل لهم صلة بضمرة أم لا ، ومساكنهم في الأشعر غير بعيدة من هنا •

---

(١) كلمة تطلق على خدام الأمير واعوانه ، وكأنها تعني (حرسي) .

استغلال لا رادع له

واصلنا سيرنا جنوباً شرقياً باتجاه المفرق الذي يبعد عن بدر خمسة أكيال جنوباً غربياً .

وأثناء خروجنا من السليم كان يبرز الى يسارنا جبل نِصْع : أبرز الأعلام في هذه الناحية ، وتحته تربض النعيجة (نعيجة العذيبة) ثم الى الجنوب من ذلك الغرابات ، بينها وبين نصع يجري وادي واسط ، وتمتد صحراء العُذَيبة منا شمالاً الى شَطْب .

وكل هذه الأعلام تحدثنا عنها في الرحلة الثانية من هذا الكتاب .

نصف دجاجة بعشرين ريالاً :

وصلنا الى المفرق في الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكانت المقاهي مكتظة بروادها من الحجاج ، ومحطات الوقود ليس بها موقف ، فتوقفنا أمام مقهى كبير ودخلناه فطلبنا نصف دجاجة مع الأرز ، وهو ما نسميه (كبسة) لأنهم يكبسون الأرز على الدجاج .

فجيء بذلك فاذا بأوصال الدجاج تبشّ دماً ، والأرز ماتك غير مملوح ، فذهب حسين ليأتي بملح فلم يجد الا ملحاً كالحصباء ، نقوساً يبلغ حجم بعضها حجم البِنّة أو أكبر .

وقال : انه سمع صاحب المقهى يقول لأحد الحجاج : نصف الدجاجة مع الأرز بثلاثين ريالاً ! فاستأنا لذلك ، وتشاورنا الا نعطيه غير خمسة عشر ريالاً ، مع أنه ثمن فاحش ، وعندما نهضنا سألته عن الحساب ، فقال : عشرين ريال ، ومع أن المبلغ يساوي قيمة ثلاث دجاجات نيئات ، فقد فضلنا الدفع على النزاع .

وقد قدرت ــ كحد أدنى ــ أن من يأكلون في هذا المقهى يقارب الأربعمائة شخص يستهلكون مائة دجاجة على أقل تقدير ، تدر من

الربح (٣٠٠٠) ريال يومياً ، وهي حركة تستمر في هذا الطريق ثلاثة أشهر ، وعليك الحساب •

وأهل هذه المقاهي يستغلون الحجاج والمسافرين أسوأ استغلال ، فالكل هنا مسافر وليس لديه وقت للنقاش ، ولن يأتيهذا النقاش بفائدة وربما قذف بالمناقش الى خارج المقهى ، وليس لديه وقت للشكوى ، وربما تكون السلطة غائبة في مثل هذا اليوم السابع ، قبل الوقوف بيومين ، ولم نر تسعيرة في هذه المقاهي ، ومع غياب الروادع الحسية ، واغراء المادة ، أعطو ضمائرهم اجازة ، وحملوا عباد الله من ضيوف الرحمن وغيرهم مالا يرضاه العدل •

بئار الشيخ

خرجنا من المفرق على طريق مستورة جنوباً ، فسرنا في البزواء ، وكان الطريق مزدحماً بالسيارات ، وترى يمينه ويساره ضحايا الحوادث من السيارات المقلبّة والمصدّمة ، فسرنا في هذا الطريق حتى رأينا النصائف ، وهي مركز يتوسط البزواء ، ويعتبر المنصف بين بدر ومستورة ، وهو آخر سلطة رابغ في الشمال ، وبالتالي الحد بين امارتي مكة والمدينة ، فجاءنا من اليسار وادي غيقة ، يدل عليه هذا الشجر من السمر الكبار الذي لا يوجد في هذا الساحل الا فيه •

فأخذنا مشرقين في أرض ميثاء ، تسير عليها السيارة بسهولة •

كنا ميمّمين بئار الشيخ ، والآبار في الحجاز كان لها شأن عندما كان قوام الحج على قوافل الجمال ، وكان وجود بئر على طريق من طرق الحاج يعني وجود محطة ، فاشتهرت بئار ابن حصاني ، وبئر مبيريك ، وبئر القاضي ، وبئر قيضي ، وغيرها كثير •

سرنا خلال هذا الوادي في غابات من شجر السمر ، فمررنا بعد ود كثيرة ، قال أحدهم : انها للمحاميد من بني سالم من حرب ، وليست هذه ديار المحاميد ، انما خف ساكنها من بني صبح فـوجد قوم مـن المحاميد بها مسكناً طيباً ، فحفروا فيها الأبار وسكنوا جزءاً من هذا الوادي الشجير •

ومنذ أن كنا في الرايس مروراً بالجار فالسُّليم فالمفرق الى هنا ، ونحن لازلنا في ديار بني صبح ، ولهم كما تقدم بدر وعيون كثير ممـا يلي المدينة ، وكل وادي غَيْقة وما سال فيه ، وكل جبل ثافل الأكبر ، الذي يسمى بهم فيقال : (جبل صبح) •

وهذا الوادي يسمى هنا (المَعْرج) وأعلاه غَيْقة ، وما فوقهـا الملف (ملف غيقة) ثم العرج ، ويعرف اليوم بالنظيم ، وسيأتي معنا غداً•

وكان الى يسارنا تكنع في الوادي سلسلة جبلية بسيطة تسمى هنا (النُّصَيلة) ووراءها رأى العين جبل (ظَبْيَة) تتصل شمالاً بجبـل كراش الذي يقع بين بدر وغيقة ، وظبية هذه التي عناها كثّير بقوله :

فَغَيقة فالأكفال أكفال ظَبْيـة   تظـل بهـا أدم الظبـاء ترود

وعند منتصف المسافة بين النصائف وغيقة ــ تقريباً ــ وصلنا الى بئار الشيخ : آبار في وسط الوادي يشرف عليها من مطلع الشمس عرق رمل يسمى (الحبل) يظلل ذلك العرق من المشرق جبل (ثافل الأكبر) ويسمى اليوم كما تقدم جبل صبح • واياه عني كثير بقوله :

وان شفائي نظـرة إن نظرتهـا   الى ثافل يوما وخلفي شنائـك
وانْ بدت الخيمات من بطن أرثد   لنـا وفيافي المرختين الدكـادك

وتتكون بئار الشيخ من ثلاث آبار واسعة الفوهات ، رهية الماء • والى جانبها عشتان أو ثلاث مهجورة ، وبيوت شعر ليست بعيدة عنها ،

ظهر الينا منها رجل فسألناه عن بعض المواضع فأخذ يخفي علينا ، فلما واجهناه باسماء ما نعرفه منها ، قال : (حنا نسمي الوادي وادي والجبل جبـــل) !•

غَيْقَـة

وادٍ فحل من أودية الحجاز الغورية ، يأخذ جل مياهه من ثافـــل الأكبر : شرقه وشماله وجزء من غربه أو غربه كله •

ويسمى أعلاه النَّظِيم ، وهو ما كان يعرف بالعرج ، ثم ملف غيقة، وهو اسم قديم ، ثم غيقة : باحة بين الجبال كالروضة العظيمة ، يشرف عليها من الجنوب ثافل الأكبر ، ومن الشمال الشرقي (فِعْرى) ومـــن الغرب جبل كراش عن بعد ، وظبية •

تتوسط الوادي بئار ابن حصاني كما تقدم ذكرها في الرحلة الأولى ويصب فيها من الأودية : وادي بينة : من ثافل الأكبر • ووادي الخائع اليماني : يأتي بئـــار ابن حصاني مـــن الشمال ، واسفله البتراء ، ثم القُصَيبة • وأودية أخرى ستمر معنا •

وقد وهم المتقدمون ـ رحمهم الله ـ فتناقلوا رواية منسوبة الى عَرّام بن الأصبغ تقول : ان وادي يليل يصب في غيقة ، وقالوا : يصب في ينبع • وجاء الشيخ حمد الجاسر فسايرهم في هذا الوهم حيث حدّد غيقة بأنه : خبت على ساحل البحر ، يمتد من ينبع الى قرب بدر ، وتصب فيه سيول الصفراء وما بقربها من الأودية ، وسيول غيقة تصب في البحر•

وهذا وهم أيماوهم ، فأين صحراء العُذَيب ؟•

والصواب أن ما حدده الجاسر هو صحراء العذيب • وزاد وهماً حين قال : ويصب سيل رضوى في غيقة ، ثم يصب في البحر !؟ والشيخ

حمد الجاسر تنقل في جهات الصفراء وينبع ورغم ذلك فهو ناقل في معظم المواضع التي ذكرها هناك .

بين بئار الشيخ وغيقة

وعندما تركنا بئار الشيخ متجهين الى غيقة كان الوادي قد عدل شمالاً، فعدلنا بعدوله ، فكان أمامنا في الشمال جبل ظَبْيَة ، ومن ورائه جبل كراش ، والى اليمين قليلا جبل (غَصَّاص) ووراؤه بعيداً يظهر جبل فعرى ، أما في الشرق فالرمل يدنو كثيراً ووراؤه ثافل يغطي الأفق ، فتذكرت قول كثير : وان شفائي ... الشعر المتقدم .

والحقيقة أن جبل ثافل أحمر جميل ، يوحي بالشموخ والعظمة .. والواقف في وسط غَيْقة مستقبلاً ثافلاً تكون شنوكة خلفه ولكن على بعد ، ولعل القافية اضطرت كثيّراً الى ذلك والا لو قال : وخلفي فراقد ، كان وصفاً حقيقياً .

بَيْنَـــة

سرنا شمالاً مع ميل تدريجي الى الشرق فاعترضنا دعص يعيق السير شقته سيارتنا بصعوبة ، ثم ظهرنا في دائرة غيقة الفيحاء ، وأول ما وطأنا منها وادي (بَيْنَة) وادٍ هو أكبر روافد غيقة على الاطلاق ، وهو يحتلب الوجه الغربي لثافل الأكبر ثم يصبه في غيقة بين بئار ابن ابن حصاني وبئار الشيخ .

وبينة هذه التي يقول فيها كثيّر :

ألم تربع فتخبرك الطلول ببينة رسمها رسم محيل
تحمل أهلها وجرى عليها رياح الصيف والسَّرِبُ الهطول

ويقول أيضاً :

ألِلشوق لما هيجتك المنازل بحيث التقت من بينتين الغياطل
تذكّرت فانهلّت لعينك عبرة يجود بها جار من الدمع وابل[1]

ويقول أيضاً :

أشاقك برق آخر الليل خافق جرى من سناه بينة فالأبارق
قعدتُ له حتى علا الأفق ماؤه وسال بفعم الوبل منه الدوافق

وتصحّفت بينة على شارح ديوان كثّير[2] فقال : (بيشة) . وكل بيشة في شعر كثير هي بينة .

وقال كثّير في بينة أيضاً :

سبتني بعيني ظبية يستنيمها أغن البُغام أعيس اللون راشحُ
الى أُرُك بالجزع من بطن بينة[3] عليهنّ صيّفن الحمام النوائح[1]

وقوله أيضاً :

أمن أمّ عمرو بالخريق ديار نعم دارسات قد عفون قفاز
وأخرى بذي المشروح[4] من بطن بينة
بها لمطافيل النعاج صوار

وواصلنا السير قليلاً ، وعلى ٢٤ كيلاً من بئار الشيخ وصلنا غَيْنقة ، وقد تقدم وصفها .

---

(١) ديوان كثير : ١١٨ ، ٢٩٣ ، ٤١٥ ، ١٨٦ .

(٢) هذا الديوان الذي رجعنا اليه : جمع وشرح الدكتور احسان عباس .

(٣) في الأصل بيشة .

(٤) ويروى المسروح .

ثم أخذنا في الملف صعداً جاعلين الخائع وفعرى يسارنا ، وثافل الأكبر فوجدنا شيخاً عند غنم له ترعى في فنن السمر وكانت فقر عين غيقة تتخلل ذلك الشجر •

فسألنا الشيخ عن المواضع التي تتردد في شعر كُثيِّر ، فأجابنا على التالي منها :

بُعَال : أشار اليها الشيخ فاذا هي شعبة تصب من جبل فعرى غرباً في الخائع اليماني من الشرق ، على مرآى من بطن غيقة •

وبعال هذه التي يقول كثير فيها :

اربع فحيّ معالم الأطلال بالجزع من حرض فهنّ بوال
فشراج ريمة قد تقادم عهدها بالسفح بين أثيّل فبعال

وقوله :

عرفت الدار كالحلل البوالي بفيف الخائعين الى بعال

كنانة : وأرانا كنانة ، قائلاً : هما كناتتان : واحدة تصب في الخائع اليماني من الغرب مقابلة بعال ، ترى من موقفنا هذا ، والثانية تقاسمها الماء فتصب في وادي الصفراء عند عين الحسنية •

فراقد : قال : اظرها مقابلة بعال من الغرب تصب من جبل الأجيبل في الخائع اليماني من الغرب ثم تصب الجميع : الخائع ونواشغه في غَيْقة•

وقد جمعها كثير في قوله :

وذكرت عزّة اذ تصاقب دارها برحيّب فأراين فنخال
أيام أهلونا جميعاً جيرة بكتانة ففراقد فبعال(١)

---

(١) في الأصل : ثعال ، وهو تصحيف .

وجمة : أشار الشيخ بيده فقال : تصب من الهضبة (فِعْرى) أيضاً غرباً في الخائع اليمانية مجاورة بُعال من الجنوب بينها وبين ملف غيقة ، والهضبة اسم جبل فعرى اليوم ، ويسمونها هضبة غيقة .

وفي وجمة وكتانة يقول كثير :

أجدّت خفوفاً من جنوب كتانة الى وجمة لما اسجهرّت حرورها
ومرت على التقوى بهنّ كأنّها سفائن بحر طاب فيها مسيرها [١]

نخال : وسألناه عن (نخال) التي وردت في الأبيات السابقة .

فقال : تجاور رحيّباً في طرف وادي الصفراء من الشمال .

قلت : رُحيّب في وادي الصفراء فوق الحمراء مما يلي المدينة ، يجاور رحاباً .

وآرابن : بالباء الموحدة ، وصوابها الآراين ، بالياء المثناة تحت.

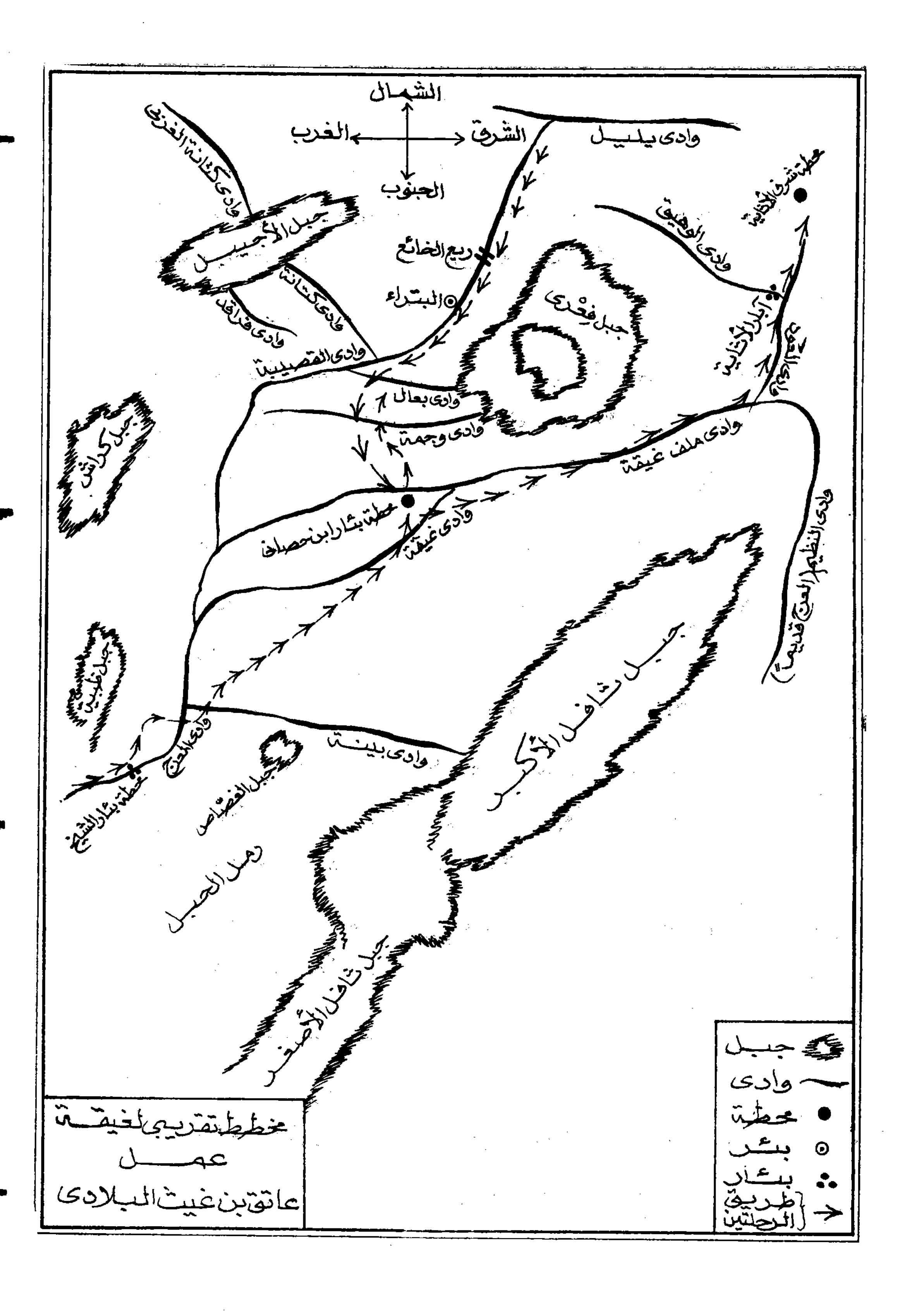
ولم يعرف ذلك الشيخ (التقوى) . وأظنها أنا ريع الخائع حيث يتقاسم الخائعان ماءهما ، ذلك أن من يريد جهات وادي الصفراء من جنوب كتانة ووجمة لا بد أن يمر في هذا الريع .

وريسة قرب الروحاء مما يلي المدينة ، أما حرض ، فصوابها : خُرُص . وقد تقدم [٢] .

---

(١) ديوان كثير ص ٣١٣ .

(٢) عندما نقول لشيء قد تقدم ترجى مراجعةالدليل لمعرفة موضعه.



الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
وادي يليل
وادي كنانة الغربي
جبل الأجيبل
ربع الخائع
البتراء
جبل فعري
وادي الوهيق
محطة شرق الأثاية
آبار الأثاية
وادي كنانة
وادي فراقد
وادي القصيبة
وادي بعال
وادي وجمة
وادي ملف غيقة
جبل كرانث
محطة بئار ابن حصان
وادي غيقة
وادي النظيم
جبل ظبيين
جبل تاشل الأكبر
وادي المحج
وادي بينة
محطة بئار الشيخ
جبل الفصاص
رمل الحبل
جبل تاشل الأصغر
مخطط تقريبي لغيقة
عمل
عاتق بن غيث البلادي
جبل
وادي
محطة
بئر
بئار
طريق الرحلتين

من غيقة الى المسيجيد

سرنا مصعدين في ملف غيقة فضاق الوادي وأصبح حثراً لاسهل فيه ، بين سلاسل من جبال عالية ، أهمها سلاسل ثافل التي لازالت تسايرنا ، وأهمها هنا (المنصير) أحد رؤوس ثافل الشمالية ، والذي يحتاج الناظر اليه من هنا الى أن يرفع رأسه الى أعلى .

وعلى (٢٩)كيلاً من بئار ابن حصاني افترق الوادي: فوادي النظيم (العرج قديماً) استمر مشرقاً ، وهو يلب ثافلاً من الشرق حتى يجعله بينه وبين غيقة . ووادي (العَوْد) عاد يساراً شمالاً ، وهذا هو طريق الحاج قديماً الى المدينة ، فسرنا فيه قرابة كيلين اثنين فصعدنا (الشُّفيَّة) وهي ما كان يعرف بشرف الأثاية ، وهذه سنتحدث عنها في رحلتنا غداً .

كانت الشمس قد قاربت المغيب ، فحثثنا السير باتجاه المسيجيد للمبيت هناك .

ومنذ أن خرجنا من الشفية الى قرب المسيجيد ونحن نسير في وادي الجي .

ليلة باردة

وصلنا المسيجيد بعد فوات الصلاة بقليل ، فتوقفنا وصلينا المغرب والعشاء ، فاذا الازدحام يبلغ أشده ، فهذه الليلة الثامنة في الثمان[1] ، وغداً هو يوم التروية ، والحجاج في أقصى سرعتهم، والمقاهي هنا متسخة وبد لنا المبيت هنا صعباً جداً ، فاقترح الحسين أن نواصل سيرنا الى

---

(١) أهل مكة يقولون لليوم الأول من ذي الحجة : واحدة في الثمان أي الأيام التي تسبق الوقفة .

المدينة ، وهكذا كان • وصلنا المدينة بعيد صــلاة العشاء فتعشينـــا في المناخة ، وخرجنا الى مقهى قرب بئر عروة ، وكان التعب قد أخذ منا كل مأخذ ، فدلفنا الى داخل المقهى فاذا به يعج بالصخب ، فاذا جمع مــن اليمانيين يملأونه ، وظهر أن أكثرهم يبيت فيه ، ولذا فقد فضلنا أن نبيت على سرر من هذا المقهى في العراء بجوار سيارتنا ، وهذه الليلة توافق الثامنة من فصل القوس ، التاسعة والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر ، وهو فصل تبرد فيه المدينة ــ عمرها الله ــ وكانت ليلة ليلاء أحسسنا فيها كأن الثلج يدخل بيننا وبين البطانيات التي كنا نلتحفها •

وفي الصباح عدنا الى المدينة فافطرنا ، وعدنا الى المنصرف لنواصل رحلتنا على درب الأنبياء •

* * *

اليوم الثاني للرحلة

بين المنصرف والرُوَيْثة

قد مر معك فيما تقدم أن المسافة بين المدينة والمنصرف واحد وثمانون كيلاً .

وصلنا الى المنصرف في الساعة الثامنة والنصف صباحاً ، ومنه أخذنا درب الحاج القديم (درب الأنبياء) الذي يمر بمحطات : الرويثة، وشرف الأثاية ، وبئر الطلوب ، والقاحة ، والسقيا الى مكة .

وَتَر

وعلى خمسة أكيال مررنا بمحطة مهجورة فيها بئر تورد ، كانت بعض القوافل تحطها تحاشياً للزحام في المسيجيد ، هذه المحطة تسمى (وتر) : تقع على مصب شعب يعرف بهذا الاسم ، ينقض من يسار الطريق من جبل أحمر يسمى (الحوراء) : تراه من المسيجيد قبلة المصلي . ولم تكن هذه المحطة من المحطات المشهورة قديماً ، غير أن العصور المتأخرة زاد فيها عدد حاج المسلمين ، فازدحمت المحطات القديمة ، فصارت كل قافلة تبحث عن مورد ماء فتجعله محطة .

فنشأت محطات كثيرة ، منها هذه المحطة وغيرها ، كبئار الشيخ ، وبئر مبيريك ، وآبار عديدة على هذا الطريق .

ووجدنا الطريق هنا قد مهد تمهيداً يوحي بأنه سيعبد قريباً ، لذا فهو يسير مستقيماً ، بينما طرق القوافل كانت متعرجة تميل يميناً ويساراً طلباً للمياه والأرض الصالحة للمناخ .

الرُوَيْثة

وسألنا شيخاً كان بوتر عن الرويثة ، فقال : لا أعرفها ، ولكن أول محطة للجمال بعد المسيجيد تجدونها جنب ذاك الجبل الأحمر .

وبعد ما يقرب من عشرة أكيال من وتر فرقنا عن الطريق المعهد يميناً فجزعنا سيل وادي الجي ، وعلى ١٧ كيلاً من المنصرف كنا في محطة قد تداعى معظم ما بها من مبان سريعة الفناء ، فاذاهي في مضيق وادي خلص بين جبلين • ووادي خَلْص : واد يسيل من جبل خَلْص الذي يشرف على مضيق الصفراء من الجنوب ، وعلى الجي من الغرب، والوادي يسيل من الجهة الجنوبية الشرقية من جبل خلص ، فيتجه شرقاً فيصب في وادي الجي من ضفته اليسرى ، وقد استفاد السكان من وجود ذلك المضيق فحفروا آباراً لازال بعضها يورد ، بينما اجتحفت السيول بعضها ، فترى منها الشقماء والمطمورة والمندفنة •

وفي المحطة آثار مبان بالحجر ظاهرة ، ولكنها مهجورة ، وبعض حوانيتها لازال صالحاً للاستعمال •

وعلمنا من الشيخ أنها هجرت مع بداية السيارات على هذا الطريق وبالتحديد بين (١٣٤٧ و ١٣٥٠ هـ) •

هذه المحطة هي ماكان يعرف بالرويثة ، وترددت في كتب الجغرافيين انها متعشى ، غير أن نظام القوافل تغير وتطور بعد أن سيطرت قبيلة حرب على هذا الطريق بين القرن الثالث ــ تقريباً عندما أصبحت لها صولة وجولة ــ الى منتصف هذا القرن[1] ، فنظمت المحطات ، وقصرت حسب وجود المياه وراحة الجمال التي تظل خمسة أشهر تتردد على هذا الطريق •

أما المحطة فقد عرفت عندهم باسم (محطة خَلْص) لوجودها في وادي خلص •

---

(١) انظر كتابي « نسب حرب » .

البنانيّة أو بئر الغَنَم

وعلى ستة أكيال من الرويثة شرقاً وصلنا الى (البنانية) بئر الغنم، والاسمان معروفان : محطة في وادي الجي على بئر كبيرة ، وعندها حوانيت ومدرسة ابتدائية ، وهي للروثان من بني سالم من حرب،وهذه المحطة هي التي ذكرها صاحب المناسك ، وسماها الجي ، والجي الوادي كله ، وانما أراد محطة الجي ، حيث قال ، ومن الرويثة الى (جي) أربعة أميال • وهو قول صحيح • وقوله جي ، الجي : بالتعريف دائماً ولم يذكر بدون ال •

ووجدنا شاباً على البئر انقطعت سيارته من الوقود ، فاعتذرنا منه بأننا نسير في طريق ليس فيها وقود ، فلما عرف أننا سنستمر على هذا الطريق الى رابغ عذرنا ، وقال فعلاً ليس أمامكم الا ان وجدتم في أم البرك ، ولكنهم يبيعونه بالصفائح بلا ضخ وبقيمة مضاعفة •

وادي الجِيّ

وادٍ فحل يسيل من جبال قدس من سفوحها الغربية ، ويأخذ مياه ورقان الجنوبية ، ويسمى أعلاه الحَلْقة ، ثم الجي ، فيصب في وادي الصفراء من ضفته اليسرى فويق مضيق الصفراء ، وليست فيه زراعة ، وكل ما فيه من سكن دائم هو هذه المحطة (البنانيّة) •

شرف الأثايــة

منذ أن خرجنا من المسيجيد (المنصرف) وأمامنا علم بارز يعلو كل ما حوله من أعلام ، يضرب الى الحمرة ، هذا هو المنصير الذي تحدثنا عنه بالأمس •

وعلى (٣٠) كيلاً من المسيجيد افترق طريق شرف الأثاية عن الطريق الممهد الى اليمين ، حيث قَزَّ الطريق الممهد على طول وادي الجي ثم يدعا فالرصفة فالقاحة ، وتجنب طريق الأثاية والعرج لأنه يمر في ثنايا صلبة وأودية ضيقة •

تركنا الطريق الممهد فسرنا في براح جلد يرتفع تدريجياً حتى يصير نجداً مستوياً تكون عقبة شرف الأثاية نهايتــه الجنوبية ، وبعد مسير أربعة أكيال فقط من هذا المفرق كنا في محطة شرف الأثاية ، أي على ٣٤ كيلاً من المنصرف و ١٧ كيلاً من الرويثة .

وينص صاحب المناسك على أنها على أحد عشر ميلاً . وهو قول مطابق تقريباً لهذه المسافة .

وظلت هذه المحطة على مر العصــور قائمــة تحدثت عنهــا كتب الجغرافية ، وأطال بعضها في نصوص ليست واردة هنا ، وذكر الهمداني أن قبائل حرب أوقعت بابن ملاحظ يوم شرف الأثاية[1] .

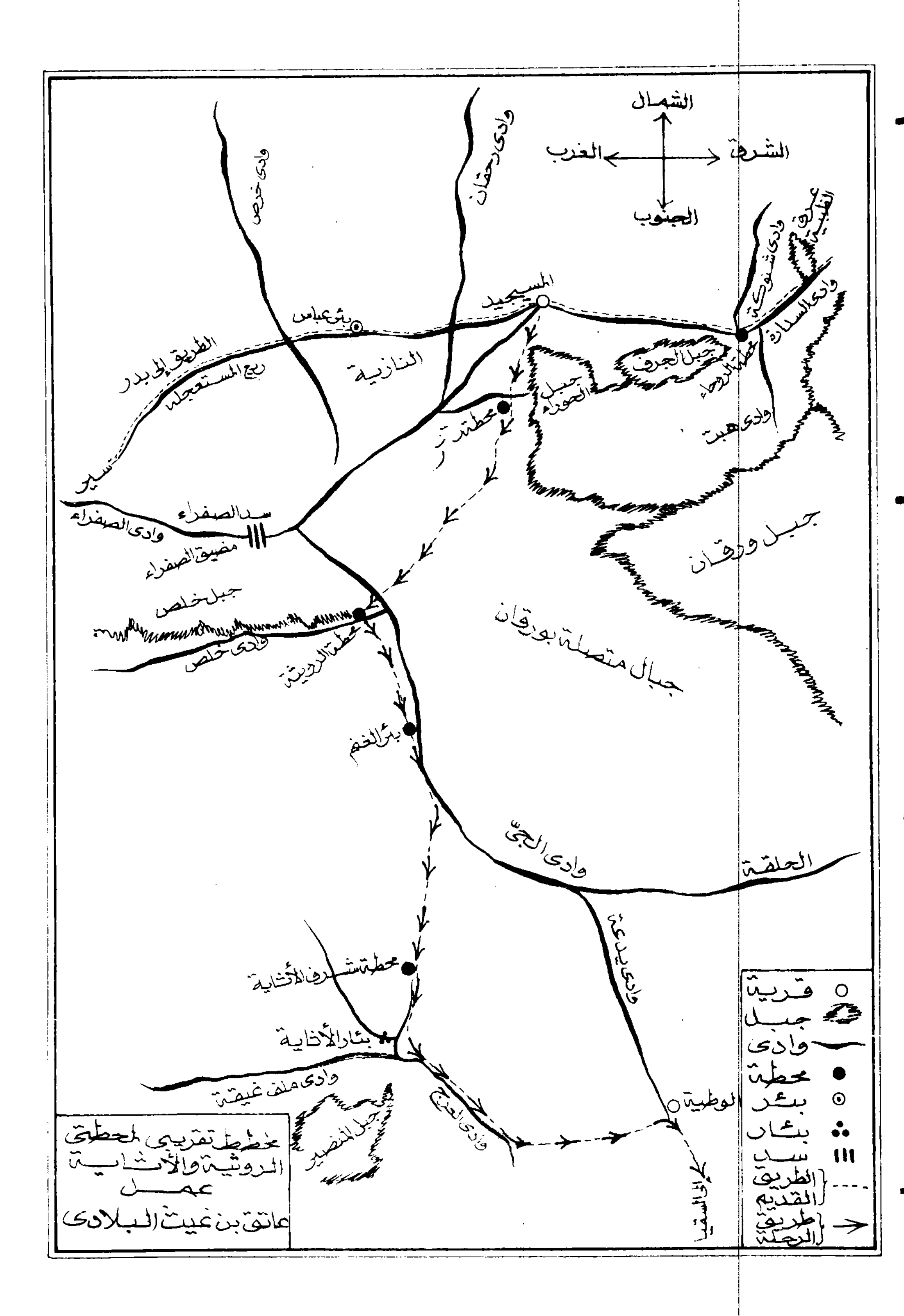
الشُّفَيَّـة

وشرف الأثاية عرفت ـــ ولا زالت ـــ عند أهل القوافل والديار باسم (الشفيـّة) تصغير شفة ، ذلك أنها تشف من جهة على جهة أخرى وهو اسم يطلق على نظائرها مثل:شفية الفرع : وشفية الصلصة وغيرها.

وقفنا على هذه المحطة فاذا بسوق مهجور فيه ما يزيد على (٢٠) حانوتاً ، ما زال كثير منها قائماً مقفلاً بقفل ، مما يدل على أن السكان يستعملونها كمذاخر للحشيش وقت الربيع،ويخترقها الطريق من الشمال الى الجنوب بين صفين من هذه الحوانيت المبنية بالحجارة غير المجصصة وماؤها يأتيها من آبار الأثاية الآتي ذكرها ، وهي في قرارة ، يمتد منها شمالاً ذلك السهل الذي وصفناه آنفاً ، وينحدر الطريق منها جنوبــاً انحداراً حاداً في شعب ضيق وعر باتجاه العرج ، ويتصل بها جبلان من الغرب والشرق .

---

(١) راجع « معجم معالم الحجاز » و « نسب حرب » ، مادتي شرف الأثاية ، والأثابة .



الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
وادي خرص
وادي رحقان
المسيجيد
بئر عباس
الطريق إلى بدر
ريع المستعجلة
النازية
محطة ترتر
جبل الحوراء
جبل الجرف
محطة الروحاء
وادي شنوكة
وادي السدارة
عرق الظبية
وادي هبت
جبل ورقان
سد الصفراء
وادي الصفراء
مضيق الصفراء
جبل خلص
وادي خلص
محطة الرويثة
جبال متصلة بورقان
بئر الغنم
وادي الجي
الحلقة
وادي عة
محطة شرف الأثاية
بئار الأثاية
وادي ملف غيقة
جبل المنصير
وادي العرج
الوطية
قرية
جبل
وادي
محطة
بئر
بئار
سد
الطريق القديم
طريق الرحلة
مخطط تقريبي لمحطتي الرويثة والأثاية
عمل
عاتق بن غيث البلادي

آبـــار الأثاية

تسمى اليوم بئار الشثفيَّة نسبة الى المحطة المتقدم ذكرها ، وصلنا اليها في نهاية انحدار العقبة على كيل ونصف الكيل تقريباً ، وهي عدة آبار بعضها ما زال يستقى منه ، وبعضها قد هجر ، وهي في ملتقى ذلك الشعب الذي أتينا معه ووادي الوهيق الذي يأتي الطريق مـــن مغيب الشمس ، وجل الآبار ذات طي محكم وسعة ظاهرة ، ويشترك في ملكية هذه الآبار أشخاص من قبائل شتى من حرب •

وكان المتقدمون يفرقون بينها وبين شرف الأثاية ، فيقولون لك : شرف الأثاية ، وهم يعنون تلك المحطة ، لأن الشرف هو المكان المشرف • ويقولون : الأثاية ، ويعنون هذه الآبار المنسوب ذلك الشرف اليها • وقد ذكروا أن بها مسجداً لرسول الله ﷺ [1] ، ولم نجد له أثراً •

وعند احدى الأبار حائط صغير غرس فيه ودي لم يطلع بعـــد ، عدده عشرون ودية ، يسقى بالدلو •

الوُهَيــق

وادي الأثاية يسمى الوهيق : بالتصغير ، وجدنا صبياً على احدى الآبار يسقي حميراً ، يظهر أنه في الثالثة عشر من عمره ، قال : انه يدرس في مدرسة بئر الغنم ، سألناه عن ذلك الوادي فقال : يسيل من جبـــال (المَعْذبة) بين خَلْص وفِعْرى ، ثم يتجه شرقاً ، وفيه آبار ونخيـــل عثاري ، الى أن يصب هنا ، واذا تجاوز هذه الآبار يسمى (العَوْد) فيسير حتى يجتمع بوادي النظيم (العرج قديماً) فيكونان وادي الملف

---

(١) راجع « معجم معالم الحجاز » و « نسب حرب » ، مادتي شرف الأثاية ، والأثاية .

(ملف غَيْقة) وكان وصفه دقيقاً وقوله صدقاً رغم أنه لايعلم أننا نعرف شيئاً من هذه الديار .

العَرْج والمُنْبَجِس

غادرنا ذلك الغلام الصدوق منحدرين مع وادي العود ، فلم نلبث أن جاءنا من اليسار وادي العرج ، ويعرف اليوم بوادي النظيم كما تقدم ، وهو كما أسلفنا يجتمع مع العود فيكونان ملف غيقة ثم غيقة ثم المعرج الى الساحل .

وعلى ملتقى الواديين الى داخل العرج قليلاً حائط عثري يصب عليه شعب من يسار الطريق ، هذا الحائط يسمى (المديراء) من المدر ، وهو الطين .

وهذا المكان ينطبق عليه اسم (المُنْبَجِس) حيث قال صاحب المناسك : المنبجس في أدنى العرج ، فيه عين ربما كان فيه ماء وهو عن يسار الطريق في شعب بين جبلين[1] .

لكن لم نجد أثراً للعين ، ووجدنا أهل بيوت شعر على الطريق فسألناهم عن العين ، فقالوا : انهم لايعلمون عنهاشيئاً .

وسألناهم عن مسجد لرسول الله ﷺ ، عند سلمات وقبور . قالوا : قدامكم الوطية في وادي يدعا ، يقال : ان فيها موطئاً لرسول الله ﷺ ، وكلمة (موطىء) عند أهل هذه الديار تعني مكان يروى أن فيه أثراً لرسول الله ﷺ ، صعدنا في الوادي ، وفيه أبار متفرقة ونخل عثري عند افتراق الطريق عن الوادي .

---

(١) عما رويناه عن صاحب المناسك راجع دليل المناسك .

وبعد مسيرة عشرة أكيال افتــرق الطريق يساراً عــن الوادي ، فاستمر الوادي ممعناً بين الجبال حيث صار الآن يلب ثافلاً من الشرق ويوغل حتى يأخذ كثيراً من مياه وجهه الشرقي ، أما الطريق فعلا أكمة انحدر بعدها في وادي يَدْعا : أحد روافد وادي الجي •

أكبر أعلام الحجاز

ومن هذا المكان في مرتفع بين العرج ويَدَعَة ــ كذا رواها ياقوت بالهاء وبالتحريك ، ويرويها أهلها يدعا بالقصر ــ تتاح لك فرصــة أن ترى أعظم أعلام الحجاز وأشمخها ، فأمامك مطلع شمس تبرز جبال قدس سادّة الأفق ، متجهة من الشمال الى الجنوب ، وهي قريبة جداً من هنا ، والى يسارك غير بعيد ترى جبل ورقان منتصباً شامخاً ، والى خلفك جبل ثافل غير بعيد ، يدرق كــل ماوراؤه ، واذا مــددت بصرك باتجاه الجنوب ، وكان بصرك حديداً رأيت ذرى جبل آرة الذي يرى من هنا كما يرى من رابغ ، أما الى يسارك شمالاً فبإمكانك أن تتهجس قمم جبل الأشعر ، بعيداً من وراء وادي الصفراء •

وادي اليدعة والوطية

خرجنا من العرج فعلونا ذلك الحزم الذي وصفنا منه أعلام الحجاز الشهيرة ، فهبطنا في وادي اليدعة ــ كما نطقه شيخ هناك ــ وهو : وادٍ يأتي من يمين الطريق الى يساره ، فاذا اجتمع بالحقلة كونا وادي الجي ، وهنا لاءمنا الطريق الممهد الذي تركناه يسير في الجي عندمــا فرق طريق شرف الأثاية •

ومن هنا رأينا شمالاً عدلاً شرفة الغائر : ذلــك النقب العسر الذي يفصل بين سلسلة قدس وجبال ورقان ، والذي كان الجَمّالــة يضطرون الى انزال ركابهم عن الجمال أثناء الصعود فيه مما يلي مكة •

وفيه يقول أحد الجمّالة :

لي سَيِّد ماعطا الغائر ولا شاف ورقان بعيونه
ولا شاف دمّ الحشا سائل والترك بام خمس يرمونه

وكان الغائر يعرف بركوبه ، وقد أخذه رسول الله ﷺ ، في مهاجرته الى المدينة ، وهي من أعسر مسالك العرب ، قال بشر بن أبي خازم :

سبته ولم تخش الذي فعلت به منعمّة من نشء أسلم ومعصر
هي الهم لو أن النوى أُصقبت بها ولكن كرّاً في ركوبة أعسر

فذهب عجز بيته الأخير مثلاً ، فقيل : (كرّ في ركوبة أعسر) .

وحدا ذو البجادين برسول الله ، ﷺ ، وهو صاعد في ركوبة ، فقال لناقته :

تعرّضي مدراجاً وسومي تعرّض الجوزاء للنجوم
هذا أبو القاسم فاستقيمي[1]

سرنا على ذلك التمهيد قرابة خمسة أكيال فوصلنا الى المكان المسمى بالوطية ، على (١٦) كيلاً من شرف الأثاية ، أي على قرابة عشرة أميال على الحساب العربي القديم .

وفي الوطية أو الوطأة قرية مهجورة تحيط بها ثلاثة حوائط بها نخل باد عليه الظمأ ، وهي وسعة أرض كالفرعة بين الجبال ، وهي صدر وادي اليدعة على طريق الحاج القديم ، وإلى يسار الطريق مسجد شمسي محدد بصف من الحجر ، ولا استبعد أن يكون هو مسجد رسول الله ، ﷺ ، حيث ذكر صاحب المناسك : أنه على خمسة أميال من العرج ،

---

(١) « معجم البكري » و « معجم البلدان » ، مادة ركوبة .

وأن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، كان يروح من العرج بعد أن تميل الشمس بالهاجرة فيصلي الظهر في ذلك المكان[1] . وهذا المكان منطبق تماماً على هذا الوصف ، فالمسافة منذ خرجنا من بطن وادي العرج الى هنا قرابة ثمانية أكيال ، أي قرابة خمسة أميال .

الحَفَـاة

خرجنا من الوطية ، وقد عاد الطريق الى الجنوب ، فأخذنا في سهل هو على طول وادي يدعا ، وعلى عشرين كيلاً من شرف الأثاية أي أربعة أكيال من الوطية انحط بنا الطريق في منحدر لحب بين جبلين ، هذا المنحدر يسمى (الرَّصَفَة) : شعب وعقبة يأخذ الطريق الى القاحة فيهما ، وهو أحد روافد القاحة وأول نواشغها مما يلي العرج ، وفي رأس الرصفة تتقاسم الماء اليدعة والرصفة ، تلك في الجي ثم وادي الصفراء ، وهذه في القاحة ثم الأبواء ، وسميت الرَّصَفَة لأنها كانت وعرة فرصفت ودرجت فصارت الجمال تسير فيها بسهولة .

وهذه أول ديار عوف .

وبعد ثلاثة أكيال أي ٢٣ كيلاً من شرف الأثاية وصلنا الى الحفاة، وهي متسع نسبي كالدَّوَّار تتكون فيه ثلاثة روافد ، ثم يبدأ وادي القاحة الشهير .

وهذه الروافد الثلاثة هي : الرصفة المتقدم ذكرها ، وشعب فيد : شعب يأتي الحفاة من الشمال العدل ، يأخذه طريق الغائر ، يأخذ فيدا ثم يهبط طرف اليدعة الشرقي ، ثم يأخذ ريع العقنقل ثم يهبط وادي الحلقة ، ثم يصعد الغائر ، والرافد الثالث يسمى الحفاة أيضاً : يصب من

---

(١) « المناسك » ص ٤٤٩ تحقيق حمد الجاسر .

مطلع الشمس من جبل قدس ، ويسمى الصافح الذي يسيل منه من قدس الحفاة أيضاً ، فالحفاة محطة ، وشعب ، وجبل .

والمحطة مهجورة تماماً ، وفيها آبار قديمة حسنة الطي واسعة الفوهات ، تنسب كل بئر منها الى رجل من أهل الديرة ، وفيها حوانيت مهدمة ، ولا حياة في المكان سوى بويتات شعر هناك .

وقد تعود الحياة الى هذه المحطة ومثيلاتها اذا عُبّد هذا الطريق فهو أقصر من تلك التي تمر ببدر ، وله ذكريات تأريخية جميلة .

وكانت هذه المحطة تسمى بئر الطلوب، وهي التي اطلع فيها معاوية فأصيب باللّقْوة .

وكان حلول السيارات محل الجمال مؤّذناً بخراب هذه الديار فهاجر أهلوها جماعات جماعات حتى أقفرت ديارهم فخربت قراهم وأصبحت في عداد الآثار ، كالرويثة والشفيّة ، وهذه المحطة[1].

ويشرف على المحطة بل قل يتفرعها جبل قدس عالياً شاهقاً ، حتى أنك تستغرب اذا قيل : ان في شعوفه سكاناً لهم نخيل ومعاسل يعملون عليها .

وقد ذكر قدس في الشعر بأنه معقلاً وحصناً حصيناً . وهذا كُثيّر يقول فيه :

كأنّ أخاه في النوائب مَلْجأ ... الى علم من ركن قدس المنطّق

ويقول :

كالمضرحيّ عدا فأصبح واقعاً ... من قدس فوق معاقل الأوعال[2]

---

(١) عن هجرت حرب ، انظر كتابي « نسب حرب » .

(٢) ديوان كثير ص ٢١٥ ، ٢٨٨ .

وقد سبقت الاشارة الى أنه ينطق اليوم (ادقس) شرحنا ذلك في الرحلة الأولى من هذا الكتاب ، في اليوم الثالث •

وسكانه اليوم وملاك أرضه قبيلة عوف من مسروح من حرب •

بئر قَيْضي

وعلى (٣٥) كيلاً من شرف الأثاية و (١٢) كيلاً من الحفاة وصلنا الى بئر قيضي : بئر في الجانب الأيمن من وادي القاحة ، حفرها رجل من عوف يسمى (قيضي) فعرفت به ، فصار الحاج اذا ازدحم في الحفاة سار من لم يجد مناخاً الى بئر قيضي ، فاصبحت محطة ، فلما تحول طريق الحاج الى طريق السيارات هجرت المحطة كباقي محطات هذا الطريق •

وفي أواخر الثمانينات من هذا القرن عيّن الشيخ بخيت بن ناصر ابن بخيت بن بنيان اللهيبي أميراً على وادي القاحة ، وكان أبوه ناصر أمير اللهبة عند حلول الدولة السعودية محل الدولة الهاشمية ، وكانوا أهل جمل وثروة ، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية توقف عمل الجمل في هذه الديار ، فاجتاحتها مجاعة مخيفة ، حتى كان الرجل يهاجر بالسبعة أو الثمانية من أسرته فلا يصل الى مكة الا بأقل من النصف ، هكذا حكاه الأحياء منهم •

وهاجر ناصر بأسرته مع من هاجر ، وبقيت هذه الديار شبه خلاء ، ولم يعد اليها من هاجر من أهلها ، بل توطنوا في المدن وأصبحوا أهل ثروة ومناصب كبيرة ، ولم يعد منهم من يتصور مجرد عودته اليها وهو أمر طبيعي •

ثم عين بخيت المذكور أميراً على القاحة ، فلما وصل الى هنا لم يجد في امارته كلها قرية واحدة ، فلجأ الى بئر قيضي ، فقامت بعض

المباني القليلة هنا ، مثل : مبنى الامارة ، ومدرسة ابتدائية ، وبويتات ينزلها المدرسون ، وهذا كل ما يوجد هنا .

وبهذا أصبحت بئر قيضي قصبة القاحة القاحلة ، ولا تتبعها قرى ، وانما بيوت شعر هنا وهناك ، قد يبلغ عددها المائة ، وتتبع هذه الامارة امارة بدر .

والقاحة قاحلة من الزراعة الا مايوجد حول بلدة السقيا ، والسقيا وما جاورها خارجة من امارة القاحة ، ذلك أنها لقبيلة العَبَدة من بني عمرو من حرب ، ومركزها يتبع الفرع .

وفي القاحة هذه مر رسول الله ، ﷺ ، في مهاجرته الى المدينة ، وفيها حدث الخلط بين القاحة : بالقاف والحاء المهملة ، وبين الفاجة : بالفاء والجيم .

والفاجة : بالفاء والجيم : أحد روافد القاحة : بالقاف والحاء المهملة [1] .

وكان الوقت وقت الظهيرة ، والطقس معتدل ، فتجاوزنا بئر قيضي وتوقفنا للصلاة ثم تناول طعام الغداء مما أحضرنا معنا من طعام ، وكان الحطب كثيراً هنا مما يسر لنا عمل الشاي .

كنا نسير يومنا في طريق وعرة متعبة ، وكنت في هذا الوقت بالذات أحس بشيء من الارهاق ، فقلنا تحت شجرة سمر ، وبعد مايقرب من الساعة واصلنا سيرنا ، وقبل وصولنا الى السقيا توقف التمهيد الذي كنا نسير عليه بعد اليدعة .

---

(١) انظرها في « معجم معالم الحجاز » .

السُّقيا

وعلى (٢٦) كيلاً من بئر قيضي وصلنا الى السقيا بأسفل القاحة وقد تقدم الحديث عنها في الرحلة الأولى من هذا الكتاب ، وكل ماجد فيها بين عامي ١٣٩٣ و ١٣٩٦ هـ هو بناء فخم ذو فناء واسع ، فيه ملاعب وله بوابه واسعة ، هذا البناء هو ــ فيما علمت ــ مدرسة لم تفتتح بعد.

وكانت المدرسة أثناء زيارتي لها سنة ١٣٩٣ هـ في بناء قديم رديء ويبدو أنها لازالت فيه .

هَرْشي وتَمنّي

ثم واصلنا سيرنا منحدرين في وادي القاحة ، فمررنا ببئر مُبيريك المتقدم ذكرها ، وعندها كان التقاء وادي الفرع ووادي القاحة مكوّنين وادي الأبواء،فسرنا في وادي الأبواء يسيراً ثم خرجنا يساراً في وادٍ يقال له : (السَّيِّر) : وادٍ صغير لا زرع فيه ، يأخذ مياه تَمَن ، والجهات الشرقية من الطوال البيض ثم يدفع في الأبواء من طرفها الجنوبي .

وعلى عشرة أكيال مررنا بآثــار المقيتلة : آثار قرية مندثرة بطرف وادي السَّيِّر عند التقائه بتمن (تمنّي قديماً) ، وفي السَّيِّر قريب منها آبار للسقيا ، وفي المقيتلة : آثار مبان لمحطة قديمة ، منها أثر مسجد تستطيع أن تتعرف على محرابه .

وهي واقعة على الجادة التي لاتمر بودّان ، ولعلها حدثت بعــد اندثار ودّان ، ثم اندثرت بسبت من الأسباب[1] ذلك أن اندثارهـــا ليس من جراء تحول الطريق ، ولكنه اندثار قديم فلم تبق من آثارهـــا سوى رموس بالية .

---

(١) انظرها في معجم معالم الحجاز .

ومن السَّيِّر ظهرنا في براح ، وهو طرف تسن من الغرب ، تظلّله العشي جبال الطوال البيض ، وتمن منا ويسار : وسعة أرض بين الحرار ذات مرابع ومزارع عثرية للبلادية من بني عمرو .

وورد في كتب المتقدمين باسم تسنى ، فقال كُثيِّر :

كأن دموع العين لما تخلّلت مخارم بيضاً من تمنّي جمالها
قبلن غروباً من سميحة أنزعت بهنّ السواني واستدار محالها

ثم مررنا في ظل الطوال البيض ، وهي تسمى اليوم كما سبقت الاشارة (طوال حمامة) ثم هبطنا في (حمامة) : تلعة كبيرة تمر بين الطوال البيض وبين ثنية هرشى ، ويستمر سيلها الى أن يمر بآثار ودّان ثم تدفع في الأبواء من اليسار .

وعلى (١٣) كيلاً من بئر مبيريك وصلنا ثنية هرشي ، وكان أول ما قابلنا منها مسجد على وجه الثنية من الشمال ، ينسبه أهل هذه الديار الى رسول الله ، ﷺ ، وهو مقابل لفم الثنية بحيث لايكاد يحيد عنه الطريق ، وأخشى ان عبّد الطريق أن يجرف هذا الأثر ، خاصة أن معظم منفذي الطرق ممن ليست لهم خبرة ولا حرص على مثل هذه الآثار .

وهرشي : اسم حرة تكتنفها ثنيتان ، تسمى الكبرى ثنية هرشى ، ويأخذها الطريق القيم ، وتسمى الاخرى هريشاء ، ولا يأخذها الا الراجل أو خفاف المطايا ، ولذا قال الشاعر :

خذ أنف هرشى أو قفاها فانما كلا جانبي هرشى لهن طريق

ذلك أن الطريقين يفضيان الى مكان واحد . وثنية هرشى شديدة الانحدار الى الجنوب أما في الشمال فهي تظهر في نجد مستو ، وتمتد الحرة غرباً فتسمى حرة بيض ، وتقدم الحديث عنها . وتمتد شرقاً متصلة

بحرة الشيباء ثم حرة بني عمرو شمال حرة ذَرَة ، وتبعد هرشى عن رابغ (١٨) كيلاً شمالاً شرقياً ، وكان طريق الحاج يطؤهـا بين السقيـا والجحفة ، ثم بين السقيا ورابغ بعد اندثار الجحفة .

وفي أول عهد السيارات شقت الثنية للسيارات ، ولكنه تمهيد بدائي بأيدي العمال ، ذلك أن الآلة لم تستخدم أنذاك في بلادنا . ثم تحول طريق السيارات الى مستورة فبدر ، فهجرت الثنية وخربتها السيول ، وظهرت لنا مخيفـة في انحـدارهـا ، ولكن صعودها أكثر خوفاً ومشقـة .

وتأخذها اليوم سيارات البادية في عناء لابد منه ، ذلك أن كل من أراد الفرع والقاحة من جهات رابغ ليس أمامه الا طريقان : هذا الطريق أو طريق مستورة ثم الأبواء ، وهو طويل ، والفرق بينهما ٥٧ كيلاً ، ذلك أن المسافة من رابغ الى بئر مبيريك عن طريق هرشي = ٣١ كيلاً فقط ، وان هذا الطريق عن طريق مستورة = ٨٨ كيلاً أي مايقرب من ثلاثة أضعاف الأول .

وفي الساعة الخامسة والنصف كنا نستبق نحن والشمس الى رابغ هذه البلدة الجميلة الهادئة التي يمر بها الناس مسرعين ، وتكاد تكون في آخر قائمة التخطيط ، ولا زال ميناؤها مهجـوراً ، ولا زال أهلهـا يستضيئون بفوانيس القاز .

رابغ

في الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٩٦ هـ

الرحلة الرابعة

مَرَيَيْن أو مَرّيَيْن

في يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ شوال سنة ١٣٩٨ هـ المصادف٢٦أيلول سنة ١٩٧٨ م ، كنت عائداً من رحلة لي طفت بها مدن القصيم ونواحيه ، ولما وصلت الى المدينة اهتبلت الفرصة للبحث عن تلك المدينة أو الأرض الزراعية التي أكثر المتقدمون من ذكرها ، واختلفوا في تركيب اسمها ، فقالوا : مَرّيَيْن ، ويَيْن ، ومَرَيَيْن •

والنصوص كثيرة على هذا الموضع ، والإختلاف في اسمه متقارب، وكذلك الاختلاف في موقعة متقارب •

١ ــ الاختلاف في اسمه : قال البكري في « معجم ما استعجم » : يَيْن ، وجعله خاتمة كتابه • وأورد شاهداً ليس عليه انما على إير ، وقرنه بشربب •

وإير وشربب مكانان من نجد •

وقال ياقوت : يَيْن : بالفتح ثم السكون ، وآخره نون • ثم أورد عن ابن إسحاق ان اسمه (مَرّيَيْن) فهو ههنا مضاف الى مَرّ • وأعتقد أن هذا وهم من ياقوت ــ يرحمه الله ــ لأن الذي في السيرة (مَرَيَيْن) مثنى مَرَى •

وفي لسان العرب : (يَيْن) اسم موضع •

والذي في السيرة : أنه ﷺ ، في غزوة بدر ، مرّ على تُربان ، ثم على ملل ، ثم على غميس الحمام من (مَرَيَيْن) ثم على صخيرات اليمام ، ثم على السيالة • أي أن مَرَيَيْن هنا مثنى (مَرَى) •

وفي كتاب أبي علي الهَجَري : ان يَيْن كانت بلد فاكهة المدينة ، وكانت تعرف من قريب بقرية بني زيـد ، فوقع بينهم وبين بني يزيـد حروب ، فجلا بنو زيد عنها الى الصفراء ، وبنو يزيد الى الفرع [1] .

مما تقدم ترى أن الخـلاف متقارب في هـذه التسمية ، والذي أرجّحه أن اسمها كان مثنى (مَرَى) فقيل : (مَرَيَيْن) بناء على السماع ، فلزمه البناء على ذلك .

موقـع مَرَيَيْن

الاسم لايعرف اليوم ، ولتحديده لابد من أمرين :

١ ــ العودة الى النصوص القديمة .

٢ ــ المشاهدة لتطبيق النصوص . فمـاذا قالت النصوص في تحديده ؟

أ ــ سبق معنا النص الذي في السيرة بأنها تشمل غَميس الحمام، أو هو جز ءمنها . وغميس الحمام لازال معروفاً مبيناً في المخطط المرفق.

ب ــ يقول أبو علي الهجري : عَبّود جبل بين مدفع مَرّيَيْن ، وبين ملل ، ومرّيَيْن طريق ، أي يسلك هناك ، وبريد مريين بطرف عبود . واعتقد أن جملة (ومريين طريق ، أي يسلك هنـاك) يكـون صوابها (ولمريين طريق .. الخ) . ومن تحديد الهَجَري يتضح جلياً أنها كانت بسفح جبل عبود ، حيث قال : وبريد مَرّيَيْن بطرف عبّود.

جـ ــ أما البكري فيقول : فأما الفريش ففيه أبار زيد بن الحسن ،

---

(١) انظر عنهم « نسب حرب » .

وبه هضبة يقال لها عُدْنة . أي أن قرية بني زيد كانت قرب عُدْنة الموضحة في المخطط المرفق .

د ــ ويقول ياقوت : قال الزمخشري : يَيْن عين بواد يقال له حورتان ، وهي اليوم لبني زيد الموسوي من بني الحسن ، وقال غيره : يَيْن اسم وادٍ بين ضاحك وضويحك ، وهما جبلان أسفل الفرش .

ورغم أن حورتين قريبتان من هنا ، وأن ضاحكاً وضويحكاً غير معروفين فان هذه الرواية تشذ قليلاً عما سبق ، فحورتان تبعدان قرابة خمسة أميال عن المكان الذي حددنا لمَرَيَيْن ، والذي تنطبق على النصوص السابقة ، ومن أهمها نص ابن اسحاق بأنها بين ملل وصخيرات اليمام ، وأن منها غميس الحمام ، وقول الهَجَري : وبريد مريين بطرف عبود .

واذا اعتبرنا الرواية في البند (د) شاذة رغم وضوحها وقوة تحديدها ، فان العذر فيذلك هو عدم دقة تحديدات المتقدمين ــ رحمهم الله ــ لعدم المشاهدة .

وتجدر الاشارة هنا الىأن الزمخشري يروي عن الشريف عُلَيّ بن وهّاس العلوي ، وهو عالم بهذه الديار . ولكن الهجري ــ أيضاً ــ كان ينزل العقيق قريباً من هذا المكان ، واعتقد أن معرفته تعادل معرفة الشريف عُلَيّ . ثم أن ابن اسحاق صاحب سيرة الرسول ، ﷺ ، يعتبر قوله حجة لقرب عهده وانتسابه الى المدينة .

سير الرحلة

سبق أن شرحت الطريق بين المدينة وملل في الرحلة الأولى ، وفي هذا اليوم سرت على هذه الطريق الى أن هبطت بطن ملل ، ثم فرق بي طريق ترابي الى الغرب ، وعلى ستمائة متر تقريباً كنت أمام بيوت شعر

لقوم من الصواعد مـن عوف ، فسألت رجلاً هنـاك بادر فاقسم يميناً قائلاً : (والله يمين ما أكذب عليك !) فسألته عن معظم المعالم المذكورة هنا فأرشدني اليهـا عدا (يَيْن أو مريَيْن) فانه قـال : لاتعرف • وسألته عن ضاحك وضويحك • فقـال : لا أعرف هـذه الاسماء • ثم لمحت الى يميني خرائب فتقدمت واياه اليها فإذا هي آثار قرية تتكون من عدة أحياء صغيرة ، وكأنهـا كانت منازل أسـر تنفرد بنفسها ، وهي عادة القرويين هنا •

فودعت الرجـل وسرت غربـاً ، فجعلت حمـراء أمراق يميني ، وتعرف اليوم بالخيالات ، وجعلت عبوداً يساري ، فصعدت ريعاً ليس سهلاً كانت تأخذه القوافل ، ومن هذا الريع أشرفت على سهـل أفيح ما كنت أتصور وجوده في هذه الديار الحجرية ، فاذا وسط السهل قوم يحفرون بئراً ، وعلى قرابة سبعة أكيال من طريق الاسفلت وصلت الى تلك البئر التي تحفر ، فاذا الحافر رجل من الحجلة مـن بني سالم من حرب، وسألت القوم عما أبحث عنه فلم يزيدوا على قـول الصاعدي ، الا أنهم أروني بعض الأعلام القريبة رأي العين •

ومن النظر الى هذا السهل الصالح للزراعة ومن استقراء النصوص السابقة تتأكد أن هذه (مَرَيَيْن) • وسنتحدث لاحقـاً عـن سبب تسمية مريين •

غادرت أولئك الأخوة بعد أن ألحوا علي بالدعوة ، وكانت الساعة العاشرة ، وعلى ما يقرب (٥٠٠) متر اعترضت سلسلة من البروث تقطع هذا السهل (مريين) مكونة سـداً يحكم سيله في مضيق منـه ، ثم يفرش مرة أخرى •

وصف الأرض من وسط مَرَيَيْن

علوة أوسط تلك البروث فانفرش السهل بشكل دائري حولي ، فاذا الأعلام والأودية أكثر وضوحاً ، وهي كالآتي :

١ ـ في الشمال : جبل صفر ، وينطقونه (سفر) ، على صوت المنادي ، يتصل به من الشمال جبل (العَوْد) الذي يقرن مع العجوز، فيقال : العجوزان .

وصفر هذا كان منزل الكريم الجواد أبو عبيـدة ، عبد الله بن زمعة [1] .

يلي صفر من سفحه الشرقي سيل هـذا السهل المتجه الى فرش ملل ، يليه من الشرق حميراء تسمى ضُبَيْعة ، تقابل صفر من مطلع الشمس ، وتشرف على فرش ملل من مغيب الشمس .

٢ ـ من الجنوب : التقاء وادي الفريش الغربي بـوادي غَميس الحمام ، والذي أراه من هنا وادي الغميس بعد الالتقاء ، ذلك أنهمـا اذا التقيا سميا الغميس ، أما موضع التقائهما فتدرقه عني أُكُم صغيرة تتصل بعبّود من الغرب ، يلي اجتماعهما من الغرب هضبة (عُدْنة) : ضلع أسمر أقل ارتفاعاً من عبّود ، ويناوحه من مغيب الشمس .

أما في الجنوب الشرقي فجبل عبود : أسمر بارزاً ، يليه من الجنوب (عُبَيْبيد) أصلهما واحد ولونهما واحد ، ووادي الفريش يفترق عن (عُبَيْبيد) الى فرقتين : فرقة تأخذ شرقية فتصب في ملل مـن أول الفرش ، وفرقة تأخذ غربيه فتصب في الغميس ثم في (مريين) .

---

(١) أوفينا القول عن صفر في « معجم معالم الحجاز » .

٣ ــ في الشرق : سلسلة جبلية أبرزها حمراء الخَيَالات (حمراء أمراق قديماً) وجبل الخضراء ، يفصل بينها وبين جبل عبّود ذلك الريع الذي أتيت معه •

٤ ــ وفي الغرب : يسيل في هذا السهل واديان : أحدهما وادي حَزْرة ، وهو الجنوبي منهما : يأتي من الفقارة ، وفيه سويقة عبد الله ابن الحسن على بعد بضعة أكيال من هنا •

والثاني مَثْعر : وادٍ قصير المدى يأتي من الغرب ــ بين حزرة والجفر ــ فيصب في هذا السهل بين حزرة جنوبه ، وعفرة الرادّة شماله • وإذا مددت بصرك شمالاً غرباً رأيت العجوز ، ويسمونها مع ما حولها (العُجُز) وهي سلسلة سمراء تحف بعفرة الرادادة من الغرب ، والعفرة بينها وبين (العَوْد) ، وتمتد هذه السلسلة مشملة الى الجفر الذي يصب في فرش ملل بعد الحفياء • والحفياء : شمال شرقي صفر • والجفر وادٍ زراعي لولد سَليم من بني سالم وغيرهم •

مواصلة السير

لم أر أثناء مراقبتي للارض من فوق ذلك البرث الذي يتوسط سهل (مريين) نزلاً في الأرض ولا زراعة ، وكل ما يوجد أشجار طلح ورمث ونباتات برية ، بل لايوجد ماء هنا ، وتلك البئر التيتحفر بلغت ما يقرب من عشرين متراً ولم يروا الماء بعد •

هبطت من ذلك المرقب فسرت شمالاً عدلاً ، وبعد قرابة سبعة أكيال من التقاء سيل حزرة بسيل وادي الغميس بسفح جبل صفر من الشرق ، وعند حصاة بارزة في سفحه مشهورة هناك وجدت أثر بناء بالحجر الأحمر الجاف (بلا مؤنة) يلي هذا البناء من الشمال جوفة في صفن من الجبل فيها آثار لاتكاد تميز ، ولعل ذلك لقدم العهد ، ولا شك

أن هذه الحصاة كانت منزل أبي عبيدة الكريم الجواد، حيث نصت بعض المصادر على ذلك .

ثم تجاوزتها سائراً بسفح الجبل مفتشاً عن الآثار ، فكانت أكوام من الحجر تتراءى هنا وهناك ، ولكن يصعب التمييز ما اذا كانت آثار قديمة أو زرائب يتخذها الأعراب أثناء نزولهم هذه الأرض .

ومن آخر صفر عدلت الى الشمال الشرقي فرأيت بيتين من الشعر، فسنحتهما على مهل رغم دأث الأرض وانغراز عجلات السيارة من حين الى آخر ، فخرج الي شيخ عرفت منه أنه من بني عروة من جهينة . فقلت له — مازحاً — : هذه ديار جهينة ؟!

فقال: (لا والله مير جهينة تَبَّاعة صَيِّرة). أي ينزلون الأرض التي توافق مواشيهم . والصيرة : المصلحة . فسألت الشيخ فلم يختلف عمن سبقه بشيء . والواقع أن أهل هذه الأرض قلما يموهون على السائل، بخلاف أهل بعض الديار الاخرى . فغادرت الشيخ الجهني وأنا أترحم له ! لأنه لايعلم أن هذه كانت ديار جهينة ، فأزاحتها عنها حرب ، كما أزاحت كثيرين غيرها .

اتجهت شرقاً ماراً بين حمراء ضُبَيعة يميني ، وجبال الحفي — جمع حفاة — يساري ، فهبطت مجرى سيل مريين ، ثم هبطت واياه فرش ملل من مغيب الشمس على ثلاثة أكيال من سفح جبل صَفَر ، كانت هذه كلها في نهاية مريين من الشمال ، بعد أن تأتيه من الغرب عفرة الرَدَادَّة فتصير سهلاً واحداً ، فجبل صفر وجبل العَوْد المتلاصقان كجزيرة وسط السهل ، سهل مريين جنوبهما وشرقهما ، وسهل عفرة الرَدَادَّة أو عفرة الردّادي كما يسميها بعضهم ، يحيط هذا السهل بالجبلين من الغرب والشمال . جزعت وادي الفرش فتوجهت الى آخر

سفح الأسفع من الشمال الغربي ، ثم سرت فيه عائداً جنوباً بحثاً عن آثار منازل ، فلم أجد شيئاً ، ويؤسفني انني في كتابات سابقة قررت أن الاسفع هذا هو صفر ، حتى ظهر لي اليوم خطل هذا القول ، والواقع أن سفوح الاسفع لاتصلح للسكنى ، وكل ضفة ملل الشرقية ، ذلك أن جبالها صهاليج لاوجود للارض السهلة فيها،ومنافذ الهواء فيها قليلة،أما جبل صَفَرَ والعَوْد ونواحيهما فانك لو اخترت الاستيطان في هذه الأرض ما اخترت غيرها ، فالأرض سهل فياح أبيض نظيف ، والجبال حمر جميلة ، ومخارم الهواء مفتوحة ، والأشجار الخضر لاتغيب عن النظر •

وفي الفرش فُقُر عيون كثيرة ، وأماكن ظاهر أنها كانت مزارع فانجرفت تربتها بعد اندثار عيونها ونزوح أهلها •

ثم عدت في فج يفصل حمراء الخَيَالات عن حمراء ضُبَيعة ، وهذا الفج على صوت المنادي من جبل صَفَرَ ، واذا كان لأحد مزرعة في فرش ملل ففي امكانه أن ينزل سفوح صفر ، ثم يسرح ويضوي على مزرعته من هذا الفج ، في مسافة لاتزيد على الا قليلاً عن الكيلين •

وعدت الى ذلك الأثر الذي أشرت اليه في سفح صَفَرَ فأردت أن أصوره ، ولكن المصورة توقفت ، ومنه خرجت جنوباً ثم عدلت غرباً فمررت بمدفع مثعر ثم عدلت جنوباً فجزعت حزرة من مصبها ، فوجدت على جانبيه آثار قرية لاشك أنها سكن بعض أهل مريين ، ثم سرت في غميس الحمام فكانت الآثار كثيرة ، وكأنها مساكن أسرْ انتشرت هناك ، وهي في مطاوي الجبال ، وعلى الربى من جانبي الوادي ، وفي الثانية عشرة والنصف كنت أسير بسفح عثبود من الغرب ، ثم لاءمت الطريق المعبدة كما هو مبين في المخطط ، مودعاً هذه الأرض الجميلة التي كانت

ذات مساكن ومزارع ، فاذا هي اليوم لا أنيس فيها ، وكأنها لم تغن بالأمس .

لماذا سميت مَرَيَيْن ؟

هذا النص صريح في السيرة ، وقد رجحته أنا (وهذا رأيي) ووجهه لغة أنه مثنى (مَرَى) . فأين مَرى ؟ في أعلى وادي الفُرَيش شعبان يسمى كل منها مَرَى : يصب أحدهما من ورقان فوق بلدة الفريش بما يقرب من خمسة أكيال جنوباً .

ويصب الثاني مقابلاً للاول من مطلع الشمس . والذي اعتقده أن وادي الفُرَيش كان كله يسمى (مَرَيَيْن) لوجود ذينك الرافدين في أعلاه ، ثم أطلق عليه الفريش لانفراشه واتساعه ، واسم الفريش قديم منصوص عليه في المراجع القديمة ، ولكن قد تكون تسمية مريين أقدم من ذلك،فلما سمي الفريش بهذا الاسم لزم اسم مريين تلك الأرض التي تحدث عنها على البناء ، فقالوا : نزلنا مريين ، وسالت مريين . وهكذا.

واشتراك واديين أو جبلين في اسم واحد معروف عند العرب ، مثل النخلتين ، وأبانين ، والمرختين ، بل تجاوزا ذلك فسموا القمرين (الشمس والقمر) والعمرين (أبي بكر وعمر) رضي الله عنهما .

مكة المكرمة

في التاسع والعشرين من شوال سنة ١٣٩٨ هـ

عاتق بن غيث البلادي

الملحق الاول

طريق الهجرة

اعتقد أن قصة الهجرة لاتخفى على أحد من قراء هذا الكتاب ، ولكن لابأس من ايجاز شيء من ذلك .

ثبت في السيرة أن رسول الله ، ﷺ ، عندما أجمع الخروج من مكة لم يخبر الا رجلين : علياً بن أبي طالب واستبقاه ليؤدي أمانات الناس ، وأبا بكر الصديق ، وأذن له بصحبته .

ثم أن رسول الله ﷺ وأبا بكر عمدا الى غار بجبل ثور فاختفيا فيه ثلاثة ليال . وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة جائزة لمن يرد محمداً عليهم . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام طيلة مكوثهما بالغار، وكانا استأجرا عبد الله بن أرقط وقيل أريقط : رجلاً من بني الدئل بن بكر من كنانة ، دليلاً لهما في الطريق ، وكانت ديار كنانة تمتد من مر الظهران الى وادي الصفراء .

الطريق الى المدينة

ثم جاءهم ابن اريقط بعد ثلاث فخرجوا ، وكانوا اربعة : محمد ﷺ ، وأبو بكر ومولاه عامر بن فُهَيرة رضي الله عنهما ، والدليل .

فخرج بهم الدليل من أسفل مكة ثم على الساحل[1] حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما أسفل من أمج ، ثم أجاز قديداً،

---

(١) هذا نص مافي السيرة ، وانظر ما بعده .

وفي أقصى قديد نزلا على (أم معبد) امرأة من بني كعب من خزاعة .
ولم تعلم قريش مكانهم الى تلك الساعة ، وكانوا قد أمضوا ثلاث ليال،
فسمع هاتف من الجن يقول :

جزى الله ربُّ الناس خير جزائه رفيقين حلا خَيْمَتي أم مَعْبد
هما نزلا بالبر ثم تروحَّا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهنَ بني كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ولما خرجا من عند أم معبد مروا في ديار بني مدلج من كنانة فعرف
بهم سُراقة بن مالك بن جُعشم المدلجي فأراد القبض عليهم طمعاً في
الجائزة ، فعثر به فرسه والقاه على الأرض عدة مرات ثم ساخت يداه في
الأرض ، وله مع الرسول ﷺ قصة [1] .

ثم اجاز بهم الدليل على الخرار ، ثم على ثنية المرّة ويقال (المرة
بالتخفيف) ثم سلك بهما لقفاً ، ثم مدلجة لقف ، ثم مدلجة مجاح ، ثم
مرج من مجاح ، ثم مرجح من ذي الغضوين ويقال العضوين ، ثم ذا
كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد (الصواب أجيرد)
ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداد مدلجت تعهن ، ثم على العبا بيد
أو العبابيب ، ويقال العثيانة ، ثم اجاز بهما الفاجّة ، ويقال القاحة ، ثم
هبط بهما العَرْج ، ثم على ثنية العائر عن يمين ركوبة ، ويقال : ثنية
الغائر ، حتى هبط رئم ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف في الثاني
عشر من ربيع الأول .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » ص ٤٨٩ طبعة الحلبي .

تحقيق الأماكن الواردة في ذكر الطريق

١ ــ جبل ثور : نص في السيرة وتناقل ذلك عنه الجغـرافيون : انه بأسفل مكة . وهذا خطأ ، والصواب أن جبل ثور يقع في الجنوب العدل من المسجد الحرام على قرابة ثلاثة أكيال .

٢ ــ عسفان : بلدة عامرة ، مرت في اليوم الاول من الرحلة الاولى من هذا الكتاب .

٣ ــ أمج : يعرف اليوم بخليص أفضنا في ذلك في الرحلة الاولى .

٤ ــ قديد : كذلك أوفيناه الحديث هناك .

٥ ــ خيمتي أم معبد : بطرف قديد من الشمال ، انظرها في أول هذا الكتــاب .

٦ ــ الخرار : هو وادي الجحفة وغدير خم ، شرق رابغ وقد مر .

٧ ــ ثنية المرة : في كثير من المراجع بتخفيف الراء كأنها مخففة من مرأة ، ويظهر أن الصواب (المُرَّة) ضد الحلوة ، والتصحيف في مثل هذه الالفاظ قديم معروف ، ذلك ان بئار المُرَّة معروفة اليوم بعدالخرار مما يلي الفرع .

٨ ــ لقف : بكسر اللام ، وسكون القاف ، وأخر فاء ، وما عداه خطأ . هذا وادٍ يرفد وادي الفرع من الشمال عند بئر رضوان [1] .

٩ ــ مدلجة مجاح: المدالج أربع في تلك الناحية يأخذها الطريق على التوالي وهي على نسق واحد : مدلجة لِقْف : تجي لقفاً من الشمال تتقاسم الماء مع مدلجة مجاح بينهما ريع يأخذه الدرب ، ومدلجة مجاح :

---

(١) انظر : « معجم معالم الحجاز » .

تأتي مجاحاً من الجنوب مقابلة لمصب العصوين ، ومدلجة ثقيب تصب في (أجيرد) واجيرد شعب يصب في ثقيب فوق البستان ، وثقيب يصب في أسفل القاحة ، والقاحة تصب في الأبواء .

ومدلجة تعهن : تصب على عين تعهن من الشمال [1] .

١٠ ـ مرجح وذي العضوين أو الغضوين : مرجح ، شعب يصب في مجاح من الشمال ، والعصوين كمثنى عصا : شعبتـان تجتمعان ثم تصبان في مجاح يطلقون عليها اليوم العصي ، جمع عصا ، وهي عادتهم في المثنى .

ويقولون العصا لكل واحدة منهما .

١١ ـ ذو كشر : الصواب ، ذو كُشُدْ : بالدال المهملة ، وتعرف اليوم بأم كشد : تلعة تسيل في وادي ثقيب من الجنوب ، مقابلة لأجيرد ، يأخذها الطريق الى القاحة .

١٢ ـ الأجـرد : الصواب (أُجَيرد) : شعب يصب في وادي ثقيب من الشمال ، اذا أخذه الطريق هبط في تعهن ثم الى السقيـا في القاحة .

وهذا التصحيف في اسمه أوهم بعض الباحثين بأن المقصود جبل الأجرد المشهور شمال غرب المدينة ، فأين ذاك من طريق الهجرة ؟

١٣ ـ مدلجة تعهن : سبق وصفها في المدالج (بند ٩) .

١٤ ـ العبابيد أو العبابيب ، والعثيانة : لا تعرف اليوم .

١٥ ـ الفاجّة : الصواب (القاحة) : بالقاف والحاء المهملة ، ذلك أن الطريق من تعهن تأخذ القاحة طولاً ، والقاحة وادٍ عظيم ذو روافد

---

(١) انظر : « معجم معالم الحجاز » .

كبار ، ومن روافده (الفاجَّة) بالفاء وتشديد الجيم ، ومن هنا جاء التصحيف بين القاحة بالقاف والحاء ، وبين الفاجة بالفاء والجيم .

١٦ ـ العَرْج : وادٍ كبير هو أعلى وادي غيقة ، وقد أوفيناه في الرحلة الثالثة من هذا الكتاب ، وله مخطط هناك انظره .

ولكن الغريب حقاً ان الطريق التي تمر على العرج لاتعـود الى ركوبة ورئم كما سيمر معنـا أن الرسول ﷺ أخذهما . فالطريق التي تخرج من القاحة على العرج تأخذ على شرف الأثاية ثم الرويثة ثـم المنصرف ـ المسيجيد اليوم ـ ثـم على الروحاء ثـم على ملل فذي الحليفة . أما طريق ركوبة أو الغائر (هما واحد) فانها تأخذ من القاحة على ريع العقنقل ثم حلقة الجي ثم الغائر (ركوبة) ثم رئم من وادي النقيع ثم عقيق الحسا الى ذي الحليفة .

١٧ ـ ثنية الغائر : هي ثنية ركوبة ، ولا تعرف ركوبة اليـوم ، ولعل الغائر كان اسم الوادي الذي ينقض من ثنية ركوبة ، ذلك أنـه غور مطبق بين الجبال ، والثابت أن الرسول ﷺ حدى به ذو البجادين في ركوبة : انظر الرحلة الثالثة في هذا الكتاب .

١٨ ـ بطن رئم : وادٍ يأتي من الغرب فيصب في وادي النقيـع عند بئار الماشي[١] ، وطريقه معروفة لازال الذين كانوا يسلكونها مشاة وركباناً أحياء ومنهم الاستاذ عبد القدوس الانصـاري ، حيث تحدث عن ذلـك[٢] .

١٩ ـ قباء : بلدة عامرة أصبحت من أحياء المدينة المنورة ، وهي بطرفها الجنوبي ، وبها أول مسجد أسس على التقوى[١].

---

(١) انظر « معجم معالم الحجاز » حيث البحث هناك أوفى .
(٢) انظر : « طريق الهجرة » للانصاري .

طريق الهجرة بالمشاهدة

قمت برحلات عديدة تتبعت فيها الطرق التي يحتمل أن يكون رسول الله ، ﷺ قد سلكها ، وقد أخذت بعين الاعتبار الاعتبارات التي تفرض هذه الطرق وترجح بعضها على بعض ، ومنها :

١ ــ انه كان في حاجة الى أقصر الطرق واسهلها •

٢ ــ كان يحتاج الى الطرق المستورة عن نظر العدو بعيدة عن أعين الرقباء الذين كانوا يتلهفون الى نيل تلك الجائزة التي بذلتها قريش لمن يأتي به •

٣ ــ كان ــ كأي مسافر ــ يحبذ الطرق التي تمر بالعدود وموارد المياه ، لسقي دواب الرحلة وشرب الرفاق •

٤ ــ اذا اضطر أن يلائم الجادة المطروقة تعمد أن يكون ذلك بعد منتصف الليل حيث يكف القدم ويقل الطارق •

٥ ــ اذا ادركه الصباح وهو على هذه الجادة أو قريباً منها اختفى في مكان مستور •

٦ ــ يحاول قدر الامكان ان يسرفي بلاد خزاعة ، لأن خزاعة ليست على وفاق مع قريش ، كما يحاول قدر الامكان تجنب بلاد كنانة • وهما القبيلتان القاطنتان تهامة بين مكة والفرع •

الأولى : تقطن الساحل من جنوب الليث الى وادي الصفراء وينبع ، والثانية : تسكن تهامة الداخلية كمر الظهران وعسفان وأمج وقديد ودوران والجحفة ••• الخ •

وعلى ضوء ما تقدم وبعد مشاهدة الأرض قررت ان طريقه ﷺ كان كالآتي :

خرج من جبل ثور ــ جنوب مكة ــ فاتجه غرباً جاعلاً جبل السرد يمينه وجبال لبينات يساره ، ثم انحدر في وادي ابراهيم حتى وصل روضة أم الهشيم ، ومنها عدل شمالاً عدلاً فقطع درب الحب ، قطع الحبل جاعلاً الحديبية يساره ، وتسمى اليوم الشميسي ، وجبال مكة الغربية يمينه ، ثم جزع وادي مر الظهران عند الحميمة فخرج في ثنية المرار ــ فج الكريمي اليوم ــ جاعلاً سروعة على يساره ثم جبل ضاف ، وعلى يمينه جبل مكسّر ، فلما خرج من فج الكريمي أخذ السفوح الشرقية لجبال الخشاش جاعلها على يساره ، ووادي الصغو على يمينه ، وفيها عدود كثيرة وطريقها قصد الى عسفان ، ثم مر بقرب عسفان على مرأى منه وكان مروره ليلاً فتحاشاه وتركه يميناً وهبط الى عين هناك تسمى الغولاء ، ثم أخذ في واديها قرابة خمسة أكيال ، ثم جاءه من اليمين ريع يسمى ريع نقري فأخذه ، ثم لاءم الطريق العامة عند الكديد ، وكان لازال بليل ، ثم سار عليها حتى وصل الدف (١٠٠)كيل من مكة ، فأدركه الصباح فلجأ الى شعب هناك عميق بين الجبال في جبل جمدان[١] ، وفي ذلك الشعب ــ اليوم ــ شجرة يزورها الناس يقولون: انها أثر من أثاره ﷺ ، فلما جاء الليل بل كان آخره فخف طارق الطريق هبط من مكمنه فهبط أسفل أمج فأخذ في ثنية لفت (الفيت اليوم) وهذه الجادة العظمى ولكن لا محيص له منها ولا مجنب عنها ، ثم هبط قديداً فقطعه الضحى ثم ضاف أم معبد بالقرب من موقع مناة الطاغية ، ومن عندها خرج في ثنية المشلل فهبط دوران ، وكان لبني

---

(١) جميع الأماكن الواردة هنا محدد تحديد دقيقاً في « معجم معالم الحجاز » .

مدلج وخزاعة تتشارك فيه القبيلتان ، وهنا بصر به سراقة — وقد تقدم خبره — ثم جزع وادي كلية ، فأخذ خشوم الحرار — وهو يومه الثالث — وادركه الليل الرابع ، فمر بقرب الجحفة من شرقها على مرأى منها وليس له غير ذلك ، ولكنه مر هنا بليل ، فلما تجاوز الجحفة سار في وادي الخرار فعدل يميناً شرقاً فمر بغدير خم ثم في وادي مر (وادي رابغ اليوم) ثم قبله مشرقاً حتى وصل وادٍ يقال له حياء وعنده بئار تعرف ببئار المُرَيّة ، ثم عدل يساراً شمالاً فصعد حرة الشيباء ثم هبط على وادي الفرع فجزعه عند مصب لقف ، فسار فيه ثم أخذ المدالج بعضها وراء بعض كما وصفناها سابقاً ، واثناء مروره فيها يمر بالعصوين ومراجح وغيرها كأم كشد وأجيرد ، فلما هبط تعهن فاض معه في القاحة قبيل السقيا مما يلي مكة ، ثم قبل القاحة مصعداً ماراً بالسقيا وبئر الطلوب لا محيص له عن ذلك ، فلما وصل الى بئر الطلوب كان طريقه الصحيح يأخذ شمالاً عدلاً في شعب يسمى فيد أمام المحطة رأى العين ، ثم يهبط رأس وادي اليدعة الشرقي ، ثم يأخذ ريع العقنقل ثم يهبط وادي الحلقة ، ثم يصعد الغائر ،كل ذلك يكون نظماً كنظم الخرز، وأرى القول بأنه مر بالعرج قولاً موهوماً لأن ذلك يتطلب زيادة في المسافة كبيرة وتعنتاً لا لزوم له ، واذا نظرت الى الأرض على الطبيعة عرفت أن ذلك مستحيل فعله [1] .

ومن الغائر يعدل الطريق الى الشمال الشرقي ثم يهبط رئماً فيسير فيه الى أن يهبط وادي النقيع عند بئر الماشي ، ثم يأخذ شمالاً في وادي العقيق فيمر بطرف حمراء الأسد من الشرق ثم بسفح جبل عير من الغرب ثم قباء .

---

(١) انظر المخطط المرفق .

الملحق رقم ٢

الطرق الرئيسية في قلب الحجاز

لقد مر معك أيها القارىء الكريم ، العديد من الطرق والدروب في الرحلات الاربع المتقدمة ، الا أنها كانت تمر متقطعة غير منتظمة ، وهنا نريد أن نوضح لك الطرق الرئيسية في هـذه الأرض الطيبة المباركة ، سواء ما كان مطروقاً زمن قوافل الجمال أو طرق السيارات اليوم ، فنقول وبالله التوفيق :

١ ــ درب الأنبياء : هذا الاسم يطلق على الجادة الرئيسية بين مكة والمدينة ، وذكر عنه ، ﷺ أن سبعين نبياً مروا في هـذا الطريق ، ولا غرو في ذلك فمنذ أن خلق الله الأرض أرسى فيها بيته العتيق ، وجعله قبلة كل المؤمنين ، الا من كفر وجحد .

يخرج هذا الطريق من مكة في عمرة التنعيم شمالاً عدلاً ، وأول مرحلة هنا هي (الجموم) على ٢٢ كيلاً من مكة ، ثم المرحلة الثانيـة (عسفان) وهو على ٨٠ كيلاً من مكة أيضاً ، ثم المرحلة الثالثة (الدف) على مائة كيل ، ثم (طارق قديد) على قرابـة (١٢٨) كيلاً ، وهي المرحلة الرابعة ، وظلت كذلك حتى تحول الطريق من الدف الى ثول[١] فهجرت هذه المحطة ، ثم المرحلة الخامسة (الجحفة) وهذه هجرت من زمن بعيد وتحول الطريق الى رابغ شمال غربي الجحفة ، ثم (ودّان) المرحلة السادسة ، ثم هجرت من زمن[١] ، ثم (السقيا) في وسط القاحة،

---

(١) انظر خبر ذلك في « معجم معالم الحجاز » مادة لفت وودان .

ثم (بئر الطلوب) وتعرف اليوم بالحفـاة ، ثم شرف (الأثايـة) ، ثم (الرويثة) ثم (المنصرف)[1] ويعرف اليوم بالمسيجيد ، أو (الروحاء) فهما متجاورتان وقد يحط بعض الناس الروحـاء وبعضهم المسيجيـد تحاشياً للادزحام • ثم (السيالة) ثم المدينة المنورة • فهذه ثلاث عشرة مرحلة •

وقوام هذه المسافة يقدر بـ (٤٢٠) كيلاً • ثم لما جاءت السيارات صار الطريق اذا تجاوز الدف أخذ يساراً فصعد حرة البكاوية ثم أخذ في الساحل حتى يلائم طريق جدة الآتي ذكره •

٢ ــ الطريق بين جدة والمدينة : كان هذا الطريق ابتدع في ازمنة متأخرة من عهد الجمال ، كما نلمح ذلك من شذرات متفرقة ، ويظهر أن سبب ابتداعه أن بعض حجاج البحر كان يصل قبل زمن الحج بمدة طويلة ، ولذا رغبوا أن يقوموا بزيارة الرسول ، ﷺ ، قبل الحج حتى اذا قضوا نسكهم أسرعوا الى بلادهم ، فمن ثم أخذت القوافل طريقهـا الى المدينة من جدة • وأول مرحلة من جدة هي (ذهبان) على مسافـة خمسين كيلاً ، ثم (الدعيجية) أو (القضيمة) متقاربتان ، الاولى على ٩٩ كيلاً ، والثانية بعدها من الشمال على قرابة اثني عشر كيلاً ، وهي محطة رئيسية للآتي من مكة بعد تغيير الطريق كما تقدم ، ثم (صعبر) انظره في اليوم الأول من الرحلة الاولى • ثم (رابغ) على ١٥٥ كيلاً من جدة ، ثم (مستورة) على٤٤ كيلاً من رابغ، ثم تفترق الطريق الى ثلاث شعب ، انظرها في اليوم الثالث من الرحلة الاولى ، والى مستورة هذه طريق السيارات ، ثم تأخذ على البزواء الى (بدر) على قرابة سبعين

---

(١) من السقيا الى المنصرف ، انظرهـا في الرحلة الثالثة من هذا الكتـاب .

كيلاً من شمال مستورة ، ثم تأخذ الطريق وادي الصفراء قبلاً الى المسيجيد حيث تلائم درب الأنبياء ، وبين بدر والمسيجيد ٧٥ كيلاً • وطول هذه الطريق المعبدة بين مكة والمدينة (٤٦٠) كيلاً ، وبين جدة والمدينة (٤٢٥) كيلاً • كل المقاسات من قلب البلد •

٣ ــ درب الحاج : اذا اطلق هذا الاسم في وسط الحجاز فانما يقصد به درب الأنبياء •

٤ ــ درب الحَبّ : هو الطريق بين مكة وجدة ، وهو يخرج في بلدح ــ أسفل وادي فخ ــ ثم على الحديبية على قرابة ٢٢ كيلاً ، ثم (حداء) بأسفل مر الظهران على مسافة ٢٩ كيلاً ، ثم (بحرة) وهي المرحلة الاولى على مسافة ٣٦ كيلاً ، وهي المنصف بين المدينتين ، ثم (أم السلم) على مسافة ١٥ كيلاً من جدة •

وهذه الطريق مرحلتان للجمال فقط ، ومسافة ٧٣ كيلاً •

٥ ــ الدرب الفرعي (الشرقي) جاء اسم الفرعي لأن أهل الحجاز يسمون جهة الشرق (فرع) ذلك أن سيولهم تأتي من الشرق الى الغرب أما أهل نجد فيسمون الغرب (فرع) لنفس السبب • وهذه الطريق تأخذ من مكة على درب زبيدة المعروف بالمنقى حتى تفترق عنه من المهد (معدن بني سليم سابقاً) تخرج من مكة مطلع شمس ، فأول مرحلة عند التقاء النخلتين أو قربها ، ذلك أن هناك مناهل عديدة وقرى كثيرة فكانت المحطة تتغير على مر الزمن ، ثم (بئر الباثة) بئر في مكان كان يعرف بالغمير وقربها مكة الرقة ، وقد ينقسم الحاج بينهما ، ثم الضريبة (ذات عرق) ثم (الرصن) أو أول العقيق (عقيق عشيرة) وهنا يفترق المنقى الى شعبتين : طريق البصرة يقطع العقيق متجهاً مطلع شمس ، وطريق الكوفة وبغداد يأخذ يساراً فيحط مكاناً يسمى الحفائر ، ثم

المسلح ، ثم معدن بني سليم (المهد اليوم) ثم يفترق الطريق • الدرب الفرعي يأخذ يساراً فيمر بالرحضية ، ثم الصويدرة ، فيأتي المدينة من مطلع الشمس ، بينما يستمر المنقى متجهاً صوب القصيم بالربذة ، وتعرف اليوم بالبركة ثم النقرة ، ثم وادي الرمة عند قطن •

٦ ــ درب الطائف : للطائف من مكة طريقان رئيسيان لا يجتمعان الا في الطائف : أولهما : يأخذ من مكة بين ثبير الأعظم وحراء ، ثم بين علمي نجد ثم على حنين ثم (الزيمة) وهي المرحلة الأولى على مسافة ٤٥ كيلاً ، و هي أول نخلة اليمانية ، ثم السيل الكبير على ٨٠ كيلاً من مكة ، و٥٣ كيلاً عن الطائف ، ثم المرحلة الثالثة الطائف ، فهذا الطريق ثلاث مراحل • ومسافته ١٣٣ كيلاً •

والثاني يخرج من مكة في منى ثم مزدلفة ثم عرفة فتكون مرحلته الاولى الكر بسفح جبل كرا من الغرب ، وقد تكون (شدّاد) هي المحطة وهي قبل الكر مما يلي مكة ببضعة أكيال ، وشدّاد على ٣٧ كيلاً من مكة ، والكر على ٤٤ كيلاً أيضاً ثم تأخذ صعوداً في جبل كرا العسر فتصل الى الطائف على ٩٠ كيلاً من مكة ، وهذه الطريق ليست للقوافل ، انما كانت طريق المصطافين على خفاف المطايا والدواب ، والرجالة • وكانت رصفت في عهود كثيرة ، وجمال أهلها كانت مدربة عليها ، فكانت اذا وصلت مكاناً لا تستطيع السير فيها على اخفافها ، قالوا لها : حبَوةْ حبوةْ • فتبرك على ركبها وتحبو حبواً حتى تجتاز ذلك الموضع ، ثم عبد هذا الطريق في العهد السعودي فصار يتسع لثلاث أو أربع سيارات في آن واحد فأصبح الطريق الرئيسي بين مكة والطائف •

٧ ــ درب اليمن : ظل هذا الدرب من القدم يأخذ من مكة جنوباً فيخرج من المسفلة فيقطع وادي عرنة ثم وادي ملكان فتكون مرحلته

الأولى أبار في وادي البيضاء على مسافة (٥١) كيلاً فسميت المحطة البيضاء ، ثم يأخذ على إدام ثم يحط السعدية في وادي يلملم على(١٠٠) كيل ، وهي ميقات أهل اليمن ، ثم مرحلته الثالثة (بئر خضراء) في وادي مركوب على (١٣٨) كيلاً ، ثم الليث ، وهي بندر عامر على مصب وادي الليث في البحر • وعند ما عبد طريق اليمن ترك هذا الدرب يساراً وأخذ على الساحل فلم يمر بأية محطة مما ذكر ، ثم رأيت في رحلة الى هناك ــ أهل المحطات ينتقلون بمقاهيهم الى ما يوازي مكانهم من هذا الطريق ، ولا شك أن المحطات القديمة ستندثر لذلك •

وفي الختام أحمد من أنعم باتمام هذا الكتاب ، وأسأله السداد والتوفيق •

* * *

المراجـع

السيرة النبوية	لابن هشام
ديوان كثير عزة	تحقيق احسان عباس
شعر الأحوص	جمع وتحقيق عادل سليمان جمال
أيام العرب في الجاهلية	لمجموعة من الاساتذة
ديوان عمر بن أبي ربيعة	تحقيق فوزي العطوي
تأريخ مكة	للأزرقي
شفاء الغرام	للفاسي
الأغـاني	لأبي الفرج الاصفهاني
معجم البلدان	لياقوت الحموي
معجم ما استعجم	للبكري
معجم معالم الحجاز	للمؤلف
لسان العرب	لابن منظور
القاموس المحيط	للفيروز أبادي
سبائك الذهب	للسويدي
نهاية الأدب	للقلقشندي
طريق الهجرة النبوية	لعبد القدوس الأنصاري
آثار المدينة	لعبد القدوس الأنصاري
تأريخ الدولة العباسية	للخضري
معجم الأدباء	لياقوت الحموي
الدرر السنية في الأنساب الحسنية والحسينية	الشريف محمد البرادعي
نسب حرب	للمؤلف
المنجـد	الطبعة السابعة
بلاد ينبع	للجاسر

دليل الموضوعات العامة

دليـــل اللوحـــات

الدليل العـام

ت

ث

ج

خ

ذ

ر

ز

س

ش

ض

ط

غ

ق

ن

و

هـ

ي

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ــ الأدب الشعبي في الحجاز : دراسة للأدب الشعبي في الحجاز مزوداً بفصول عن اللهجات والطب العربي والعادات •

٢ ــ طرائف وأمثال شعبية (من الجزيرة العربية) طبع للمرة الثانية •

٣ ــ معجم معالم الحجاز : كتاب جغرافي أدبي تأريخي ضخم • تطبع اجزاؤه تباعاً • ويقع في عشرة أجزاء •

٤ ــ نسب حرب : كتاب يتحدث عن قبيلة حرب (تأريخها وأنسابها وديارها) طبع للمرة الثانية •

٥ ــ معجم قبائل الحجاز : كتاب يستقصي جميع القبائل والبطون التي سكنت الحجاز من فجر التأريخ الى يومنا هذا ، فروعها وتأريخها وديارها • ويقع في ثلاثة اجزاء •

٦ ــ على طريق الهجرة (رحلات في قلب الحجاز) وهو هذا •

٧ ــ الرحلة النجدية : رحلة في أنحاء نجد وجهات من الحجاز • تصوير للحالة الاجتماعية في تلك الجهات •

٨ ــ رحلات في بلاد العرب (في شمال الحجاز والأردن) قبائل تلك الجهات وأنسابها وديارها ، ونبذ تأريخية وأدبية ومشاهدات وانطباعات وآراء • فيه ردود مركزة على ما تنوقل عن تلك البقاع وسكانها •